ميشال زيفاكو
رواية
باردليان
الجزء الأول
المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
S. Ghantous

ميشال زيفاكو

رواية
باردليان

ترجمة : طانيوس عبده

الجزء الأول

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

- ١ -

الاخوان

المنزل كبير منخفض لا تعلو نوافذه أكثر من مترين عن سطح الأرض . والنوافذ تطل على بستان كبير ، بل جنة فيحاء ، تتناجت أطيارها بارق من نغمات العيدان ، وتهدج صوت النسيم فيها ، فحنت أغصانها إلى معانقة الأغصان .

وفي إحدى الغرف المشرفة على البستان شيخ جليل جالس على كرسي ضخم وقد بيضت شعره السنون ، وبدت عليه دلائل الهرم وهو لم يتجاوز في حلبة العمر مبلغ الكهول .

كان هذا الشيخ ساهي الطرف ، مشتت البال ، ينظر الى البستان بعين تضطرب فتدمع ثم ينظر إلى حصن منيع بجواره فتتقد عيناه وتلمع . ثم يعود فيرسل طرفه الى البستان وتخرج من صدره أنة لولا تقادم العهد بشبابه لقلنا انها أنة ولهان . ويقول بعد هذا الأنين : إبنتي .. أين ابنتي ... وإنما يذكر ابنته بصوت يتهدج من الرفق والحنان .

وكان في هذه الغرفة خادمة تشتغل بترتيبها فسمعت قول الشيخ وقالت له:

إن الآنسة يا سيدي تجني الأزهار .

فابتسم الشيخ وقال : نعم ، إننا في زمن الربيع الباسم ، وكل ما في الوجود يبسم وينشد ، ولكن ابنتي أجمل أزهار الربيع ، فهي في ربيع دائم

ثم أطلق نظره الى ذلك الحصن ، حصن أسرة مونتمورانسي ، وبرقت عيناه ببارق من الحقد وقال : أي مونتمورانسي ، صاحب هذا الحصن وأمير الجيوش ، إنك أخذتني أخذ العزيز القادر ، وثنيت عني عطف الرحمة ، فأثرت كمين ضغنك وسلبتني ضياعي العامرة ، فما أبقيت لي غير هذا المنزل الذي آوي اليه ، على انك قد يستفزك الحقد الى اختلاسه فيما اختلست ، فأبيت دون مبيت ... إبنتاه ، إنك تجنين أزهار هذا البستان وقد يكون ذلك آخر ما تجنين .

ثم سالت دمعتان على وجنتي هذا الشيخ القانط فمسحهما بمنديله وعاد الى النظر فاصفر وجهه فجأة . ذلك انه رأى فارساً بالملابس السوداء ترجل عند باب منزله ودخل اليه .

فقال في نفسه : ويلاه انه رسول امير الجيوش .

أما الرسول فانه دنا من الشيخ ووقف أمامه وقفة المتهيب وبيده ورقة مطوية ثم انحنى بملء الاحترام وقال : يا سيدي دي بيانس اني رسول مولاي أمير الجيوش أتيت اليك بهذا البلاغ .

فارتعدت فرائص الشيخ وقال : بلاغ !

- يعز علي يا سيدي ان أكون من نذراء السوء ، فقد صدر إلي الأمر بابلاغك نسخة من أمر البرلمان الصادر في باريس أمس ، أي في الخامس وعشرين ابريل سنة ١٥٥٣ .

فوقف دي بيانس ووضع يديه على صدره وقال : قل أيها الرجل ، أبقي في كنانة أمير الجيوش سهم لم يرمني به ؟ قل ما هي هذه النكبة الجديدة التي

قذفها بركان حقده .

فأجابه الرسول بصوت ضعيف كأنه يخجل مما يقول : مولاي ان أمر البرلمان يقضي بتجريدك من هذا المنزل الذي تقيم به ومما يحيط به من الأراضي التي منحك إياها الملك لويس الثاني عشر ، ويقضي بردها الى أسرة مونتمورانسي في مدة شهر .

فحاول الشيخ ان يتجلد فخانه الجلد واصفر وجهه ، فنظر الى ذلك البستان العظيم المحدق بمنزله نظرة قنوط وقال : يا مولاي لويس الثاني عشر ويا أيها الملك الشهير فرنسوا الأول ، ألا تسمعان من قبريكما ما يقول هذا الرسول ..

ألا تريان من العلى ما يصنع أمير الجيوش بمن سفك دمه في أربعين معركة في سبيل مجدكما ومجد الوطن .

إنهضا من رقادكما وانظرا الى هذا الشيخ وهو غرس نعمتكما كيف يطرد من أرضه فلا يبقى له ما يسد به الرمق .. وانظرا إلى هذا البطل المنكود كيف يجازى بعد ان مات من كان يعرف قدر الأبطال .

فلما سمعه الرسول يكلم نفسه بهذه الأقوال ، ورأى دلائل اليأس بادية بين عينيه ، وضع البلاغ على كرسي وانسل هارباً دون استئذان .

ولكن الشيخ لم يفطن له فقد كان في شاغل عنه بما داهمه من اليأس ، فجعل يندب حظه العاثر ويتوجع لنكبة ابنته وهي في مقتبل العمر ، ثم ينظر إلى حصن مونتمورانسي فيهيج ثائر حقده ويقول : إن يد الله فوق يدك أيها الظالم ، فلتلق بعدي سبة الأبد ، ولتشق ببنيك ، ويشقى بنوك باولادهم بعدك .

ثم مد قبضته الى ذلك الحصن مهدداً وسقط على الأرض مغمياً عليه .

ولقد كانت نكبة هذا الشيخ المنكود هائلة ، لانه كان سيد جميع بيكارديا ، فما زال مونتمورانسي أمير الجيوش ينزع منه الأرض بعد الأرض ،

والضيعة في أثر الضيعة بما له من النفوذ في البرلمان ، حتى لم يبق له غير أرض مارجيني ، وهي الأرض التي يقيم فيها مع ابنته في أشد حالات الشقاء ، لا ثروة له يعيش من ريعها ، ولا قوة له يدفع بها عن ابنته شقاء الفقر ويا له من شقاء .

كانت حنة ابنة الشيخ دي بيانس في السادسة عشرة من عمرها وهي غراء الطلعة هيفاء القد حوراء العينين كأنها خلقتا للسحر بل كأنما هي الحسن بجسما والجمال ممثلا فلا تفتح العين على أتم منها حسناً .

وكانت قد ذهبت في ذلك اليوم الذي تبدأ فيه هذه الحكاية الى بستان المنزل في الساعة التي تعودت الذهاب فيها كل يوم ، فتوغلت في غابة الكستنا وهي آخر غابات البستان تستنشق هواء المساء البليل ، وقد سارت بين تلك الاشجار وهي تتمتم قائلة : ترى أأجسر على ان أعترف له الليلة بهذا السر الهائل الدقيق .

وفيما هي تحدث نفسها وقد وضعت يدها فوق قلبها ، شعرت فجأة بيد جذبتها بلطف وبفم لثم يدها ، فارتعشت لهذه القبلة ثم ابتسمت الطف ابتسام وقالت : فرنسوا !

– ولكن ماذ ألم بك أيتها الحبيبة وما هذا الاضطراب ؟

– إصغ أيها الحبيب .. واعلم ..

ولكنها تلعثمت وقالت : أواه اني لا أجسر على التصريح ..

ثم [illegible] الحب والحنان .

كان هذا المباغت فتى في مقتبل العمر لطيف الخلق متناسب الأعضاء صبيح الوجه يتألق في جبينه ضوء البشر والطلاقة .

وهذا الفتى يدعى فرنسوا دي مونتمورانسي ، وهو أكبر أبناء أمير الجيوش الناقم على والد حنة والذي انتزع منه منذ ساعة آخر ما بقي له من آلات العيش .

وقد مشى مع الصبية يتشاكيان ويتناجيان ، وهي كلما مشت خطوة تقف ، فتصغي وتقول : إنهم يقتفون أثرنا ... إنهم يراقبوننا ... ألا تسمع ؟

فيصغي فرنسوا إصغاؤها فلا يسمع حساً ويقول : ربما كان ما سمعته صوت عدو أرنب سارح في البستان .

فتمشي هنيهة ، ثم تعود إلى الوقوف وتقول : فرنسوا ... فرنسوا .. إني خائفة .

فينذهل الفتى ويقول : مما تخافين أيتها الحبيبة وأنا معك ومن يجسر ان ينظر اليك ما زالت يدي في يدك ؟

– إني مضطربة الحواس يكاد ينشق صدري من الخوف وذلك منذ ثلاثة أشهر على الأخص .. فرنسوا إني خائفة .

– أيتها الحبيبة إنك امرأتي أمام الله منذ هذا الزمن الذي بدأ فيه رعبك ، فكيف تخافين وأنا أتولى حمايتك ... إنك ستكونين قريباً امرأتي أمام الناس ولا أكترث لهذا العداء القديم بين أبوينا ، فاذا كان هذا الذي يخيفك فاطمئني .

– لا ريب عندي فيما تقول ايها الحبيب ، لأن بين جنبيك قلباً طاهراً لا يعرف الدنس . وهب ان الله قدر ان لا نتمتع بهذه الأمنية السعيدة لكفاني من أماني الحياة اني لك يحملني ... حبني يا فرنسوا ، فإن حبك سلوتي وان قلبي يحدثني بان الدهر سيفاجئني بنكبة هائلة ، كأنما الصاعقة تنقض على رأسي .

– إني أحبك حباً ليس بعده غاية لمستزيد ، ولولا حذر الشرك بالله لقلت اني أعبدك كما أعبد الله . فما أوحى الى قلبك هذا الخاطر الحزن أيتها الحبيبة ؟ إنك ستكونين إمرأتي في أقرب حين ، وليس في الوجود قوة تحول دون بلوغي هذه الغاية .

وهنا حمل الهواء صوت قهقهة لم يسمعه العاشقان لاضطرابهما .

واستأنف فرنسوا الحديث ، وقال بلهجة العاتب : على اني أستشف من كلامك إنك تكتمين سراً يؤلمك ، ويهيج من قلبك مكامن الخوف ، فإذا كان ذلك ، فكيف تكتمين أسرارك عن عشيقك ... بل عن زوجك .

– نعم ، لقد أصبت ، فلا يحق لي ان أكتم سراً عنك . إذاً ، إعلم إني أنتظرك حين ينتصف الليل عند مرضعتي في منزلها .. نعم يجب ان تعلم كل شيء ، ولكني لا أجسر على الإباحة بسري إلا في الليل .

– ليكن ما تريدين ايتها الحبيبة ، فسأوافيك عند انتصاف الليل .

– والآن سر بامن الله ، لأني عائدة الى المنزل ، فقد طال غيابي عن أبي .

فعانقها فرنسوا مودعاً وعاد من حيث أتى فوقفت حنة تشيعه الى ان توارى عن النظر فتنهدت ومشت عائدة الى المنزل .

ولكنها لم تسر بضع خطوات حتى سمعت من ورائها وقع أقدام فالتفتت وامتقع وجهها للفور إذ رأت فتى يبلغ العشرين من العمر يتعقبها وهو براق العينين تدل ملامحه على الحدة والكبرياء .

فوقفت الصبية وقالت بلهجة المتذعر : أهو أنت يا هنري !

فأجابها بصوت المستهزىء : نعم أنا هو ذلك الشقي بغرامك . ولما هذا الخوف مني ؟ أليس لي الحق ان أكلمك مثله ، اي مثل أخي .

فلبثت حنة مضطربة دون ان تجيب .

أما هنري شقيق فرنسوا فإنه ضحك ضحك الساخر وقال لها : اذا كنت لا تمنحيني هذا الحق فإني استمنحه لنفسي . نعم ، إني إذا كنت لم أسمع كل ما قلتماه فقد رأيت كل ما كان بينكما من التقبيل والعناق ، وبعد ، فما هذه الجفوة والاعراض ، وما بالك تقسين علي هذه القسوة وأنا اول من جاهر

لك بغرامه . وبماذا يفضلني أخي فترغبين به عني ؟

فبدت دلائل الانفة على وجه الفتاة وقالت له : إني أحبك يا هنري ، وسأحبك ما حييت حب إخـــاء ، لأنك أخو الذي وهبته حياتي . ودليل صدقي ، في حبي إياك ، وعطفي عليك ، إني لم أقل كلمة بعد عنك لفرنسوا .

- إنك تكتمين غرامي لك عنه حذراً عليه فإذا شئت قولي له اني أحبك، وليأتني بحسامه فلدي أيضاً مثل ذلك الحسام .

- لقد جريت شوطاً بعيداً في تحقيري حتى بت أخشى ان أنسى من أنت وانك أخوه .

- لا تقولي أخاه بل خصمه ومزاحمه .

فضمت حنة يديها إلى صدرها وقالت : أواه يا فرنسوا إني أسألك العفو لسماعي هذه الأقوال الشائنة وسكوتي عنها .

فاتقدت عينا هنري ببارق من الحقد وقال : إذاً أنت لا تزالين مصرة على جفائي .. ما بالك صامتة .. ألا تريدين ان تحبيني .. ليكن ما تريدين ولكن إحذري .

فاضطربت الفتاة وقالت : أسأل الله أن تكون مغبة هذا الوعيد الذي أقرأه بين عينيك علي وحدي دونه .

فارتعش هنري وقد يئس منها وقال لها : إذاً إلى اللقـــاء أيتها الحسناء . أتسمعين ! إني لا أودعك لاننا سنلتقي .

ثم أطرق برأسه الى الأرض وابتعد عنها بين الغابات يمشي مشية الخنزير الجريح وفي قلبه تتأجج نار الانتقام .

ومشت حنة وهي تقول : رباه ! اذا أردت ان يفوز هذا الرجل بانتقامه فليكن فوزه علي .

وفيما هي عائدة الى منزلها تدعو الله لزوجها وحبيبها بالسلامة من شر

أخيه شعرت بحركة الجنين في أحشائها .

وذعرت ذعراً هائلاً ، وركعت على الأرض ، وهي تقـول : رباه ! اني لم أعد وحيدة في هـــذا الوجود ، فإن في أحشائي جنيناً يريد أن يعيش ، ولا أدعه يموت .

- ٢ -

نصف الليل

كانت السكينة سائدة ، والظلمات مدلهمة ، وقد احتجب القمر عن وادي موانغرانسي .

وقد دقت الساعة الحادية عشرة فوقفت حنة تعد دقاتها حتى اذا انتهت من عدها عادت الى مناجاة ذلك الجنين باعذب الألفاظ .

ثم صمتت هنيهة وعادت الى محادثة نفسها فقـالت : ما هذا الاضطراب الذي رأيته من أبي حين عودتي في هذا المساء . ولماذا ضمني الى صدره والدمع يترقرق في عينيه . العله أصيب بنكبة جديدة يكتمها عني ... اني لم أره مرة على مثل ما رأيته الليلة .. رباه ! أكتب لنا في لوح المقدور ان لا نهنأ طرفة عين ؟

ثم ركعت أمام صورة العذراء وجعلت تصلي ، حتى دنت ساعة انتصاف الليل فأطفأت المصباح واتشحت برداء ثم خرجت متجهة الى منزل قروي يبعد خمسين خطوة عن منزلها .

وبينما هي سائرة رأت شبحاً يسير مثلها فنادته قائلة : فرنسوا ! غير ان الشبح لم يرد فأطرقت برأسها واستمرت في مسيرها .

أما الشبح فانه سار الى منزل والد الفتاة وذهب تواً الى نافذة كان ينبعث منها النور فطرقها .

وكان الشيخ والد حنة لم ينم بعد ، وهو يسير في أرض الغرفة ، جيئة وذهاباً ، لا يفكر إلا بامر واحد ، ولا يسأل نفسه غير سؤال واحد وهو : ما عسى ان يكون مصير ابنته بعد ان يطرد من المنزل ، والى من يلجأ بها ؟

فلما سمع الطرق على النافذة وقف فجأة وقال في نفسه : هوذا نكبة جديدة دون شك .

ثم ذهب إلى النافذة ففتحها ونظر الى الطارق فخرجت من صدره أنة تشبه الزئير لأنه رأى هنري دي موغرانسي ابن ألد أعدائه .

فعاد لفوره إلى غرفة مجاورة كان يضع فيها أسلحته فانتزع سيفين من الحائط وعاد بهما فألقاهما على المائدة .

وكان هنري قد وثب الى الغرفة فجعل كل من الرجلين ينظر إلى الآخر نظرات نارية وهو لا يستطيع ان يفوه بحرف .

غير ان الشيخ أشار ، بملء العظمة ، الى السيفين الموضوعين على المائدة .

فهز هنري كتفيه ، وأمسك بيد الشيخ وقال له : إني لم أجيء الى هنا بغية مبارزتك ، وأية فائدة من ذلك ؟ لأني أقتلك لا محالة ، وفوق ذلك فليس لدي ما يدعوني الى قتلك لأني لا أكرهك ، ولا أحقد عليك . وأي ذنب جنيته إذا كان أبي قد جردك من ثروتك ، وأصبحت فقيراً معدماً بعد ان كنت من كبار الأغنياء ، وغدوت من عامة الناس بعد أن كنت من الحكام .

فضرب الشيخ المائدة بقبضته وقال : إذاً ، ما جئت تعمل في منزلي ؟ قل فإني أعد وجودك عندي أعظم إهانة تصمني بها . العل أباك أرسلك إذ لم يجسر ان يأتي بنفسه ، أم أنت قادم لترى إذا كنت لا أزال حياً بعد تلك النكبة التي رماني بها ؟.. قل ، او أندفع مع تيار غضبي فأقتلك في الحال .

فسح هنري العرق الذي كان يتصبب من جبينه وقال ، أتريد أن تعلم السبب الذي حملني على القدوم اليك ؟ إذاً ، إعلم اني عارف بكل ما أصابتك به اسرة مونمرانسي من الكوارث ، وقد جئتك أيها الشيخ الجاهل لأقول لك ، اليس من العار الذي لا يمحى ان تكون ابنتك بعد هذا العداء خليلة فرنسوا دي مونمرانسي ؟

فاهتز الشيخ كأنما قوة كهربائية هزته ومرت على بصره غمامة حمراء ورفع يده يهم بصفع هنري .

غير ان هنري أسرع إلى تلك اليد فأوقفها عن الصفع وقال له أتشك بما قلته لك أيها الشيخ البليد .. ان ابنتك في هذه الساعة بين ذراعي أخي .. تعال .. تعال وانظر بعينيك

ثم جره الى غرفة حنة ورفس الباب برجله ، فلما فتح لم يجد الشيخ ابنته فيها فرفع عينيه الى السماء وأن أنيناً موجعاً وعاد مطرق الرأس من اليأس والخجل الى قاعة الاستقبال ، فسقط على كرسي فيها سقوط الشجرة الضخمة تكسرها العاصفة .

فاغتنم هنري تلك الفرصة وهرب من ذلك المنزل الذي فضح فيه أخاه كما هرب من قبله قايين .

أما حنة فإنها ذهبت الى منزل مرضعتها فلم تدخل اليه بل وقفت عند بابه تعيد في نفسها ما أعدته من القول للاعتراف بسر حبلها .

ولم يطل وقوفها إذ دقت الساعة الثانية عشرة ووصل فرنسوا فعرفته

وعرفها ، و[illegible] الشغف ، لأن الحب بينهما كان شديداً متبادلاً على السواء .

وعند ذلك قال لها فرنسوا : إن الدقائق أيتها الحبيبة معدودة علينا في هذه الليلة ، فقد أقبل منذ هنيهة فارس إلى الحصن يخبرنا ان أبي سيصل بعد ساعة ، ولا بد لي أن أكون في الحصن لاستقباله . فاعترفي لي أيتها الحبيبة بهذا السر ، ولا تترددي في قوله مهما كان من أمره فإنك تكاشفين به زوجك .

– زوجي ... إن قلبي يوشك ان يطير فرحاً لهذه الكلمة الحلوة . أحق ما تقول يا فرنسوا ؟

– أقسم لك يا حنة بشرفي وباسمي المجيد الذي لم يتدنس .

– إذاً فاسمع .

ثم اتكأت عليه وأسندت رأسها على كتفه وحاولت ان تبدأ اعترافها ، فسمعت عندها صيحة هائلة اخترقت سكون الفضاء فرعبت رعباً شديداً وقالت: فرنسوا إن هذا الصوت صوت أبي .. فرنسوا ان صوته يشبه صوت المختنق.. فرنسوا انهم يخنقون أبي .

ثم أفلتت من ذراعي حبيبها وجعلت تعدو إلى منزل أبيها ، فبلغته ببضع ثوان ، ووجدت الباب والنوافذ مفتوحة ، فدخلت إلى القاعة الكبرى حيث كان النور . فرأت أباها جالساً فيها على كرسي ، وهو كأنه منصعق فطوقت بذراعيها رأسه المكلل بالشيب وجعلت تقبله وتقول : أبي .. أبي .. هذا أنا.. ابنتك حنة .

ففتح الشيخ عينيه ، ونظر بهما الى ابنته المنكودة ، نظرة ملؤها الاحتقار .

فتراجعت منذعرة الى الوراء ، وهي لا تشك في أنه عرف كل أمرها .

ثم جثت أمامه على ركبتيها فاعترفت له بامرها وقالت له : أسألك العفو يا أبي عن حبه ، فقد دفعتني إلى ذراعيه يد قوية مجهولة ، ولو علمت يا أبي قدر حبنا لكان هذا الحب لديك خير شفيع .

أما الشيخ فانه وقف حين فرغت من حديثها فكان يشبه الخيال وأخذ بيد ابنته وأنهضها

فصاحت الفتاة بلهجة السرور قائلة : أعفوت يا أبي عن ذنبي ؟

فلم يجبها بكلمة عن سؤالها ، بل سار بها حتى وصل إلى الباب ، فمد يده إلى خارجه وقال لها : إذهبي إلى حيث تشائين فلست أبيك ولم يعد لي بنون .

فشعرت الفتاة ان الأرض تميد بها ، وحاولت الكلام فانحبس لسانها ، واختنق صوتها .

لكنها سمعت من ورائها صوتاً يقول : لقد أخطأت يا أبي فلا يزال لك ابنة وان ابنك يقول هذا القول .

وكان صاحب هذا الصوت فرنسوا مونمورانسي ، فدخل بعد ان قال هذه الكلمات ، بينما كانت حنة قد صاحت صيحة رجاء ، وصاح الشيخ صيحة يأس ، وتراجع منذعراً إلى الوراء هو يقول : عشيق ابنتي في منزلي ... يا للعار !

فدنا منه فرنسوا وقال له بلهجة يتبين منها الصدق: قلت لك يا سيدي انك منخدع فهل تريد ان أكون ولدك وزوجاً لبنتك .

– رباه ، ماذا أسمع ، أنت ولدي .. أتريد ان تجهز علي بالتهكم الهائل بعد أن قتلتني بالفضيحة .

– لا عار يا سيدي ولا افتضاح ، فتفضل بقبولي زوجاً لابنتك .

– إني أرى الصدق بادياً بين عينيك ، ولكن الملك تجهل انك ابن أمير الجيوش .

– كلا ، ولا أجهل أيضاً ما بينك وبين أبي من العداء ، ولكن زواجي بابنتك كافل بزوال الحقد ، ومنع المظالم عنك ، قل يا أبي إن سعادتي وسعادة ابنتك بين شفتيك .

ففرح الشيخ فرحاً لا يوصف وكاد يبارك العاشقين .

ولكن خطر له فجأة خاطر هائل ، فقال في نفسه : إن هذا الفتى يرى اني بت على أبواب القبر ، فهو سيعبث بابنتي بعد موتي كما عبث بي في قيد الحياة .

فقال له : أحقيقة إنك تريد الزواج بابنتي ؟.. قل متى ؟.! وفي أي يوم ؟

فعلم فرنسوا ما يجول في خاطر الشيخ ، فاتقدت عيناه بأشعة الإخلاص وقال : غداً .

فأجابه الشيخ ، بصوت أجش : ولكني أكون غداً من أهل القبور .

فنظر فرنسوا الى ما حواليه ، فرأى الخدم قد صحوا من رقادهم ، واجتمعوا في تلك القاعة ، فتأبط ذراع حنة وأشار الى خادمين أن يحملا الشيخ على كرسيه التي كان جالساً عليها ، وهو بحالة تشبه النزع وقال : هلم بنا يا أبي الى الكنيسة كي يعقد لنا كاهنها عقد الزواج ، فيمحوا اتحادنا عداء عائلتينا .

فاضطرب قلب الشيخ حتى كاد يخرج من صدره ، وصاح صيحة فرح خرجت متقطعة كأنها أنة شقاء ، وسالت الدموع من عينيه فمد يده وبارك هذا الفتى الشريف .

وبعد عشر دقائق كان كاهن كنيسة مارجنسي يصلي صلاة الفجر ، وفي أوائل المصلين فرنسوا وحنة ، وورائهما والدها وقد حملوه الى الكنيسة على كرسيه وورائه امرأتان وثلاثة رجال وخدام المنزل ، فكانوا شهوداً على

(٢) بارولبان (ج ١)

عقد الزواج .

ولما فرغ الكاهن من الصلاة عقد زواج العاشقين وباركهما ، ووصل بينهما بتلك الصلة الأبدية ، وعاد الزوجان الى منزل الشيخ يلتمسان بركته الأبوية فرأياه يحاول ان يرفع يديه ليباركهما فلا يستطيع ، ولكن دلائل الفرح كانت مرتسمة على وجهه .

وبعد هنيهة ابتسم لهما إذ لم يستطع الكلام ، وطبع الابتسام على شفتيه وقد صبغتا بالاصفرار فلم يفارقهما بفراق الروح .

ذلك ان هذا الشيخ قتله الفرح ، بعد ذلك اليأس ، فمات باسماً قرير العين .

- ٣ -

مجد الاسم

وبعد ذلك بساعة دخل فرنسوا الى حصن مونمورانسي ، وقد عهد بزوجته الثاكلة الى مرضعتها ، ووعدها ان يعود اليها عند الفجر ، بعد ان يرى أباه .

فلما دخل فرنسوا الى قاعة السلاح الكبرى وجد أباه أمير الجيوش جالساً على عرش عظيم يرقى اليه بثلاث درجات مفروشة بالمخمل ، والعرش محلى بالذهب ومرصع بالأحجار الكريمة .

وكان النور شديد التألق في هذه القاعة إذ كان فيها إثنا عشر عموداً من

النحاس وفوق كل عمود يتشعب إثنا عشر مصباحاً والجدران مغطاة بالسجاد الثمين وعليه الأسلحة المختلفة على جميع أنواعها .

وكان يوجد على هذه الجدران إثنتا عشرة صورة ، هي صور أجداد أمير الجيوش ، وتحت صورة كل منهم ما كان يستعمل في عصره من أنواع السلاح .

وكان أمير الجيوش جالساً على عرشه وهو مقطب الجبين ، وقد وقف حوله خمسون رجلاً من خيار قواده سكوتاً لا يتكلمون ، وعلى يساره قرب العرش ولده هنري ، وهو تائه في مهامه التفكير ، لا يشغله غير الكيد لأخيه .

ولم يكن فرنسوا قد رأى أباه منذ عامين ، فتقدم حتى بلغ العرش دون ان يرى نظرات أخيه الدموية ، فانحنى أمام أبيه ، بملء الاحترام .

فلما رأى امير الجيوش ولده البكر ، وتكامل شبابه ، ابتسم له ولم يحدثه بكلمة .

وعندها أشار بيده الى الحضور وبدأ حديثه فقال :

- إنكم تعلمون ما أصيب به الأمبراطور شارلكان من الانكسار تحت أسوار ميتز في شهر دسمبر الماضي . فان المرض والبرد قد فتكا بجيشه فتكاً ذريعاً حتى حسبنا انه قضي على المملكة الأسبانية القضاء المبرم ، وانها لا تقوم لها قائمة بعد هذا الانكسار .

وما زالت اسبانيا قد تضعضع شأنها والهوكينوت أبيدوا بحسامي ، فقد خيل لنا ان السلم قد تقرر في هذا الربيع وأخذ جلالة الملك هنري الثاني يعد الحفلات مستبشراً بهذا السلام الأكيد .

غير ان الأبطال وحذاق أهل الحروب يستفيدون من انكساراتهم ، كما يستفيد سواهم من النصر . فإن شارلكان خرج من تلك المعركة الهائلة منقبض

الصدر دامع العين .

نعم إن هذا الأمبراطور بكى بدمع غزير حين فارق معسكره ، وقد ترك ٢٠ الف جثة ، و ١٥ الف مريض و ٨٠ مدفعاً ، ولكن هذا الرجل الحديدي لم يضعضعه ذلك الانكسار ، فعاد إلى الحرب ، وهو يزحف الينا الآن .

ثم نظر أمير الجيوش نظرات النسر إلى قواده واستأنف الحديث فقال :

ولقد تلقينا في الساعة الثالثة أمس أول نبأ عن زحفه وغايته ، فهو يحاول الاستيلاء على بيكارديا بعد أن نظم جنده وحشد الجيش المعظم . أما الآن فان فيلقاً من المشاة والمدفعية يزحف إلى تيروان ، فإذا تمكن من إفتتاحها فهو كأنه قد افتتح فرنسا بأسرها .

ولذلك اتفقت مع جلالة الملك أن يحتشد جيشي في باريس ، وأن يسير بعد يومين ، وبعد ذلك أرسل فرقة مؤلفة من الفي فارس ، فتسرع إلى تيروان وتحاصر فيها فتدافع حتى الموت كي توقف زحف العدو .

وصاح جميع القواد بصوت واحد بشبه قصف الرعود ... حتى الموت !..

وعاد أمير الجيوش إلى الحديث فقال :

– ويجب أن يكون لهذه الفرقة قائد فتى جسور لا يرهب الموت وقد اخترته ، فهو ولدي البكر فرنسوا .

فذعر فرنسوا وقال بلهجة القنوط : أنا ؟

– نعم أنت ، لقد وقع عليك اختياري وأنت الذي تتولى إنقاذ ملكك وأبيك ووطنك في وقت واحد . إن الفرقة التي عينتها لهذه المهمة هي خارج الحصن فتهيأ للسفر بعد ربع ساعة واذهب فلا تقف إلا في تيروان ، حيث يجب أن تفوز أو تموت

ثم التفت إلى ولده الثاني فقال له : وأما أنت يا هنري فيجب أن تبقى في الحصن وتعد فيه كل معدات الدفاع كي لا يؤخذ على غرة .

وعض هنري على شفته حتى أوشك أن يدميها كي يستطيع التغلب على عواطف فرحه وقال في نفسه : وأطرباه ، إن حنة باتت لي .

أما فرنسوا فقد ذعر ذعراً شديداً ودنا خطوة من أبيه وقال له : ماذا تقول يا أبي .. أنا .. أنا ..

ثم تمثل له بسرعة التصور ما يكون من شقاء زوجته إذا غادرها وحيدة ، يوم موت أبيها ودمدم : يا للهول .. كلا .. إن هذا محال .

فقطب أمير الجيوش حاجبيه وقال له بصوت رنان : فرنسوا أسرع إلى جوادك واصدع بما أمرت .

– أبي أتوسل اليك أن تمهلني ساعتين ، بل ساعة واحدة .

ووقف امير الجيوش وقد ارتجفت وجنتاه من الغضب وصرخ بصوت يتهدج :

– أراك تناقش في اوامر الملك وأوامر رئيسك .

– أبي ساعة واحدة ، وأعدوا بعدها عدواً إلى الموت .

وتفجر الشيخ من الغضب ونزل عن عرشه وصرخ : فرنسوا دي مونمورانسي !. إني أقبض عليك بيدي .. لقد أهنت الاسم الذي تحمله .. فرنسوا ، إنك أول رجل من أسرة مونمورانسي ، خاف الموت ، منذ خمسة أجيال .

وقد كانت الاهانة شديدة هائلة لا يسع فرنسوا بعدها غير الانتحار أمام القواد كي ينفي عن نفسه تهمة الخوف . ولكنه فضل أن يموت موت الأبطال فشمخ برأسه ، وقد أمحت من قلبه خيالات الحب وأماني الغرام وقال : لتنقض الصاعقة على من يجسر أن يقول بان ابن مونمورانسي يخاف الموت . إن شرف الإسم الذي القب به يدعوني إلى الامتثال ، وسأسافر بعد ربع ساعة كما

أمرت ولكني إذا عدت حياً أناقشك الحساب ، وسيكون حساباً هائلاً .
إستودعك الله .

ثم إجتاز صفوف القواد وخرج من تلك القاعة واليأس ملء فؤاده ، فأمر أن يعدوا له معدات جلاده .

وكان جميع الحاضرين يتوقعون أن يصدر أمير الجيوش الأمر بالقبض عليه ، غير انهم رأوه رجع إلى عرشه يبتسم ، وسمعه القريبون منه يقول لا شك ان الدم الذي يجول في عروقه دم موغرانسي .

وبعد ذلك بعشر دقائق كان فرنسوا متأهباً للسفر ، فنادى خادماً وأمره أن يدعو له أخاه هنري .

فأسرع هنري إلى دعوة أخيه وقال له : إني آت لتوديعك يا فرنسوا ، فقد أمرت بالبقاء هنا .

فأخذ فرنسوا بيده بين يديه وقال له : أيمكن الاعتماد على إخائك يا هنري ؟

فارتعش هنري واحمر وجهه وقال . ما يحملك على الشك بي يا أخي ؟

ـ لا تؤاخذني لما بدر مني ، فإني شديد الشقاء فاعلم إني مسافر وقد لا أعود ، ولكني غادرت هنا شقاء عظيماً لا حيلة لي باتقائه

ـ أي شقاء هذا ؟

ـ اصغ إلي يا هنري ، فإن عزيمتي لا تصح إلا بعد جوابك . أتعرف حنة ابنة السيد دي بيانس ؟

ـ نعم أعرفها

ـ إذاً فاعلم شقائي ، إني أحبها وتحبني منذ ستة أشهر ، وكانت لي وكنت لها منذ ثلاثة أشهر ، وهي تدعى حنة موغورانسي منذ ساعتين .

فتظاهر هنري بالانذهال العظيم كأنه لا يعلم شيئاً من غرام أخيه ، فقال له فرنسوا لا تعجب يا هنري فستخبرك هي غداً كيف كان عقد زواجنا ، ولكن

ليس هذا كل ما أريد أن أقوله لك .

فإن حنة تبكي الآن فوق جثة أبيها ، وقد مات أبوهـا وكانت آخر نظرة نظرها إلي وإلى ابنته كأنه يوصيني بها خيراً غير إنك تعلم أن منزل هـذا المنكود وأرضه وكل مـا يمتلك قد بات لنا ، وقـد تركت امرأتي وحيدة لا معين لها ولا نصير ولا مال ولا مأوى ، أفهمت الآن علة شقائي ؟

- نعم فهمت كل شيء ولكن أنسيت إني أخوك وانـه صدر الأمر إلي بالبقاء هنا .

- بورك فيك يا أخي ، إذن سأعتمد عليك ، أتقسم لي بمراعاتها والحرص على راحتها .

فارتعش هنري ارتعاشاً بيناً ، ولكنه أجاب دون أن يتردد ، نعم أقسم .

- وإذا سلمت من الموت في هذه الحرب وعدت إلى الوطن أتقسم لي إني أرى امرأتي في منزل أبيها لا يعوزها شيء من أسباب الراحة ؟

- أقسم !

- وإذا قدّ لي أن أموت ، أتقسم لي بالاباحـة بهذا السر لأبيك وباعطاء أرملتي كل أموالي كي تعيش بها من بعدي ؟

- أقسم

فعانق فرنسوا هذا الأخ المزاحم وقال : لم يبق الآن ما يحول دون سفري ، فاذكر يا أخي إنك أقسمت لي ثلاث مرات .

ثم امتطى جواده وسار لرئاسة الأبطال الذين ينتظرونه .

والتفت إلى منزل امرأته فبكى وقال : الوداع !

وعند ذلك لكز بطن جواده فاندفع به حتى بلغ فرقة الفرسان فاستقبلوه بالهتاف ، فقال لهم : هلموا بنا إلى الموت !

فصاحوا جميعهم بصوت واحـد كهزيم الرعود ، إلى الموت ! فسار في

طليعتهم إلى حيث أمره وأبوه .

أما أبوه فانه لما سمع ذلك الهتاف وأيقن ان ولده قد سافر مع الفرسان ، تنهد تنهداً طويلاً ثم امتطى جواده وسار في طريق باريس ، وبقي هنري وحده لحراسة الحصن .

- ٤ -

يمين الاخ

كانت جثة والد حنة موضوعة على مرتبة عالية في وسط قاعة الاستقبال الكبرى حسب اصطلاحهم في ذلك العهد وقد البسوه ملابسه الرسمية ووضعوا حسامه بجانبه وقبضته بيده .

وكان الصبح قد طلع وحنة لا تزال ساهرة على أبيها ، فقامت إلى النافذة وأطلقت نظرها إلى عجائب الربيع البادية في ذلك البستان كأنما كانت تلتمس تفريج كربتها بالنظر إلى تلك الأشجار المزهرة والسهول المفروسة بالنبت الأخضر والطيور المختلفة الألوان ، ولكنها لم تجد بين تلك الأشجار الباسمة ما يشبه ابتسام أبيها فعادت اليه تبكي بالدمع الغزير وتناجيه بارق الالفاظ .

وفيما هي على ذلك سمعت وقع حوافر جواد فقالت في نفسها : هو ذا فرنسوا قد أقبل ، وسارت لاستقباله ، فلم تكن تبلغ الباب حتى وقفت حائرة مبهوتة ، ذلك إنها رأت هنري دي مونمورانسي قد جاء بدلاً من أخيه .

أما هنري فانه دنا منها وقال لها : اني قادم اليك بنبأ أقسمت على أن ابلغك اياه في هذا الصباح ، ولولا ذلك لما وجدتني قادماً اليك في هذه الساعة التي تنتظرين فيها سواي .

فارتعشت حنــه وحدثها قلبها بوقوع مصيبة جديدة ، فقالت له : ماذا حدث ؟

– ان فرنسوا قد سافر

فتنهدت تنهداً يشبه الأنين وقالت : كيف سافر ؟.. ولكنه سيعود دون شك .

– بل انه لا يعود .

وقد لفظ هذه الكلمات الهائلة كما يلفظ القاضي الصارم الحكم على مجرم بالاعدام . فوضعت حنة يدها على قلبها وقد اوشكت ان تسقط على الأرض إذ خطر لها ان فرنسوا قد تخلى عنها ونظرت إلى هنري نظرة السائل دون أن تجسر على السؤال .

فنظر اليها هذا الأخ المنافق نظرة المتهكم وقال لها : ان الحرب قد عادت إلى النشوب، فالتمس أخي فرنسوا أن يكون في طليعة المحصورين في تيروان كي يوقف جيش شارلكان العظيم ، وليس لديه غير الفي فارس ، فكأنه قد التمس الموت .

ولا بد لي من ابداء ما علمته من السبب في عزمه على هذا الانتحــــار ، وهو انه شعر بما ارتكبه من الخطأ فاستكبر انكار زواجه ، وخشي اذا اعترف به غضب ابيــه امير الجيوش ، ففضل الانتحار المجيد ، وهو الموت تحت الأسوار .

فامتقع وجه حنه حتى بات أشد اصفراراً من وجه ابيها الميت وخرج من صدرها انين هائل فسقطت جاثية على الأرض لاضطراب ساقيها ونظرت إلى السماء وقالت : رباه ماذا اصنع بولدي ومن يعوله

ولبثت على ذلك مدة طويلة وقد نسيت وجود هنري ونسيت موت ابيها فلم تذكر في هذا القنوط غير ذلك الجنين الذي اصيب بهذه النكبة الفادحة قبل أن يولد

ثم وقفت فرأت هنري لا يزال واقفاً ينظر اليها دون أن تبدو على وجهه شيء من علائم الاشفاق .

فقالت : حيث يكون الزوج تكون المرأة ، فأنا ذاهبة إلى تيروان

— ولكنك لا تعلمين انها مدينة محاصرة لا سبيل إلى ولوجها ، بل انك تقتلين قبل الوصول اليها

— بل سأذهب .

— كلا ، انك لا تذهبين .

فهاجت المنكودة لما سمعته وقالت : من يمنعني عن الذهاب ؟

وكان هنري هائماً بها هياماً عظيماً دعاه إلى ارتكاب الجريمة فزادها يأسها ودموعها جمالاً في عينيه .

— انا أمنعك ، ثم أسرع فضمها إلى صدره

وقال : حنة . . انه سافر وتخلى عنك وقد جبن عن المجاهرة بحبك فهو لا يستحق منك هذا الحب .

أما أنا فاني أعبدك وأحبك حباً أقتل من اجله ابي بيدي اذا اعترضني فيه . فليمت فرنسوا موت الجبناء لأنه جبن عن الاحتفاظ بك . ستكونين زوجتي أمام العالم أجمع ...

حنة .. كلمة رجاء من فمك الجميل ...

لا تقولي هذه الكلمة ، وانظري إلي نظرة واحدة تحملني على هذا الرجاء . فاذا رضيت بان تفتحي لنفسي ابواب هذا النعيم ابتعدت عنك سعيداً مطمئناً فلا أعود إلى حين تأمرينني أن أعود ، وعند ذلك أكون بين يديك أشد وفاء من الكلب في حراسة المنزل وأشد قوة من الأسد في الدفاع عن العرين .

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

وكان يكلمها وهي لا تزال بين يديه وقد بذلت كل قواها كي تتخلص من ذراعيه ، حتى إذا أفلتت منه ابتعدت عنه ونظرت اليه نظرة هائلة كادت تصعقه وقالت له بملء العظمة والكبرياء إرفع قبعتك أيها الرجل فإذا كنت لا تحترم النساء فاحترم الأموات .

وارتعش هنري ونظر إلى قبعته يحاول انتزاعها إحتراماً للميت ، ولكن يده لم تكد تصل إلى القبعة حتى سقطت إلى موضعها ، وتغلبت عليه الكبرياء واتقدت عيناه ببارق من نار فقال : ألا تعلمين يا سيدتي اني هنا في منزلي ، وان من كان في منزله لا يتقيد بهذه القيود .

ولم تفهم حنة مراده وقالت له : أنت هنا في منزلك ؟

- نعم اني في منزلي ، فقد صدر أمر البرلمان برد منزلكم وأراضيكم الينـا ، ولا أحتمل أن أرى المقيمين في منزلي .

ولم تدعه حنة يتمم حديثه إذ أسرعت إلى صندوق صغير كان أبوهـــا يضع فيه أوراقه ففتحته وأخرجت منـــه نسخة ذلك الأمر الصادر من البرلمان فقرأته مسرعة ، ثم القته إلى الأرض ونادت الخدم بصوت مرتفع قـائلة : يا جاك ، ويا غيليوم ، ويا رودريك ، ويا بيير ادخلوا ... أدخلوا جميعكم .

وحاول هنري أن يتكلم ولكنها لم تصغي لحديثه ، وسمع الخدم صوتهـا وأقبلوا مع بعض الفلاحين .

فقالت لهم : ادخلوا جميعكم واعلموا هذا النبأ الجديد وهو اني لست هنا في منزلي ..

فقال لها هنري بلهجة المؤنب : سيدتي ..

ودنت حنة من جثة أبيها وأمسكت يده الباردة وهزتها قائلة :

- اليس كذلك يا أبي . . ألم يطردونا من منزلنا ويحتلوا أرضنا .. قل يا أبي ، أيمكن البقاء ساعة بعد ، في هـــذا المنزل الذي نحتقر

ونهان فيه ...

وأنتم ألا ترون ان هذا المنزل لم يعد لنا، بل لتلك الأسرة الظالمة .

ألا ترون كيف يطردون منه جثة أبي ...

اخرجوها من هذا المنزل ...

أسرعوا فلا أريد أن تبقى دقيقة فيه لأنها لم تهن في الحياة فلا تهان في الموت ..

ثم اندفعت تحث الخدم والفلاحين على إخراج الجثة وقد ابيضت شفتاها واحمرت عيناها وتهدج صوتها ومنع اليأس سقوط دمعها ، فحمل الخدم سرير الفقيد على أكتافهم ومشوا وفي طليعتهم حنة .

أما هنري فانه وقف وقفة المبهوت ، وقد رأى الخدم يحملون جثة الشيخ ، ورآهم خرجوا بها من القاعة تتقدمهم ابنته ، ولبث حائراً مبهوتاً إلى أن توغل الموكب في القرية ، فضرب الأرض برجله وخرج حانقاً مغضباً وامتطى جواده وأطلق له العنان ، فمرق به مروق السهم وهو لا يعلم إلى أن يسير .

أما حنة فإنها لبثت تعارك اليأس حتى وصلت بجثة أبيها إلى منزل مرضعتها ، وهناك خارت قواها وتغلب سلطان اليأس وسقطت مغمياً عليها دون أن تذرف دمعة .

وتلا هذا الاغماء حمى شديدة أضاعت رشدها ولم يبق عليها من دلائل الحياة غير ما كان يعتريها من الهذيان .

***

أما هنري فقد كانت ليلته هائلة ، وكان يذكر ما فعله فيندم ويخجل ثم يذكر احتقارها إياه وغرامه بها يهيج ثائره وينسى ذلك الندم .

ولما أشرق الصباح عاد إلى منزل حنة وهو عاقد نيته الفاسدة على إحداث كل مكروه والاقدام على كل منكر حتى على القتل .

ولما وصل إلى المنزل علم ان حنة مشرفة على الموت ، وكان لهذا الخبر وقع اليم من نفسه السافلة وجعل يرود كل يوم حول منزل المرضعة المقيمة فيه حنة مستطلعاً أخبارها .

مضى على ذلك عدة شهور لم يكن غرامه إلا ليزيد اتقاداً .

وقد اتصل به يوماً ان مدينة تيرنوان المحصورة قد سقطت في يد شارلكان وأن الحامية قد أبيدت ، وإن أخاه فرنسوا قد اختفى .

فقال في نفسه : انه اختفى وربما بات قتيلاً .

وتولد الرجاء في نفسه لاسيما بعد أن مر بوادي موغورانسي بعض الذين تمكنوا من الفرار من المدينة المحصورة فأخبروه بتفاصيل الحصار وتلك المذبحة الهائلة التي حدثت فيها ، وكيف أباد السيف والنار الحامية وكيف ان فرنسوا موغورانسي قائد الحامية قد اختفى ولم يعلم بمصيره أحد ، ولكن الرأي العام كان مجمعاً على أنه مات .

وقد حدثه أحدهم أنه رأى أخاه مرة وراء متراس ضعيف يهاجمه ثلاثة آلاف من جنود شارلكان ، ثم لم يعد يراه بعد ، فأيقن هنري إن أخاه بات قتيلاً ، وجعل يرود حول المنزل المقيمة فيه حنة وهو آمن مطمئن ينتظر شفاء تلك المنكودة .

إلى أن اتفق يوماً أنه رآها من نافذة ذلك المنزل ، وذلك بعد أحد عشر شهراً من سفر أخيه ، فاضطرب قلبه لمرآها مما استدل به انه لا يزال والعاً بها أشد الولوع .

وقد رآها بملابس الحداد ، ولم يعلم إن كان حدادها على زوجها أو على أبيها ، ولكنه رأى بين يديها طفلاً تقبله وتضمه إلى صدرها بحنو الأمهات ، فعاد يمشي الهوينا وهو يعد في قريحته الجهنمية خطة هائلة ، وهي ان حنة

شفيت من علتها ، وصار يسهل عليه ان يختطفها ويجيء بها الى الحصن كما يفعل الأقدمون .

وقد رسخ هذا الخاطر في ذهنه فاطمأن له وعاد إلى الحصن وهو يفكر بطريقة الأختطاف .

ولما وصل الى الحصن رأى فارساً معفراً بالغبار ترجل عن جواده ودخل إلى الحصن فارتعش لرؤياه ولم يعلم السبب في هذا الارتعاش ، ولكنه رأى علائم البشر على وجه هذا الفارس ، فأيقن انه قادم ببشارة سارة ولم يجسر على سؤاله .

ولكن هذا الفارس لم يلبث أن رآه حتى أسرع اليه فانحنى أمامه بملء الاحترام وقال له : أبشركم يا مولاي ، إن مولاي فرنسوا دي مونمورانسي قد نجا من الأسر وسيصل بعد غد إلى حصن آبائه وقد أرسلني كي أبشر بذلك أخاه العزيز ومن يحبهم .

فأطلق هنري سراح الفارس باشارة كي يخلو له الجو بالاسترسال إلى غضبه ثم تصاعد الدم إلى عينيه وهدد السماء بقبضتيه وسقط على الأرض كما يسقط الثور في المجزر .

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

- ٥ -

لويزا

أقامت حنة في غرفة مرضعتها أربعة أشهر، وهي تعارك الموت ويعاركها وقد تمكنت منها الحمى وأجمعت الآراء على أن هذه الحمى ستذهب بحياتها أو بعقلها .

ولكنها لم تمت ولم تفقد الصواب، بل تغلب شبابها على الداء فزال عنها الخطر في الشهر الرابع وانقطعت الحمى كل الانقطاع

غير أن المرض أنهك قواها فهزلت ولم تستطع لضعفها مبارحة الفراش، وكانت إذا خلت إلى نفسها تتكلم بصوت الهامس، وتلفظ ألفاظاً بلغت منتهى الرقة والحنان، ولا يعلم سامعها إلى من توجه هذا الحديث ولكنها تعلم من المعنى به

ودامت على ذلك شهرين أيضاً إلى أن دخلت أشعة الشمس في صباح يوم من أيام الخريف إلى غرفتها، وكانت تلك الأشعة جميلة لطيفة كأنها تودع الصيف، فشعرت حنة بقوة وانتعاش وطلبت أن تغادر الفراش .

والبستها المرضع ثيابها وهي تبكي لفرحها بشفائها .

وقامت حنة تحاول الخروج من الغرفة فما مشت فيها خطوتين حتى وضعت يدها على أحشائها وصاحت صيحة ألم شديدة، ذلك ان ساعة ولادتها قد دنت فأعادتها المرضع إلى السرير .

وكانت ساعة هائلة كادت روح حنة تخرج من صدرها حتى انتهى الأمر ولما فتحت عينيها قالت لها المرضع وهي تضحك وتبكي في حين واحد .. انها فتاة .

– بل هي لويزا ، فإني أدعوها منذ الآن باسم أمي .

ثم أخذت ابنتها بين ذراعيها ونظرت اليها نظرة تشف عن السرور والحزن معاً فقبلت رأسها وقالت : أحق يا ابنتي انك ستكونين من غير اب ؟

* * *

وجعلت لويزا تنمو نمو الزهرة حتى اذا تبينت تقاطيع وجهها أيقنت أمها انها ستكون مفرغة في قالب الجمال وآية من آيات الحسن . ولم تعد حنة تعيش لنفسها ، بل من أجل طفلتها فإنها كانت ترى كل نظرة من نظراتها سحراً ، ولم تكن تحب ابنتها بل كانت تعبدها ، فكانت هي تمثل حقيقة الأمومة ، كما كانت بنتها تمثل حقيقة الجمال .

ولكنها في المساء حين كانت بنتها تنام في حضنها ويدها الصغيرة في شعرها كانت حنة تنقطع عن التفكير بها وتنصرف بأفكارها إلى ذلك الزوج ، بل الى ذلك الأب الذي وهبته حياتها بجملتها قبل ان تهبها لتلك المولودة الجديدة ثمرة ذلك الغرام القديم

وكانت تناجي نفسها به فتقول : أحق انه هجرني محتجاً بالحرب كي ينجو من العار ؟ أحق انه هجرني إلى الأبد فلا أراه بعد اليوم ؟ وما بال أخباره قد انقطعت عن الناس ، العلامات ؟

وكانت تسترسل إلى هذه الأفكار فيتقطع قلبها قنوطاً وتسيل الدموع من عينيها فتسقط أحياناً على وجه ابنتها فتوقظها .

وعند ذلك تعود حنة اماً فتنقطع عن البكاء والتأوه إلى تنويم تلك الطفلة

فتنسى بها الوجود ومن فيه .

ومضى الشتاء وحنة ملازمة البيت لا تخرج منه إلا في القليل النادر ومتى خرجت لا تتجاوز الغرفة حذراً من أن تلتقي بهنري دي موغرانسي ، لأنها كانت اذا افتكرت به اقشعر جسمها واضطربت كأوراق الخريف .

وجاء الربيع وبلغت ابنتها الشهر السادس من عمرها وكان كل شيء في الوجود يبسم لجمال الربيع ما عدا قلب هذه الأم الطريدة المنكودة .

ففي يوم من أيام مارس ذهبت المرضع مع زوجها للاحتطاب من الغابة وبقيت حنة في المنزل تنظر الى ابنتها بملء الحنو وقد نومتها في سريرها .

وكانت الغرفة المقيمة فيها تشرف على الحديقة من نافذة كانت مفتوحة في تلك الساعة .

وفيما هي تتمعن بجمال ابنتها سمعت قرع الباب ، فخرجت من غرفتها وذهبت لترى من الطارق فوجدته شيخاً يتسول فدخلت إلى المطبخ وجاءته بقطعة من الخبز ، ودفعتها اليه معتذرة وتلقاها الفقير بالشكر والدعاء وانصرف .

وأقفلت حنة الباب وعادت الى غرفتها ، وكان أول ما وقع نظرها على السرير النائمة فيه ابنتها .

ولكنها لم تلبث ان نظرت إلى ذلك السرير حتى صاحت صيحة هائلة .. صيحة لبوة فقدت أشبالها .. صيحة لا تصل الى وصفها الأقلام ، ذلك لأن هذه الأم المنكودة الشقية لم تجد طفلتها في السرير .

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

- ٦ -

عودة الاسير

لقد تقدم لنا وصف حنو حنة على ابنتها، وكيف كانت تعبدهـا، فلم تكن تبحث عنها بعد فقدها بحزن وقنوط، بل بحث من فقد روحه ولا حياة له بغير الروح.

ولبثت على ذلك أربع ساعات تبحث ولا تجـد، وتلتمس الموت فيوقف يدها الرجاء بايجاد تلك الضالة، فتقطع شعرها وتمزق جلدها باظافرها وتطوف من غرفة الى غرفة طواف المجانين.

وفيما هي على ذلك وقد كاد يفتك بها اليأس سمعت حساً في الغرفـة التي كانت نائمة فيها ابنتها فأسرعت الى تلك الغرفة وثباً فوجدت فيها هنري دي مونمرانسي، شقيق زوجها وقد دخل اليها من النافذة.

فنظرت اليه نظرة هائلة وقد جمد الدم في عروقها وقالت له: أهذا أنت! أنت الذي لا اراه الا في أشقى ساعات حياتي.

فـأسرع هنري اليها وقبض على يديهـا وقال لها بصوت منخفض: إنك تبحثين عن ابنتك منذ ساعات فلا تجدينها، ولن تجديها الا اذا أردت، فأنا الذي اختطفتها والويل لك ان لم تصغي اليّ.

فزأرت حنة زئير الأسود وقالت له: أيها الشقي تختطف إبنتي ثم تجسر على المثول أمامي. سوف تعلم أيها السافل ما تفعله الأمهات.

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

ثم تحركت حركة عنيفة تريد الافلات منه ، ولكنها لم تستطع فشد هنري على يديها وقال لها : اسكتي وأصغي إلى ما أقوله لك ان أردت أن ترى بنتك .

فلم تسمع الأم من أقواله غير كلمته الأخيرة ، ورأت أنها لا تستطيع الأفلات منه ، فجعلت تتوسل اليه وتقول : رحماك رد إلي بنتي إني أقبل موطيء قدميك إذا فعلت ... إني أكون عبدة لك ما حييت ... رد إلي ابنتي يا سيدي يبارككك الله .

– أصغي إلي : ان ابنتك في قبضة رجل من رجالي قد قلبه من حجر أصم ، وقد اتفقت واياه بشأنها .
أصغي إلي و تتحركي ...

إني اتفقت مع هذا الرجل الهائل أن أقف عند هذه النافذة وأرفع قبعتي بحيث يراها ، ومتى رآها أخذ خنجره وأغمده في صدر ابنتك .
ثم تركها ودنا من النافذة .
فقال لها دافعي إذا شئت بعد الآن .

فسقطت تلك الأم المنكودة على ركبتيها وحاولت الاستغاثة فلم تستطع ، ولكنها رفعت يديها إشارة إلى الخضوع والامتثال .
فانهضها هنري وقال لها : لقد عرفت الآن موقف ابنتك فهل عزمت على الخضوع .
فأومأت برأسها اشارة الى القبول فقال لها: اصغي إلي الآن . ان فرنسوا.. أخي فرنسوا ، في قيد الحياة ، وقد عاد الى الحصن ، اتسمعين ؟

إني سأحدثه أمامك أحاديث كاذبة عنك ، فإذا لم تكذبي ما أقول والزمي الصمت ترد اليك ابنتك في هذا المساء ، وإذا فهت بكلمة واحدة تناقض قولي أشرت بقبعتي إلى الرجل فأغمد خنجره في قلب بنتك ... انظري هوذا فرنسوا قادم .

فنظرت حنة فرأت فارساً ينهب الأرض بجواده ، فتثبتت انـه زوجها وصاحت بملء صوتها تقول إلي ، إلي يا فرنسوا !

فلما سمعها هنري تستغيث ذهب بسكينة وحشيه ونظر الى حنة نظرة هائلة تبينت منها صدق عزيمته وقال لها : أنت أردت قتل ابنتك ، فلتمت !

ثم مد يده الى قبعته يحاول الإشارة بها حسب اتفاقه مع ذلك الرجل .

فتمثل الخطر لحنة فركعت أمامه وقالت له رحماك لا تفعل ... سامتثل ولا أبوح لزوجي بشيء ولا أكذبك بحرف .

وعند ذلك فتح فرنسوا الباب ودخل وهو سكران من الفرح والحب .

* * *

عاد فرنسوا دي مونمورانسي بعد أن لقي الاهوال في حصار تلك المدينة ، وبعد ان حسب أبوه وأخوه وقومه انه من أهل القبور .

ولقد كان سافر بالفي فارس كما تقدم فبلغ تيرنوان بسبعماية منهم ، وقتل الباقون في الطريق

فدخل بهم المدينة عند المساء قبل أن يحاصرها الأعداء .

وفي الليلة نفسها هاجمها جيش من الالمانيين والاسبانيين والغموا أسوارها باللغوم .

وفي الصباح أعادوا الكرة بجيش آخر ، فكان الجنود وأهـالي المدينة يتلهبون تحمساً بما كانوا يرونه من بسالة قائدهم الأكبر ، فان فرنسوا كان يهجم بفرسانه على الأعداء هجوم المستميت ، فتمكنوا من صد خمسة عشر هجوماً على قلة عددهم وكثرة جيوش المحاصرين ومعداتهم .

ودام الحصار ثلاثة أشهر دون أن يتمكن جيش شارلكان من افتتاح المدينة عنوة ، فبدأت عند ذلك المخابرات وأقبل وفد من الجيش المحاصر ليعرض على المحصورين شروطاً شريفة للتسليم .

فاستقبلهم فرنسوا على الأسوار يحيط به أركان حربه وهم ممزقوا الملابس مشوهوا الوجوه بالبارود .

وبينما كان الوفد يعرض اقتراحات الامبراطور وفرنسوا يتأهب للجواب ، سمعت صيحات هائلة وأصوات الفرنساويين يقولون إلى السلاح ، فتجيبهم أصوات الاسبانيين إلى الموت إلى الموت !

ذلك ان جيشاً من الاسبانيين فتح الأسوار منفذاً وهجم منه على المحصورين خلال المخابرة دون أن يتلقى أوامر رؤسائه كما يقول المؤرخون .

وبعد دخول هـذا الجيش شبت النار في المدينة ، فحدث مزيج هائل بين اندلاع لسان النار وتفجر اللغوم ودوي رصاص البنادق .

فلما أمسى المساء لم يبق من أولئك المحصورين الأبطال غير ثلاثين بطلاً يدفعون عن نفوسهم دفاع القانطين ، وفي طليعتهم رجل كان يقاتل بسيفين ، فما زال يقاتل ويقتل حتى أصيب بضربة على رأسه ، فسقط على الأرض وكان بسقوطه ختام الدفاع .

ان هذا الرجل كان فرنسوا دي مونمورانسي ، وقد دافع عن المدينة حتى الموت كما وعد أباه .

وفي الليل وجدته الجنود الطوافة في المكان الذي سقط فيه ، فعرفوه ورأوا أنـه لا يزال في قيد الحياة ، فحملوه إلى القائـد العام فأمر بمعالجته مع الأسرى الجاريح .

ودامت الحرب بعد سقوط تيرنوان فكانت سجالا بين الفريقين إلى أن عقد الصلح بينهما فاطلق سراح جميع الأسرى .

أما فرنسوا فانه لم يمت كما أشيع بل شفي من جراحه ولبث في معسكر الأعداء إلى أن عقد الصلح وبشروه باطلاق سراحه ، فعـاد إلى حصن أبيه مع خمسة عشر من رجاله ، وأرسل واحـداً منهم يتقدمه ويبشر

قومه بعودته ، ثم واصل السير وهو يود لو كان له أجنحة فيطير بها إلى من يحب ، فلما ظهر له حصن أبيه الشامخ خفق قلبه وأدمعت عيناه وأطلق لجواده العنان .

* * *

كانت أجراس الكنائس في مونمورانسي تدق مستبشرة بعودة بكر أمير الجيوش ومدافع الحصن تدوي فيرتج بدويها الفضاء وأهالي المدينة مجتمعون في المكان الذي سيمر به فرنسوا وهم يهتفون له بالدعاء وجنود الحامية وقوف على أبواب الحصن بالسلاح لاستقبال ابن أميرهم ، وحاكم المدينة يتقدم الجموع ليتلو خطاب الاستقبال .

فلما وصل فرنسوا كان أول ما سأله « أين أخي » ؟

فبدأ الحاكم خطابه قائلاً « أن هذا اليوم السعيد من .. »

فقاطعه فرنسوا قائلاً : سأسمع خطابك في الحصن ، فقل لي الآن أين أخي وكيف لم يحضر لاستقبالي ؟

— أنه في مارجنسي يا مولاي .

فلكز فرنسوا بطن جواده وقد أضطرب لوجود أخيه عند زوجته ولعدم حضوره لاستقباله .

وما زال يسابق الرياح بجواده حتى وصل الى منزل والد حنة فترجل عن الجواد ودخل الى فناء المنزل فوجده مقفلاً .

وكان هناك خادم شيخ فناداه ، وقبل أن يسأله مد الشيخ يده الى منزل مرضعة حنة وقال له :

— أنك تجد هناك التي تبحث عنها يا مولاي .

— لماذا تدعوني مولاك ؟

أجاب اليس هذا المنزل لكم الآن ؟

فلم يسأله فرنسوا أكثر من ذلك واسرع مهرولاً إلى منزل المرضعة وهو يتوقع مصيبة هائلة ، إذ كان أول ما خطر له أن حنة ماتت .

فلما وصل الى ذلك المنزل فتح بابه بعنف فلقى حنة فيه وصاح صيحة فرح وقد بسط ذراعيه لمعانقتها .

ولكن يده لم تلبث أن استرخت ولم يلبث هذا الفرح أن استحال الى ذعر فاضطرب قلبه إذ رأى حنة واقفة وقوف الاصنام ، وقد اصفر وجهها وبدت عليها علائم الرعب ، فقال في نفسه : العل ذلك من تأثير تقريع الضمير .

ومشى ثلاث خطوات الى امرأته وناداها باسمها .

فأجابته تلك المنكودة بتنهد عميق وحاولت أن تهجم على زوجها فتعانقه ولكنها نظرت الى هنري فرأت قبعته بيده كأنه يتأهب للاشارة بها من النافذة ، فجمدت في مكانها وتنهدت تنهداً كاد ينشق به صدرها .

فصاح بها فرنسوا صيحة هائلة بلهجة القانط قائلاً .. حنة ...

ثم نظر الى هنري وقال له : أخي .

فجعل الأخ والزوجة ينظران اليه دون أن يتكلما نظرات كاد يجن لها ، فوضع يديه عند ذلك ببطء فوق صدره ، ثم تنهد تنهداً خرج من صدره كالزفير وقال بلهجة الكئيب المبتئس ما يأتي .

— أن قلبي لم ينبض منذ عام إلا بهوى المرأة التي ملكتها قلبي والزوجة التي تدعى باسمي ، فما كنت انظر في ساعات اليأس غير وجهها المعبود ولا يتجه فكري في المعارك إلا اليها ، ولما سقطت في معمعة القتال ذكرت اسمها وكنت اعتقد أنه آخر كلمة تخرج من فمي .

فلما صحوت من اغمائي ووجدت نفسي أسيراً محروماً كان خيالها عزائي الوحيد ، وكنت إذا قلقت عليها لاني غادرتها وحدها أذكر أن أخي المخلص الحبيب أقسم لي على العناية بها فاطمئن ويهدأ خاطري المضطرب . والآن

عدت وقلبي يخفق خفوق أجنحة الطائر من الشوق اليها وأنا أحسب أن الدهر قد بسم لي والسعادة باتت طوع يدي ، فماذا لقيت ؟ لقيت تلك الزوجة تتبرم مني ، ولقيت ذلك الأخ لا يجسر أن ينظر إلي . .

ولا يعلم غير الله مـا كانت تـكابده تلك المنكودة في هذه الساعة الهائلة الرهيبة فأن شقاءها لا يصفه قلم بليغ ولا يدرك حقيقته فكر انسان فقـد كانت تحب زوجها حب عبادة ، فبينما تدفعها شعائر قلبها الى معانقته تنظر الى قبضة ذلك الرجل الجهنمي في يده فترتد لاشفاقها على بنتها من القتل الذريع . .

وقد كانت تسمع كلام زوجها المؤثر ، ولكن فكرها لم يكن منصرفاً إلا لمـا قاله لها هنري « وهو اذك إذا فهت بكلمة أو كذبتني بلفظ قتلت ابنتك دون اشفاق » .

ابنتها ، وهي تلك الطفلة الطاهرة البريئة ثمرة أحشائها وغاية أمانيهـا في هذا الوجود . أنها في قبضة وحش مفترس ينتظر إشارة وحش مفترس مثله ليغمد خنجره الهائل في قلبها الصغير .

في قلب تلك الطفلة التي لم تجر عليها غير الثغور بقبلات الحنو فكيف تطيق تضحيتها وهي أمها .

أيتها الأم الشقية انك عظيمة في شقائك عظيمة في صبرك عظيمة في كتمانك .

وعضت حنة شفتها حتى أدمتها ، وذلك كي تتمكن من ضبط نفسها ولم يتم فرنسوا حديثه حتى نظر اليـه أخوه نظرة الذئب ولبث واقفاً بجانب النافذة المفتوحة وقبضته بيده كي يشير بها عند الاقتضاء وقال له أيها الأخ المنكود أن الحقيقة محزنة ولكن لا بد لك من الوقوف عليها .

– قل ، أني أريد أن أعرف كل شيء .

– إذاً فاعلم أن هذه المرأة . . .

– كيف تقول هذه المرأة وهي امرأتي .

– هو ذاك ولكني أنا أخوك قد طردتها .

فاستند فرنسوا الى الجدار حذر السقوط ، وأنت حنة أنينـاً لا يصفه قلم إنسان لأن نكبتها لم يرد لها نظير في تاريخ الانسان .

واستأنف هنري الحديث دون ان يتزحزح عن النافذة فقال : أيها الأخ المظلوم ان هذه المرأة لا تستحق ان تتشرف باسمك إنها خانتك فلم أجد بداً وأنا أخوك ووكيلك من طردها .

ولقد كانت الشكوى ظاهرة جلية ، وكان عقاب الزانية في ذلك العهد الجلد بالسياط في الساحات العمومية ، او الشنق دون محاكمة . فكان بوسع فرنسوا ان يعاقبها هذا العقاب ، وهو الحاكم المطلق في غياب أبيه فكان موقف الثلاثة مفجعاً بعد هذه الفضيحة. فإن هنري كان متأهباً لكل طارىء وهو واضع إحدى يديه على قبضة خنجره ويمسك قبعته بالأخرى كي يشير بها عند الاقتضاء .

وقد كان ينظر إلى فرنسوا وحنة نظرات تدل على السكينة ، ولكنه كان مصمماً على قتل الاثنين إذا كذبتـه حنة ، بينما عامله يقتل طفلتهـا بعد إشارته .

وأما حنة فإنها حـين سمعت هذه الشكية الهائلة ، هـاجت كبرياؤها ، وتغلبت فيها عواطف الشرف على عواطف الأمومــة . فمشت خطوة إلى فرنسوا وهمت ان تبوح لزوجها بكل ما حدث .

ولكن هذا العزم لم يكد يجول في خاطر تلك المنكودة حتى رأت هنري يبتسم ابتسام الساخر ورأت يده بدأت ترتفع بقبعتـــه . فتراجعت منذعرة الى موقفها ، وأطرقت برأسها الى الأرض ، وألجمت لسانها عن القول ، وهي لا تدري ماذا تصنع . فقد كان مثلها مثل الواقف في مكان ضيـق شاهق بين واديين عميقين ، إذا مشى خطوة الى الأمام أو خطوة الى الوراء سقط في الهوة الهائلة .

وأما فرنسوا فقد هزته النكبة ، كما تهز العاصفة الشجرة . ولم يخطر لقلبه النبيل في تلك الساعة الرهيبة ان يندفع مع تيار الغضب ، بل حاول ان يسكن هياج غضبه ، ويكون أكبر من المصيبة التي نكب بها .

فلما تمكن من ضبط نفسه وشعر انه بات قادراً على اتقاء بوادر غضبه وانه إذا حدث امرأته لا تدفعه الحدة الى خنقها مشى اليها وعيناه تتقدان بلهب من نار وقال لها : أحق ما يقول ؟

فنظرت حنة الى هنري نظرة منكرة ثم لزمت الصمت وهي ترجو ان يقتلها زوجها لتستريح .

وعاد فرنسوا إلى السؤال فقال : أحق ما يقول ؟

وهنا خارت قوى تلك الشقية ، لأنها بشر ، وما نكبت به كان فوق قوة البشر .

فسقطت ولكنها لم تسقط على ركبتيها مستغفرة نادمة كما كان يتوقع فرنسوا ، ولم تبسط حقيقة أمرها كما كان يخشاه هنري، بل سقطت على الأرض وقد صدعتها النكبة .

فكان آخر ما نظرته يد ذلك الشقي وقبعته ، وآخر ما قالته أو توهمت انها قالته : (لأمت ، ولتحيى ابنتنا) ، ولم يبق عليها من دلائل الحياة غير خفوق قلبها .

ونظر اليها فرنسوا لأول وهلة نظرة آدم الى الجنة حين طرد منها ، وكان يرجو ان يسقط صريعاً قرب تلك المرأة التي طالما أحبها . ولكن الحياة انتصرت فيه على الموت .

فخرج من ذلك المنزل دون ان يفوه بكلمة ، ومشى مشياً بطيئاً وهو لا يعلم أين يسير .

أما هنري فإنه تبعه على مسافة قصيرة دون ان يكترث لحنة ، فقد قال

في نفسه : إنها إذا عاشت فستكون لي ، وإذا ماتت أكون قد أرحت نفسي من عذاب الغيرة ، فلا أحيي الليالي ساهراً منكداً بينما هي مع أخي يجني من شفتيها ثمار الغرام .

وقد أدرك في تلك الساعة حقيقة بغضه لأخيه ومبلغ انتقامه منه ولكنه لم يكن قانعاً بما فعل بل كان يريد ان يكابد ذاك الأخ النبيل نفس ما كابد قلبه السافل من الآلام خلال غرامه الفاسد مدة عامين .

ولذلك كان يسير في أثر أخيه بملء الصبر والسكينة ، وهو يترقب الفرصة المناسبة .

أما فرنسوا فكان يسير وهو مطرق الرأس مضطرب الحواس ضيق الأنفاس فيمشي الى حيث تدفعه قدماه .

ودام ذلك عدة ساعات وانتبه فرنسوا من غفلته ورأى ان الشمس قد غربت وانه يسير في غابة من الكستناء فجلس عند جذع شجرة وحمل رأسه بين يديه وجعل يبكي بكاء اليماً .

وقد طال بكاؤه ، وكأنما الدموع قد ردت اليه هداه ، فأخذ يتمعن في ما صار اليه ويذكر ماضيه .

فذكر غرامه واجتماعه مع حنة في منزل مرضعتها ، وما جرى له مع أبيها وكيف عقد زواجه عند انتصاف الليل وسفره الى تيرنوان ، وأخيراً هذه النكبة الهائلة التي فاجأته حين رجوعه .

فهاج هياج العواصف ، وأومض البرق في عينيه ، فقال في نفسه : ترى من هو هذا السافل الذميم الذي سلبني شرفي ونعيمي ؟ . ويح لنفسي إني حاولت الرحيل بجرحي الدامي ، قبل ان أنتقم من هذا الرجل وأقتله بيدي .

وقد كان فرنسوا كريم القلب ، شديد الرفق ، ومع ذلك فقد تعزى بالقتل والانتقام

ونهض واقفاً وتنفس تنفس المنفرج وقال يجب ان أعرف هذا الرجل وأسل حياته كما سلبني امرأتي ونعيمي .

ولما وقف التفت فرأى أخاه هنري قريباً منه ، فلم ينـذهل لمرآه وكلمه بملء البساطة ، كأنه يتم حديثاً دائراً بينهما فقال له : أخبرني الآن بحقيقة ما جرى .

فأجابه هنري بلهجة المشفق : أية فائدة يا أخي من أن أقص عليك هذ التفاصيل المؤلمة ، فلا دواء يشفيك الآن .

– لقد أخطأت يا هنري لأن الدواء الشافي موجود .

– ما هو ؟

– هو قتل الرجل الذي خدعني .

فارتعش هنري واصفر وجهه قليلاً ، ولكن ذاك لم يدم غير لحظة فأبرقت بعده عيناه ببارق غريب وقال له أتريد ان تعلم ؟

– نعم أريد فلقد أقسمت لي ان تعتني بامرأتي ، وأن تكون وكيلي في قضاء حاجاتها .. فوجب عليك أن تخبرني بحقيقة الجناية ، وباسم الجـــاني ... نعم ، إن ذلك يجب عليك ، وإذا أبيت أمرتك أن تتكلم .

– أتأمرني بحق الأخوة أم بحق السيادة في غياب والدنا ؟

– بحق السيادة .

– إذاً ، أمتثل ... فاسمع ، إنك لم تكد تـبرح حصن مونمورانسي الى الحرب ، حتى أظهرت مدموازيل دي بيانس ، لذلك الرجل ، فرحها بغيابك .

– إبدأ باسم هذا الرجل لأني أريد معرفة اسمه قبل كل شيء .

– صبراً يا سيدي ، واعلم ان هذا الرجل كان يشاركك في نعيمك بل كانت تحبه حباً صادقاً ولا تحب منك غير الجاه واللقب ، والآن إعلم إذ لم يبق سبيل

إلى الكتمان ، ان هذا الرجل ظفر بحنة قبل ان تظفر بها أنت وكانت خليلته قبل ان تكون خليلتك

فأن فرنسوا أنيناً خرج من صدره كالزئير وكانت هيأته هائلة حتى ان هنري توقف عن إتمام الحديث

غير ان فرنسوا نظر اليه نظرة نارية وقال له : تكلم .

– إني أتم الحديث امتثالاً لأمرك ، فاعلم ان العلائق بقيت متصلة بين الرجل وحنة بعد سفرك ، بل زادت تمكناً ، لان حنة اغتنمت فرصة غياب الزوج وكانت مع عشيقها على أبدع ما يصفه الشعراء !.

– كفى كفى ايها الشقي انك تقتلني .

– إذاً أسكت ؟

– كلا ، تكلم تكلم .

– وان هذا الرجل كان يراقبك يا سيدي فلما علم بوصولك عمل ما تعمله أنت لو كنت في مكانه ، فإنه أروى غليله من هذه العشيقة وأشفق على بيتكم ان يطول تلوثه بمثل هذا العار فطرد منه الزانية .

فشعر فرنسوا أنه أصيب بدوار ورأى ان الهاوية أعمق مما تصورها فنظر الى أخيه نظرة المجانين .

أما هنري فقد تمثل قلبه الحـــاقد بين عينيه ، فقال لأخيه بلهجة المتهكم المنتقم :

– إنك تريد ايها الأخ العزيز ان تعرف اسم هذا الرجل ، إذاً فاعلم ان عشيق حنـة دي بيانس ، قبل ان تكون زوجتك ، يدعى هـنري دي مونمورانسي .

- ٧ -

بارداليان الاكبر

(هو أحد بطلي هذه الرواية ، وإنما دعوناه بارداليان الاكبر للتفريق بينه وبين ابنه المدعو بهذا الاسم أيضاً ، فسيكون لهما في وقائع هذه الرواية ما يدهش المطالعين) .

لم يكن هنري كاذباً حين أنذر حنة بقتل ابنتها ، فقد كانت الطفلة حقيقة بين يدي رجل يراقب إشارته ، وقد رضي ان يغمد خنجره في صدر الطفلة حين يرى الاشارة .

وقد كان هذا الرجل الذي رضي بقضاء تلك المهمة الفظيعة يدعى بارداليان او الشفالييه دي بارداليان .

وخلاصة تاريخ هذا الرجل انه كان من سلالة أسرة عريقة النسب ، بدأ مجدها منذ القرن الثالث عشر ، وانقسمت من ذاك العهد الى فرعين فرع مشى في طريق الفخر ، فزين بعض رجـــاله صفحات التاريخ ، فخرج منهم مونتسبان الشهير ، والدوق دي أنتـين ، الذي سمي باسمه أحد شوارع باريس .

وفرع لبث تاريخه مبهماً وبقي رجاله فقراء معدمين .

وقد كان الشفالييه دي بارداليان من هذا الفرع الأخير . فكان حين البدء في هذه الرواية في الخمسين من عمره ، شاب مفرقه في الحروب ، وهو

من اولئك الجنود الافاقين ينخرط في كل معركة ويسعى الى الحرب من كل باب فينهكه الحر والعطش في الصيف ويكابد مشاق البرد والجوع في الشتاء ، وهو تارة ينتصر وتارة ينخذل .

وقد ظهرت آثار الجراح في جميع جسمه ، ولوحت الشمس وجهه ، فهو طيب القلب بالفطرة ، ميال الى الخصام بالعادة ، يرى كل ما يفعله واجباً فلا يقرعه الضمير .

وعلى الجملة فما هو من أهل الشر وما هو من أهل السلامة ، وكان أخص ما فيه انه إذا تنازع اثنان على استخدام حسامه انتمى الى أكثرهما جوداً ، وهو في كل أدوار حياته من أفقر الفقراء .

وقد كان لقيه مونمورانسي أمير الجيوش ، خلال حروبه في أرمنياك ، فأعجب بجرأته وبسالته فجاء الى حصنه وعينه لخدمة ولده هنري ، حسب عادة الاسياد في ذاك العصر ، لان كل نبيل كان يعين لكل فتى من بنيه كهلاً من كبار المحاربين .

فلما سافر أمير الجيوش الى الحرب وسافر ولده فرنسوا الى تيرنوان بقي بارداليان في الحصن مع هنري .

وخطر لهنري خلال تغيب أخيه انه قد يحتاج الى رجل شديد الاخلاص فلم يلق أمامه غير بارداليان . فجعل يمتلك نفسه بالعطايا ، ويقيده بالاحسان ويجامله خير مجاملة ، حتى امتلك رقبته ، وبات بارداليان متأهباً كل حين لافتداء هنري بنفسه .

فلما ذاع في الحصن خبر عزم عودة فرنسوا ، في اليوم التالي ، بعد ان يئس الجميع من رجوعه ، أخذ هنري بارداليان ، وهو مقطب الجبين ، وسار به الى منزل المرضعة الذي تقيم به ، وأمره ان يختطف لويزا بنت حنة .

وبعد ساعة رجع بارداليان الى حيث كان ينتظره مولاه ، وهو يحمل

بين يديه تلك الطفلة

فأمره عند ذلك هنري بما عرفه القراء ، وأعطاه خاتماً ثميناً من الماس .

فأخذ باردليان الهدية مكرهاً، وتلقى تلك الاوامر مستفكراً ووقف في مكان يشرف على نافذة الغرفة المقيمة فيها حنة ، بحيث يستطيع أن يرى إشارة هنري الهائلة .

أما هنري فانه اجتمع بحنة ، وقد عرف القراء ما حدث في ذلك الاجتماع .

وأما باردليان ، فقد رأى فرنسوا دخل الى المنزل ، فوقف ينظر إلى النافذة ، وقد اصفر وجهه ، والطفلة نائمة بين يديه . فلم يجسر ان ينظر اليها .

فلما رأى فرنسوا خرج من المنزل ، وتبعه اخوه هنري دون ان يشير تلك الاشارة الهائلة ، تنفس الصعداء ، واشرق وجهه بعد العبوس وقال : لقد احسن هذا الوحش بعدم إبداء الاشارة ، لاني كنت عازماً على عصيانه والعودة الى معيشتي السابقة . فمن يجسر على الفتك بهذه الطفلة النائمة ؟ إن الوحوش الضارية تشفق عليها .وفي كل حال احمد الله على ما اتفق فقد اصبحت كهلاً وتعبت من مشاق الحياة . اما ان احتفظ بهذه الطفلة شهراً او شهرين كما امرني فلا اجد في ذلك بأساً .

ثم وضع لويزا في ردائه وسار بها مطرق الرأس الى منزله الكائن عند باب الحصن ، فأسرع لاستقباله غلام يبلغ الخامسة من عمره ، كان يلعب في فناء المنزل .

فابتسم باردليان وقال له : لقد جئتك يا جان بطفلة صغيرة ، ستكون اختاً لك .

ثم نادى خادمته ودفع اليها بلويزا وقال لها : إني اعهد اليك بهذه الطفلة ، على ان تعتني بها كل الاعتناء وحذار ان تبوحي بامرها لاحد .

اما هذا الغلام الذي ناداه باردليان باسم جان فقد كان في الخامسة من عمره كما قدمنا وتدل عيناه على ذكاء متوقد ، وهو متين العضلات كالذئاب خفيف الحركات كالقطط .

كان هذا الغلام ابن باردليان اقامه مع مرضعته في ذلك المنزل عند باب الحصن وكان يأتي كل يوم اليه ليراه .

وقد عرف كل سكان الحصن انه ابن باردليان ، ولكنهم لم يعلموا من اين اتى به ، لانه لم يكن له امرأة معروفة ، ولم يذكر هو كلمة عن مولد إبنه لاحد .

فلما دفع الطفلة الى الخادمة اخذ ولده واجلسه على ركبته وجعل يلاعبه وعيناه تضيئان بشعاع الحنو .

غير ان الغلام افلت من ابيه ، ووثب عن ركبته الى الارض ، واسرع الى لويزا ، التي كانت وضعتها الخادمة فوق سريره ، فضمها الى صدره ضماً عنيفاً وعانقها .

وما بكت الفتاة ، ولكنها فتحت عينيها الجميلتين وجعلت تنظر منذهلة الى الغلام .

اما باردليان فانه نهض فجأة وخرج من المنزل مطرق الرأس مفكراً مهموماً إذ كان يفتكر في تلك الساعة بوالدة الطفلة ويأسها لاختطاف ابنتها ويقيسها الى نفسه فيما لو خطفوا ولده فيشفق عليها ويتوجع لمصابها كما كانت تدل عبراته المتساقطة على خديه وهو يسير .

وبعد ساعة كان تحت نافذة غرفة حنة فرأى وسمع ما يلين له قلب الجماد من تلك المرأة ، التي استفاقت من إغمائها ، فعلمت انها فقدت حبيبها وولدها .

وجعلت تعض يديها من اليأس وتلعن تلك الساعة التي وافقت فيها على الصمت وكتمت امرها عن زوجها

ولكنها تفتكر بابنتها فيخفت صوتها وتقول: اني لو فهت بكلمة لقضي على ابنتي فأكون قتلتها بيدي ...

على ان هذا النمر الكاسر أقسم لي أن يرد لي ابنتي، إذا أطعته، ولم أكذبه فيما يقول، وهو سيردهـا لي، دون شك، أليس كذلك يا لويزا ؟

لويزا، اين أنت يا ملاكي الحارس ويا كل نعيمي في هذا الوجود ألا تعبث الليلة يداك الجميلتان بشعر أمك ...

فرنسوا، لا تصدق ما قال، إنه من الكاذبين ...

فرنسوا، إنه نذل سافل تجاسر ان يختطف ملاكنا الصغير ...

أيها الظـالم الدنيء، رد إلي ابنتي .. إلي إلي .. لويزا .. إبنتي ألا تسمعين نداء أمك ؟

وكانت تخلط في أقوالها بين محادثة زوجها وابنتها، بكلام يقطع القلوب من الاشفاق .

وأين للأقلام أن تمثل عواطف أم تبكي ولداً فقدته .

فلما سمع باردليان هذه الأقوال التي علم منها كيف يكون اليأس، ورأى وجه تلك الأم الشقية وقد أدمته أظافرها، ورأى نظراتها التي كانت تشبه نظرات حيوان يقتلونه، فهي تارة تلتهب بنار الوعيد فيرتمد لها البطل وتارة تذبل ذبولاً يبكي عيون الجلاد .

إنه لما سمع ورأى ما كان من هذه الأم شعر انه أب فاصطكت أسنانه من هول ما رآه وتراجع على مهل كي لا تشعر بوجوده ثم أسرع بالسير حتى توارى عنها فجعل يعدو عدو المجانين .

ولما وصل الى منزله، كان الليل قد أرخى سدوله، وكان وصوله في نفس الساعة التي كان فرنسوا وهنري يتباحثان فيها في الغابة، حيث تركناهما .

وكان ولده جان نائماً في سريره، وبجانبه لويزا، وقد ألقت رأسها الصغير على ذراعه بلء الثقة فدنا من السرير وأخذ منه الطفلة دون ان يوقظها ولفها بردائه .

ثم نادى الخادمة وقال لها: أوقظي ولدي، والبسيه ملابس السفر، لاننا مسافرون سفراً طويلاً بعد ساعة، وقولي لخادمي يعد لي جوادي، ويحضر الى هنا .

وعندما ذهب بالطفلة عائداً الى حيث تقيم أمها وترك الخادمة وهي في أشد حالات الانذهال لهذه الأوامر .

وأما حنة فقد كان اليأس أنهك قواها وهد حيلها، فانطرحت على كرسي وجلست مرضعتها أمامها تعزيها وتتوجع لنكبتها، ثم رأت ان التعب أضناها .

فقالت لها: كفى يا سيدتي بكاء وادخلي الى مضجعك .

فلم تجبها حنة على كلامها وقالت: لويزا .. لويزا .. إنها قادمة .

- إنها تأتي دون شك فادخلي يا سيدتي واستريحي بالرقاد .

- لويزا، يا ابنتي تعالي ونامي بين ذراعي .

وعندما وقفت حنة فجأة ودفعت المرضعة في صدرها ووثبت إلى الباب وهي تصيح: لويزا ... لويزا !

فصاحت المرضعة صياح اليأس وقالت: رباه لقد ذهب عقلها .

أما حنة فقد خرجت من الباب، تصيح وتنادي ابنتها، وكان الظلام حالكاً، فرأت عند خروجها شبحاً، وان هذا الشبح يحمل جسماً بين يديه، فهجمت عليه واختطفته ودخلت به إلى غرفتها ووضعته على كرسي وركعت أمامه .

كان هذا الشبح باردليان، والجسم الذي يحمله لويزا، وقد ركعت تلك الأم أمام طفلتها دون ان تذرف دمعة او تفوه بكلمة او تقبل تلك الطفلة التي

كادت تجن لاختطافها .

ثم خطر لها خاطر سريع فجعلت تنزع ثياب الطفلة بسرعة وتقول رباه أرجو ان لا تكون أصيبت بسوء .

ولما نزعت ثيابها جعلت تفحصها من مفرق رأسها إلى قدميها ، حتى إذا وثقت من سلامتها تفجر قلبها حنواً فلم تعد تعلم أين تقبلها .

كل ذلك والطفلة تبكي لحرارة التقبيل والأم تغسلها بدموع الفرح وباردليان واقف وقوف المأخوذ يريد ان ينصرف فلا يستطيع .

ولما روت حنة غلها من تقبيل ابنتها التفتت فرأت باردليان فزحفت على ركبتيها اليه وأخذت يده وقبلتها .

وجذب باردليان يده وقال : سيدتي ماذا تفعلين ؟

– إني أقبل تلك اليد التي ردت إلي ابنتي قل لي اسمك يا سيدي لأباركه إلى آخر أيامي .

– إني جنـدي قديم يا سيدتي ، جوالاً لا يقيم في بـلد ، وأية فائدة من معرفة اسمي .

– ولكن كيف عثرت بابنتي وكيف جئتني بها ؟

– الأمر بسيط يا سيدتي ، إني لقيت رجلاً أعرفه يحمل طفلة فسألته عنها وعلمت أمرها فجئتك بها .

– إذاً قل لي اسمك كي أذكرك ما حييت ولا أنسى إحسانك .

– أسألك العفو يا سيدتي لا فائدة من معرفة اسمي .

– إذا كان ذلك فقل لي اسم الآخر .

فاضطرب باردليان وقال : اسم الذي اختطف الطفلة ؟

– نعم ، فقد قلت انك تعرف هذا الرجل السفـاك ، الذي رضي أن يقتل ابنتي .

– أتريدين مني .. انا .. ان أقول لك اسم هذا السفاك ؟

– نعم نعم قل لي اسمه لألعنه الى الابد كما أباركك

فارتعد باردليان وتردد هنيهـة ، وهو يبحث عن اسم يختلقه ، ثم خطر له خاطر سريع ، وقرعه ضميره تقريعاً مؤلماً ، فاصفر وجهه وقال : أتريدين ؟

– نعم أريد معرفة اسم هذا السافل السفاك لألعنه إلى الأبد .

– إذاً ، إعلمي يا سيدتي ان هـذا السافل السفاك ، يدعى الشفاليه باردليان .

وقد ذكر اسمه بصوت مختنق وهرب مسرعاً كأنه لا يطيق ان يسمع سقوط اللعنة عليه من فم تلك الام .

- ٨ -

السفر الى باريس

ولنعد الآن الى الاخوين ، لقد تركناهما في غابة الكستناء وقد توارت الشمس في حجابها .

وكان آخر ما سمعناه من هنري قوله لاخيه ، وقد كاد ان يقتله صبراً :

« إن عشيق حنة دي بيانس ، قبل ان تكون زوجتك ، يدعى هنري دي مونمورانسي » .

وإنما قال هنري هذا القول ورضي ان يتهم نفسه بالجريمة كي لا يبقي مجالاً لنقض التهمة ومبالغة في إثبات الخيانة على حنة .

وصرح لاخيه باسم عشيق امرأته وهو يتوقع ان يرى اليأس ينفجر في صدر أخيه ، وينهال عليه بالشتم واللعن . ولكن فرنسوا لم يفعل شيئاً من ذلك بل انه وضع يده على كتف أخيه وقال له بصوت أبح : هنري إنك مائت فتأهب .

فوثب هنري لفوره وثبة الى الوراء وجرد حسامه وقال له . تريد ان تقول أيها الاخ العزيز ان واحداً منا سيقتل في هذه الغابة ؟

— كلا ، بل قلت انك ستموت .

وكانت لهجته خطيرة ، حتى خيل لهنري انه قاض يحكم عليه بالاعدام .

ورجع فرنسوا ايضاً خطوة الى الوراء رجوع الاسد حين يتحفز للهجوم ، وجرد حسامه وانقض به على أخيه .

والتحم السيفان واتقدت العيون بنظرات نارية كان يتأجج فيهـا الحقد ويتطاير شرر اليأس من تلك العيون فيزيدها اتقاداً .

وكان الليل قد هجم فلم يكن الخصم يرى خصمه بل يستهدي اليه من بريق حسامه وتوقد عينيه .

والغريب في هذه المبارزة الدموية انه بينما كان هنري يثب على أخيه الوثبة بعد الوثبة ، وهو شديد التيقظ والهياج ، لا يفتكر إلا بأن يجد منفذاً لحسامه إلى قلب أخيه . كان فرنسوا يتلقى ضربات أخيه وهو مشتت البال كأنه غائب في شكل حاضر فيدافع عن نفسه وقد تاه في مهامه التفكير ، فجعل يحدث نفسه ويقول :

— إذاً هو أخي الذي خانني بمن أحب واي شقاء اشد من هذا الشقاء . وإذا كنت لا أستطيع الركون الى اخي فإلى من بعده يصح الركون .

ولقد كنت أحسب ان خيـانة هذه المرأة بلغت بي الى أقصى حدود اليأس ، ولكن بقي علي لنكد طالعي ان اعرف اسم هذا العشيـق الذي

خانني من أجله كي أخفف اليأس بالانتقام .

فيا ليتني اصبت بالخرس ويا ليتني فقدت الحياة قبل ان أسأل معرفة هذا الاسم واقف على هذا السر الرهيب .

نعم إني سأقتل أخي ولكن اذا عشت بعده من يشفيني من يأسي وماذا يكون عزائي حين افتكر ان الذي خانني اخي .

وكان هنري قد وثب في خلال ذلك على أخيه مغتنماً فرصة ذهوله فجرحه في عنقه جرحاً خفيفاً أسال دمه .

فتنبه فرنسوا من غفلته ببطء ، وإنما نقول ببطء لان الثواني في تلك البرهة الهائلة كانت تعد كالساعات .

وقد نبهه الدم الى ما هو فيه فنسي ذلك الحديث الذي كان يناجي نفسه به ونسي ان خصمه أخوه فلم ير به إلا عشيق زوجتـه . فزأر زئير الاسود الضارية ومشى اليه فاصطدم السيفان ، فكانت ساعة هائلة لم يسمع فيها غير صوت قراع الحديد وتنفس المتبارزين .

وبعد هنيهة سمع صوت هنري وقد لفظ كلمة سباب ، ثم ساد السكوت فتلاه تنهد فصيحة فصوت سقوط جسم على الارض .

ذلك ان حسام فرنسوا كان قد أصاب صدر هنري من الجهة اليمنى فاخترقه من فوق الضلع الثالث .

فركع فرنسوا عند ذلك قرب اخيه الصريع وعلم انه لا يزال في قيـد الحياة فجرد خنجره ورفعه الى فوق رأسه قائلاً: مت ايها الخائن الشقي فمثلك لا يستحق ان يحيى .

ولكنه قبل ان يغمد خنجره في قلبه تألق بارق في السماء فأنار الكون ورأى فرنسوا وجه هنري المصفر وصاح قائلاً بلهجة الجنون : أخي ... أخي .

كأنه لم يعرف إلا من هذا البرق انه يحاول قتل اخيه

وعند ذلك ذعر وظهرت علائم الرعب على وجهه فألقى خنجره على مسافة بعيدة كأنه ناقم عليه ووقف وقد عادت اليه ذكرى جميع تلك الحوادث الهائلة فقال : ولكنه هو الذي خانني بعد ان ائتمنته ، وهو الذي اعترف بجريمته دون استحياء ، وهو الذي كان يريد قتلي والحقد ماثل بين عينيه ، فاذا قدر له ان يموت فقد نال جزاءه ، وإذا شفي من جراحه قتله الخجل .

وعند ذلك التفت فرأى رجلين من الحطابين في تلك الغابة سمعا صليل السيوف فأسرعا ليعلما الخبر وهما يحملان مشعلاً فدنا فرنسوا منهما واشار لهما إشارة محزنة الى جسم اخيه دون ان يفوه بكلمة .

ثم اطرق برأسه الى الارض ومشى مشياً بطيئاً دون ان يلتفت الى ذلك الرجل الذي كان اخاه .

وبعدها بساعتين وصل فرنسوا الى الحصن ولما رآه حارس باب ذلك الحصن صاح صيحة دهش ورعب ، لأن شعره الذي كان في الصباح افحم كالليل عممه الشيب فبات رأسه كرأس الشيوخ .

وقد استقبله احد الضباط فقال له . إننا اعددنا لك يا مولاي ، منزلك وجلبنا . . .

فقاطعه فرنسوا قائلاً بصوت اجش : ليحضروا لي جواداً .

- أليس في نية مولاي المبيت في الحصن ؟

فضرب الارض برجله واجاب : كلا فليحضروا لي جواداً .

فأسرع الضابط الى تلبية امره وبعد هنيهة جاء الخادم بالجواد فعاد الضابط الى محادثة فرنسوا .

فقال له : ان مولاي سيعود قريباً فيما أظن ؟

فوثب فرنسوا الى ظهر جواده ، وهو يقول : إنه لا يعود الى الابد .

ثم اكز بطن الجواد وتوارى عن الأنظار .

وفي ذلك الحين نفسه سمع صوت يقول فرنسوا .. فرنسوا ..

وكان النداء نداء يأس ظهرت بعده امرأة بين ذراعيها طفل وهي تعدو في أثر الجواد وتكرر النداء .

ولكن فرنسوا لم يسمع دون شك هذا النداء فلم يلتفت ، وركض جواده يسابق الرياح ، فكان وقع حوافره يسمع من بعيد ، وصوت المرأة يعيده الصدى حتى انقطع صوت المرأة ، وتوارى الفارس بجواده فلم يسمع لوقع الحوافر صوت .

فدنت المرأة عند ذلك من ثلة من الجنود كانوا واقفين عند باب الحصن يودعون أميرهم بالنظر وهم منذهلون لهذا السفر الغريب الذي يشبه الفرار .

فقالت لهم بصوت مختنق : إلى أين ذهب ؟

فأجابها واحد منهم قائلاً من يعلم يا سيدتي ؟

- متى يعود ؟

- لقد قال انه لا يعود إلى الأبد

- إلى أين تؤدي الطريق التي سلكها ؟

- إلى باريس .

فشكرت حنة الجندي وسارت وابنتها بين يديها في نفس الطريق الذي سار فيه زوجها .

* * *

بعد أن أرجع باردليان لويزا إلى أمها وبعد أن ذكر لها اسم الذي اختطفها وخرج خروج القانطين ، أخذت حنة بنتها وسارت في طريق حصن مونمورانسي وحدها ، فلم تأذن لمرضعتها أن تصحبها بالرغم عن الحاحها ، فان ابنتها ما زالت في يديها لا يستطيع أحد اختطافها منها ، وما زالت ابنتها

وحده قاضيه
منتدى ليلاس

معها فانها تستطيع أن تبوح لزوجها بكل مـــا جرى لها مع ذلك الخائن السافل ، وهي تستطيع الآن كشف النقاب عن أعماله دون أن تخشى على ابنتها الموت .

فكانت تسير في ظلام الليل وهي تناجي حبيبها فتقول : أيهـــا الزوج الحبيب اني وهبتك حياتي ، وأنت الآن ناقم علي تود لو خسفت بي الأرض وابتلعني جوفها .

ولكني لا أبالي بذلك فستعلم الحقيقة ونعود كما كنا ...

ولكني مشفقة عليك أكثر من اشفاقي على نفسي ، وأود تكريس حياتي في سبيل هنائك كي أمحو أثر تلك الساعة الهائلة التي سحقت قلبك ..

ويح لنفسي ما أشد شقائي ...

أأنا أخونك يا فرنسوا ، ولولا خوف الشرك لما عبدت سواك ؟

ولكنك عالم بشمائري ، واقف على دقائق نفسي فإذا كشفت لك الحقيقة ألا تثق بأقوالي ...؟

انك تثق بها دون شك ...

اني لو كذبت ذلك الخائن بكلمة لأغمد الخنجر في صدر طفلتنا ...

فرنسوا انك لا تعرف ابنتنا ، ولكنك ستغدو أسعد انسان حين تراها وستدمع عيناك حنواً حين أقول لك ، فرنسوا هذه هي بنتك فعانقها .

وما زالت تمشي مسرعة وهي تناجي من تحبه بمثل هذه الأقوال حتى باتت على قيد مائة خطوة من الحصن ، فرأت جماعة من الجند واقفين عند باب الحصن وبأيديهم المشاعل ، ورأت فارساً مرق بجواده بينهم مروق السهم .

فقالت : رباه هذا هو .

ثم ركضت اليه وجعلت تصيح بملء صوتها وتناديه . ولكن كتب في لوح المقدور لهذين الزوجين أن يعيشا شقيين . فلو تقدمت أو تأخر بضع ثوان لاجتمعت به وأوقفته على سر المكيدة .

ولمـــا علمت من الجندي انه سار في طريق باريس قالت . لأقفون أثره ما زال لي قوة تعينني على السير ولو اضطررت أن أجوب فرنسا في أثره ماشية على الأقدام .

وتسلحت بحب زوجها وحب ابنتها فاخترقت الغابات في ظلام الليل .

وسارت بين تلك الأشجار التي أحنى النسيم أغصانها ، فكانت كأنها تحيي بانحنائها تلك الزوجة الطاهرة وتبدي لها فروض الاحترام .

وقد تمكن اليأس من قلبهـــا حتى انه لم يعد يخطر لها الخوف في بال ، فلم تخش اللصوص ولا الحيوانات الضارية ولا قطـــاع الطريق الذين يكمنون للمسافرين في الغابات ، إذ لم يعد للحياة قيمة عندها بعد ذلك اليأس .

وسارت على عجل وابنتها بين يديها وهي ليس لديها غير الملابس التي تلبسها وليس في جيبها قطعة من النقود ، ولا تعرف باريس ولا أحداً من قومها ، ولكنها لم تكترث لذلك بل لم يخطر في بالها ، فكانت تسير وعيناها محدقتان إلى الأمام ترى بهما خيال ذلك الزوج الهارب فتهتدي به سواء السبيل .

* * *

بعد سفر فرنسوا بساعة جاء الرجلان بجسم أخيه محمولاً على لوح من الخشب والدم يقطر من جرحه فاضطرب كل من في الحصن لهذا الحادث الجلل واسرعوا فحملوه إلى فراشه وجاؤه بجراح القصر .

ففحص الطبيب جرحه وقال للضباط الواقفين من حوله انه يعيش ، ولكنه لا يستطيع قبل ستة أشهر أن يبرح الفراش .

وكان الرجلان اللذان حملاه إلى الحصن قد عرفا أخاه فرنسوا ، ولكنهما استغربا ذلك الأمر وخشيا عاقبة التصريح فلم يجسرا على الأباحة بشيء .

أما أهل الحصن فقد تبادر إلى ذهنهم ان هنري توغل في الغابة للصيد

فباغته اللصوص إذ لم يخطر لهم في بال أن يكون ذلك من صنع أخيه فرنسوا دي مونمرانسي .

* * *

في الساعة نفسها برح الحصن ايضاً الشفالييه بارداليان دون ان يعلم شيئاً مما جرى ، ولو علم بما أصاب هنري لما بقي دقيقة في ذلك الحصن ، فانه كان يعرف هنري حق العرفان ، وانه ليس في قلبه ذرة من الاشفاق والرحمة

وكان يقول في نفسه انى أرجعت الطفلة إلى أمهـا فإذا علم هنري بذلك ينقم علي أشد النقمة ويعذبني عذاب المجرمين فالفرار خير لي وأبقى .

ثم امتطى جواده ووضع ولده أمامه وأشار إلى الحصن إشارة وداع وانطلق بجواده في طريق باريس .

وبعد هنيهة دخـل إلى تلك الغابات العظيمة التي تمتـد إلى أبواب باريس لاتساعها .

فلم يسر فيها بضع خطوات حتى رأى بعينه النقادة شبحاً ، ثم اتضح له انه شبح امرأة ، فأسرع بجواده حتى وصل اليها فعرفها واضطرب .

وكانت هذه المرأة حنة فواصلت سيرها كأنها لم تسمع وقع حوافر الجواد .

غير أن بارداليـن ناداها برفق قائلا سيدتي .

فوقفت حنة وقالت له أليست الطريق التي أسير عليهـا يا سيدي هي طريق باريس ؟

– نعم يا سيدتي ، ولكن مسيرك ليلا في هذه الغابات خطر عليك ، ألا تسمحين لي أن أصحبك ؟

فهزت حنـــة رأسها إشارة إلى عدم اكتراثها بالأخطار ، فشكرته بصوت ضعيف .

– كيف ذلك يا سيدتي أتريدين أن تسيري وحدك ؟

– نعم ، اني لا أخاف شيئاً في هذا الوجود ، ثم استمرت في سيرها .

فنظر اليها بارداليان نظرة المعجب المشفق ثم هز كتفيه كأنه يريد أن يقول انه لا سبيل إلى مقاومة يأسها ، ومشى في سبيله .

غير انه لم يسر بضع خطوات حتى عاد اليها وقال لها ولكن ألك أقرباء يا سيدتي في باريس . أتعلمين إلى أين تذهبين ؟

– كلا ، ليس لي أحد ولا اعلم اين أسير .

أسألك العفو يا سيدتي لجسارتي في سؤالك . ألديك من النقود ما يكفي لمثل هذا السفر ؟

– ليس لدي درهم وفي كل حال أشكرك لما تبـديه من الاهتمام بي على غير معرفة سابقة .

فتردد بارداليان هنيهة كأنه في نزاع شديد ثم ذهب التردد وظهرت عليه دلائل العزم الأكيد فدنا من حنة ووضع على صدر بنتها شيئاً لماعاً وأطلق لجواده العنان ممعناً في الفرار بعد أن قال لها هذه الكلمات :

« سيدتي أرجوك ، أن لا تزيدي في لعن الشفالييه دي بارد ليـان فهو من أصحابي » .

فعلمت حنـة عند ذلك ان هذا الرجل هو نفس الرجل الذي رد لها ابنتها ونظرت إلى تلك الحاجة اللماعة التي وضعها على صدر ابنتها فرأتها خاتماً ثميناً من أفخر أنواع الماس .

أما هذا الخاتم ، فقد وصل إلى بارد ليان من هنري ، وقد أعطاه أجرة اختطافه الطفلة .

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

- ٩ -

التضحيـــة

كان الشيخ مونمورانسي امير الجيوش يسير ذهاباً واياباً في قاعة الشرف الكبرى في قصره في باريس .

وكان رجال بطانته الأشراف من حوله بعضهم جالسين على المقاعد وبعضهم وقوفاً وهم يتحدثون بأصوات واطئة بأمور غريبة .

وكان امير الجيوش قد أطل منذ هنيهة من النافذة ورأى امرأة واقفة أمام باب القصر الأكبر وهي مضطربة مصفرة الوجه وبين يديها طفل .

فأصدر امير الجيوش امره بادخال هذه المرأة الى القصر فأدخلوها الى غرفة محاذية للقاعة الكبرى واقامت تنتظر فيها .

وفوق ذلك فان ابن امير الجيوش الذي كانوا يحسبونه ميتاً قدم إلى باريس فجأة في الليل ، وخلا بأبيه خلوة طويلة ، ثم سافر بعد هذه الخلوة إلى مكان لا يعلمه أحد .

ووردت الأنباء من حصن مونمورانسي تفيد ان هنري ابن أمير الجيوش الثاني هوجم في الغابة وأصيب بجرح بالغ .

وآخر تلك الأنباء ان جلالة الملك هنري الثاني كان عازماً في الساعة الرابعة من ذلك اليوم على زيارة صديقه القديم ، وأمير جيوشه ، فاستنتجوا من هذه الزيارة أنهما يريدان التأهب لحرب جديدة ، وان الملك مقبل للمداولة

مع الأمير .

وكان جميع من في القصر منهمكين انهماكاً عظيماً لاستقبال الملك بما يليق بمقامه من الاجلال إذ لم يبق لموعد زيارته غير ساعة وهو من أشد الناس حرصاً على الصدق في المواعيد .

أما قصر مونمورانسي فقد كان مقره بازاء اللوفر على مسافة قريبـة من البحيرة .

وكان القصر على أتم مظاهر الفخامة والاجلال في عصر لم يكن أتى فيه بعد الكردينال ريشيليو ، فكبح جماح أولئك النبلاء الذين كانوا يشبهون الملوك بمظاهر القوة والجلال ، ويزيدون عليهم بالثروة واكتناز المال .

وكان في قاعة الشرف التي نحن في صددها نحو ستين نبيلاً من بطانة أمير الجيوش ، وهي حاشية عظيمة ، لم يخف ذلك الشيخ السياسي من أن يظهر بها أمام الملك ، في حين أن مولاه لا يعد مثل هذه الحاشية على كونه ملك فرنسا .

ولكن أمير الجيوش لم يكن في ذلك الحين يفتكر في هذه الأمور بل كان يسير مضطرب الخطى وهو يدنو من حين إلى حين من باب تلك الغرفة المقيمة فيها المرأة ، حتى إذا وصل اليها تراجع مغضباً وضرب الأرض برجله وعاد إلى المسير ذهاباً وإياباً في تلك القاعة وهو مشتت البال لا ينبس بحرف .

إلى أن زال ذلك التردد وظهرت عليه دلائل العزم الأكيد ففتح باب الغرفة فجأة ودخل .

وكان في وسط هذه الغرفة إمرأة واقفة وقفة المنتظر وقد وضعت طفلها النائم فوق مقعد وجعلت تنظر اليه بملء الحنو .

فدنا أمير الجيوش خطوتين منها وقال لهـا وهو عابس الوجه مقطب الجبين : ماذا تريدين أيتها السيدة ؟

فبدت على المرأة علائم الدهشة والذعر معـــاً ، حين رأته وتمتمت : مولاي الأمير .

فأجاب بعنف وجفاء إنك لم تتوقعي أن تريني اليس كذلك ؟ وانك بدلاً من أن تري ذلك الابن الأبله ، الذي يمكن خديعته كل حين بزخارف القول ، رأيت ذلك الوالد الذي لا يخدعه لين النساء .

فنظرت اليه حنة ، وقد عرف القراء انها هي دون شك ، وأجابته بلهجة شفت عن عواطف قلبها الرقيق : لا أنكر عليك يا سيدي اني كنت أرجو أن أرى فرنسوا ، ولكن امـرأة من أسرتي لا يمكن ان تجفـل إذا رأت والد زوجها .

فأطبق الشيخ قبضتيه وأجاب : ماذا تقولين : زوجك ، اني آمرك بأن لا تعيدي هذا القول أمامي ، فلقد أخبرني فرنسوا بكل مـــا جرى تلك الليلة . أسمعت ، انه أخبرني بكل ما جرى ، لقد علمت انك اتفقت مع أبيك على ولدي وأكرهتماه على الزواج بك .

وأي زواج هذا . انه عقد بعد انتصاف الليل خلسة فهو سرقة محضة ، بل هو اغتصاب شائن ..

وحاول الشيخ ان يندفع مع تيار غضبه ويسترسل في شتائمـه ، ولكن صيحة بدرت من حنة أوقفته عن تتمة حديثه ، فقد اصفر وجهها من الانفـة ومدت اليه يدها بملء العظمة والكبرياء ، فقالت له : انك كاذب أيها الشيخ وعار على النبلاء أن يكونوا من الكاذبين .

فاضطرب أمير الجيوش اضطراباً عظيماً وأجاب : من يقول عني هـذا القـول ؟

— أنا ، وهي كلمات مرة ولكنها حق ، ومـــا زال القول الحق يقرع الأسماع ، ولكني أزيد عليها فأقول :

« انك كالقبور المكلسة ظاهرها أبيض ناصع وليس في باطنها غير الجيف

انك ليس لك من النبل غير ملابس النبـلاء . وان تاج شعورك البيضاء لم يكن يحميك من الصفع لو كان أبي الذي قتلته بيدك الظالمة قتلاً بطيئـاً موجوداً الآن معي .. وانك تهين امرأة تحمل اسم أسرتك فأنت تهـين نفسك باهانتي .

فدهش أمير الجيوش لما رآه من كبريائها ، ولما سمعه من حديثها ، فأحمر وجهه في البدء ، ثم اصفر واضطربت شفتاه من الغيظ حتى أوشك أن يصدر أمراً ..

ثم ضبط نفسه ورأى انه مغلوب وأنه أهانها إهانة تستوجب هذا الدفاع ، فانحنى أمامها دون أن يفوه بحرف .

أما حنة فإنها استأنفت حديثها بعد ان حاولت تسكين اضطرابها فقالت : ولقد أخبرتني يا سيدي منذ هنيهة انك عارف بكل شيء ، فدلني كلامك على أنك تتهمني تهماً لا سبيل إلى السكوت عن ردها ، وما زال القدر دفعني اليك فلا أجد بدأً من الكلام ..

كلا يا سيدي انك لا تعلم كل شيء كما تقول ، بل إنك تجهـل الحقيقـة الهائلة كما يجهلها رئيسي وزوجي ، والرجل الذي ملكته نفسي . ولا بد لك من سماع الحقيقة صيانة لشرفي ، وحفظاً لهناء ولدك وحياة هذا الطفل البريء الطاهر المستظل الآن بسماء بيتك وهو من دمك . »

فزاد اندهاش الشيخ مما رآه من نبل تلك المرأة ، ورأى ظواهر السلامة والصدق منطبعة على وجهها الجميل فانحنى أمامها أيضاً وسألهـا : تكلمي يا سيدتي ..

ثم أطلق نظره إلى الطفلة النائمة على المقعد .

ورأت حنة أنه ينظر إلى إبنتها نظرة تكاد تشف عن الحنو .

فأبرقت عيناها بأشعة الرجاء ، فذهبت إلى ابنتها فقبلتها ..

ثم حملتها بين ذراعيها ، ودنت بها من جدها ، وهي تبتسم وتبكي في

في حين واحد .

فرق قلب الشيخ لهذا المنظر ومد يديه لأخذ الطفلة وقال لها : ما اسم هذا الطفل ؟

– انها تدعى لويزا .

فظهرت علائم الاحتقار على وجه الشيخ وبين شفتيه وأرخى يديه كأنه أنف من أن يضم تلك الطفلة وهو يحسب أنها غلام .

فأدركت حنة قصده وعلمت ما جال في نفسه فتراجعت مصفرة الوجه .

أما الشيخ فانه لم يحن قلبه في البدء إلى المولود إلا لحسبانه غلاماً يجدد مجد بيته في الأيام القادمة .

وكانت عادة تفضيل الذكور على الاناث شائعة في ذلك العهد فقال لها : اني وعدتك يا سيدتي أن أسمع حديثك فقولي ما تشائين وابسطي تلك الحقيقة التي تدعينها هائلة فاني مصغ اليك .

فأيقنت حنة أن ذلك الوثاق الذي أملت ان يصل بينهما وبين أسرة مونمورانسي انقطع ، ولكنها لم تعد تكترث لهذا الاتصال في تلك الساعة التي وقفت فيها موقف المتهمين ، وكان كل ما يشغلها الدفاع عن شرفها وتبرئة نفسها لدى والد زوجها كي يصل حديث البراءة الى الزوج .

وعند ذلك حكت له جميع ما اتفق لها مع ولده فرنسوا منذ نظرها النظرة الأولى الى حين عقد زواجها .

ثم ذكرت له وعيد هنري وولادة لويزا ، وتلك النهاية الهائلة التي عرفها القراء .

بحيث روت له كل ما حدث دون ان تنقص حرفاً .

فسمعها الشيخ بملء الاصغاء دون أن يبدو على وجهه شيء من علائم التأثير .

وكانت حنة تفحص ملامحه علها تجد في عينيه ما يدل على العطف والرفق

ولكن خاب رجاؤها فركعت امامه على ركبتيها واليأس ملء فؤادها ، وقالت : أرى يا سيدي لنكد طالعي اني لم أفز باقتناعك واني لم أستطع ان امثل لك ما قلته بعبارات تثبت حقيقته ، ولكني اقسم لك بنفسي وبالانجيل الطاهر ، بل بحياة ابنتي اني لم اقل غير الحق فلماذا لا تثق بصدقي يا سيدي ولماذا هذا السكوت .

انك والد فرنسوا وهذه الطفلة ابنته فهي حفيدتك ، الا تشفق يا سيدي على هذه الأم المنكودة .

واذا كنت لا تريد ان ترحمها الا ترحم هذه الطفلة وهي بريئة طاهرة فلا ذنب لها .

وكانت تقول هذا القول بلهجة كئيبة تدل على ان قواها بلغت غاية الانحطاط .

فكان الشيخ يسمعها وعيناه تضطربان مما يدل على انه كان يبحث عن حيلة تنقذه من هذا الموقف .

فلما أتمت حديثها ، قال لها : انهضي يا سيدتي فقد بت واثقاً انك تقولين الحق .

فصاحت حنة صيحة فرح وتمتمت :

– لقد نجت لويزا فليتبارك اسم الله .

وقد اضطرب الشيخ لهذه الكلمات لحظة ، ثم ضبط نفسه وعاد الى الحديث فقال : إني لم اكن اعلم بشيء مما حدثتني به عن فرنسوا وهنري ، فان فرنسوا لم يكلمني بشيء ، وحين قلت لك اني عالم بكل الامر ، كنت اريد بذلك اني كنت عالماً بذلك الزواج السري الذي اهانني واضر مصالح سيادتي واسرتي ، فاعلمي يا سيدتي ان هذا الزواج مستحيل .

فذعرت حنة وقالت له : إن الزواج لا يقال فيه انه ممكن او مستحيل وهو كائن .

فهاج ثائر غضب الشيخ وكادت تبدر منه بوادر الحدة ولكنه كظم غيظه ومشى في الغرفة هنيهة كي يقمع فتنة نفسه الثائرة ، حتى اذا وثق من ضبط عواطفه عاد الى تلك المنكودة فأخرج من جيبه ورقتين مطويتين ففتح احداهما فدفعها الى حنة وقال لها : إقرأي هذه .

فأخذت حنة تلك الورقة ، ولم تكد تتم قراءتها حتى اصفر وجهها ، وثارت العواصف في قلبها الكسير ولم تستطع ان تفوه بكلمة لكنها نظرت إلى ذلك الشيخ ، كما ينظر الحمل الى الجزار حين يجرد السكين لذبحه .

أما الورقة فقد كانت تتضمن ما يأتي :

« صدر الأمر إلى قائد حرسنا بالقبض على فرنسوا كونت دي مرجني ، وبكر أسرة مونمورانسي والكولونيل في جيشنا السويسري والذهاب به إلى سجن فامبل ، حيث يقيم فيه إلى أن يدعوه الله اليه . »

ولكن سكوتها لم يطل فانها ما لبثت ان ثابت الى رشدها بعد تلك الضربة الهائلة حتى نظرت الى ذلك الظالم وقالت له بلهجة التوسل : أية إساءة اساءها اليك فرنسوا فتعاقبه بالسجن الأبدي ؟

فقال لها الشيخ : انظري يا سيدتي إلى الأمر تجدي انه لم يوقع عليه بعد ولكن الملك سيزورني بعد هنيهة في هذا القصر ،وانت تعلمين اني امير الجيوش واعظم عظيم في فرنسا بعد الملك ، فاذا التمست من جلالته أن يوقع على الأمر فعل دون شك فيسير فرنسوا غداً إلى السجن ويبدأ عذاب ذاك الذي تقولين انك تحبينه .

— ولكن ذلك شديد هائل ، فماذا اجرم هذا المنكود فاستحق هذا العقاب ؟

— إنه تزوج بك .

— اتعد الزواج جريمة ؟

— رحماك يا سيدي والق صواعق غضبك علي دون فرنسوا فلا ذنب له .. ان الله عادل رحيم ، الا يوجد في هذه الأرض عدل ورحمة واشفاق ؟ اقتلني يا سيدي ما زال الحب يعد جريمة فقد أحببت ، ودع فرنسوا فانه ولدك .

فبرقت عينا الشيخ ببارق من الرجاء فأخذ الورقة الثانية وقال لها :

— والآن اقرأي هذه الورقة فانها صك اختياري يتضمن فسخ الزواج بينك وبين ولدي .

فصاحت حنة صيحة منكرة واجابت .

— كلا ، معاذ الله ان افعل ، فاقتلني اذا شئت ان يفسخ الزواج ، واما ان افسخه بيدي فلا .

— اني اعلم مقدار صعوبة الطلاق عندنا ، ولكن الملك يساعدنا ، فيسهل ويهون .

فركعت حنة وجعلت تبكي وتقول ارحمني واشفق علي .

— ولاسيما إن قداسة البابا قد وافق على فسخ الزواج ولم يبق الا توقيعك على الصك

— رحماك ، دع لي فرنسوا ودعني أحبه .

— وقعي يا سيدتي على الصك ، والحبر الأعظم يلغي الزواج .

— وابنتي يا سيدي ... إنها بنت فرنسوا .. انها حفيدتك ، اتسرق منها اباها ، اتختلس منها اسمها .

— كفى يا سيدتي ، فلا بد لي من تقديم إحدى هاتين العريضتين بعد هنيهة الى الملك فاذا لم توقعي على العريضة ولم استطع ارسالها الليلة الى رومه بات فرنسوا غداً في السجن فلا يخرج منه حياً ، فوقعي يا سيدتي اذا كنت تريدين له النجاة

ثم دفع اليها القلم فاختنق صوتها بالبكاء .

- كلا ، كلا .. لا افعل .

وعند ذلك سمع صياح الجنود ، في فناء القصر يكررون القول : ليحيى الملك !

ذلك ان الملك هنري الثاني كان قد دخل القصر ، فأسرع احد النبلاء الى امير الجيوش ، وقال له :

- مولاي ان جلالة الملك قد وصل .

فالتفت الشيخ إلى حنة وقال :

- استودعك الله ، فمزقي عريضة الطلاق اذ لم يبق فائدة منها ، وانا اعرض على جلالة الملك العريضة الثانية القاضية بسجن فرنسوا إلى الأبد .

ثم هم بالخروج مغضباً وعليه دلائل صدق العزيمة فأسرعت اليه وقالت له: قف فقد رضيت ان امضي . رضيت ان اموت فداء لمن احب .

ثم وقعت على الصك والقت القلم ، لأن يدها لم تعد تستطيع ضبطه ، فانها سقطت على الأرض لا حراك بها ، وقد بسطت يدها دون ادراك الى جهة ابنتها كأنها تريد ان تحميها .

اما الشيخ فانه اخذ الصك فوضعه في جيبه وخرج لمقابلة هنري الثاني فتلقاه النبلاء والجنود بالصياح قائلين : ليحيى الملك ، وليحيى امير الجيوش !

- ١٠ -

ذات الملابس السوداء

وصل الصك الى قداسة البابا ، فحكم ببطلان ذلك الزواج السري ، وبطلاق حنة دي بيانس من فرنسوا دي مونمرانسي ، فكان لذلك وقع عظيم في الأندية الخاصة ، اذ كان الجميع يعتقدون ان الملك سيعارض في هذا الطلاق ويأباه كل الاباء .

وفي سنة ١٥٥٨ بات فرنسوا دي مونمرانسي امير الجيوش الأكبر بدلاً من ابيه المتوفي ، فتزوج ديانا دي فرانس ابنة الملك ، ولكنه قبل ميعاد الزواج بأسبوعين ذهب الى تلك الأميرة فخلا بها .

وقال لها ما يأتي :

اني لا اعلم يا سيدتي حقيقة منزلتي من قلبك واسألك المعذرة والعفو عما سأقوله لك ، فانك لا تسمعين من يكلمك بهذه اللهجة الهمجية غيري .

انهم يريدون يا سيدتي تزويجنا ، وانما رضيت هذا الشرف امتثالاً لأوامر الملك الذي اراد هذا الزواج لأسباب سياسية .

ولكن اليوم الذي يبارك فيه الأسقف زواجنا يكون قلبي بعيداً عن تلك الحفلة ، فاني لا احبك ولن احبك

ولا انكر يا سيدتي اني اتجاسر على اهانتك في ما اقول ..

فقاطعته ديانا قائلة كلا ، وأنا أرجوك أن تمضي في حديثك بملء الحرية

كأنك تناجي نفسك

– ولكني لو كان قلبي لي لما وهبته لسواك ، فإنك فتنة العيون وابدع موصوفة بين الحسان .

– إذاً أنت مقيد بحب سواي ؟

– كلا يا سيدتي فقد أخطأت التعبير لأن قلبي قد مات ودفنت فيه أماني الغرام ، وإذا كنت لا أزال في قيد الحياة فليس ذلك بذنبي ، فقد طالما القيت نفسي إلى الموت في غمار المعارك .

ثم ابتسم ابتسام قنوط وقال :

– ولكن الموت كان يهرب مني ، وهذه هي يا سيدتي حقيقة أمري ، فإن زواجنا لا يمكن أن يراد به غير اتحاد الاسمين ، فإذا كان الحب الأخوي والاخلاص الطاهر والخضوع الأكيد تعدل كفتها كفة الحب قدمت لك بلء الاحترام هذا الاخاء وهذا الخلوص .

والآن يا سيدتي إني بحت لك بمكنونات قلبي ، واطلعتك على حقيقة لا ريب فيها فلم يبق علي إلا انتظار أوامرك .

وكانت ديانا جميلة على ما وصفها فرنسوا وهي على جمالها ذكية الفؤاد ، فوقفت حين أتم حديثه وقالت له برفق إني لو سمعت ما قلته لي الآن من سواك لما حسبت قوله إلا اهانة ، ولكني غفرت كل هفوة تبدر منك فامتثل لأوامر ملكك ، وليحتفظ كل منا بقلبه . أليس هذا الذي تنتظره مني يا حضرة المارشال ؟

فاصفر وجه فرنسوا لأنه كان يتوقع أن يسمع غير هذا الجواب وقال لها :

– يا سيدتي . .

– انصرف الآن واعلم إني سأحترم حداد قلبك .

فانحنى فرنسوا أمامها وقبل يدها وهو يبتسم ابتساماً يشف عن سويداء

أما الأميرة فإنها ودعته ضاحكة وهي تقول : أن الطبيب باري يقول إني خبيرة بالطب ، ومن يعلم ، فقد اتمكن من شفائك فادع لي بالتوفيق .

* * *

وبعد هذه المقابلة جعل فرنسوا يعرض نفسه للموت في كل معترك .

ولكن الموت كان يفر منه كما يقول .

أما هنري فانه لم ير أخاه بعد تلك المبارزة ، وكان كل من الأخوين يحاول اجتناب الآخر ، فإذا حارب فرنسوا في الشمال حارب هنري في الجنوب

على أن هذا اللقاء لم يكن بد منه ، فإن الأخوين كانا لا يزالان يهويان حنة وكلاهما يبحثان عنها ، ولكن ابحاثهما ذهبت سدى فلم يعرف أحد مكانها .

وماذا عسى أن يكون قد أصاب هذه المرأة المنكودة التي يصح أن يضرب بشقائها الأمثال . العلها كانت أسعد حظاً من زوجها فرنسوا فوجدت الراحة بالموت .

العل شقاءها بزوجها وابنتها ويأسها من الحياة دفعا بها إلى الهاوية الأبدية ؟

كلا ، إنها لا تزال في قيد الحياة ، ولكنها حياة مرة يفضلها الموت ، فهي في عراك دائم مع اليأس تقضي الليالي الطوال باكية تندب ذلك النعيم الذاهب ولا تريد أن تعيش إلا لابنتها .

ويذكر القراء انها بعد أن وقعت على صك الطلاق سقطت مغمياً عليها ولا نذكر كيف استيقظت وكيف كان خروجها من ذلك القصر ، وكيف عاشت تلك السنين حذر الاسهاب في ما لا يفيد .

ولكننا ندخل بذهن القاريء إلى منزل حقير كانت تقيم فيه في شارع

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

سانت دنيس ، وهو منزل صغير مؤلف من ثلاث غرف مفروشة بابسط فرش ، ولكنها بأتم النظافة والترتيب .

خرجت حنة من إحدى هـذه الغرف إلى غرفة كانت جالسة عند نافذتها المطلة على الشارع فتاة حسناء .

وقبل أن تدخل إلى الغرفة وقفت عند مرآة فجعلت تنظر فيهـا وتحدث نفسها فتقول :

« كيف يجدني لو رآني الآن . العله يعرفني .؟ واأسفاه لقد ذهب العهد القديم وزالت نضرة الشباب وأين أنا الآن مني حين كنت القب بحورية الربيع .. إني بت الآن القب بالمرأة السوداء للابسي السود ، وما هي إلا الحداد على بختي العاثر .

غير أن حنة كانت مخطئة في ما ادعته من ذهاب نضرة جمالها ، فإنها كانت لا تزال آية في الجمال ولم يكن اصفرار وجهها إلا ليزيدها حسناً .

ودخلت وهي تتنهد إلى غرفة الفتاة فوجدتها تشتغل بالتطريز ، وهي منهمكة فيه حتى إنهـا لم تنتبه لدخول أمها ، فان هـذه الفتاة كانت لويزا ، وقد وضح السبب الآن في بقاء حنة في قيد الحياة فانها قـد لقيت من الشقاء ما لم تلقه زوجة من قبلها .

ولكنها على نكبتها كانت أماً وقد زادها شقاؤها بزوجها تعلقاً بابنتها ، وكانت تحبها وتعبدها وهي طفلة في المهد ، فكيف يكون حبها لها الان وقد ترعرعت وخرجت كأمها لطفاً وجمالاً يدهش الابصار .

وكانت لويزا بالغة في ذلك العهد ستة عشر ربيعاً وهي زرقاء العينين تشبه زرقتها لون السماء الصافية ولها شعر ذهبي يلمع كالتاج وقعت عليه أشعة الشمس وكل ما فيها حلو جميل ؛ وكل كلمة من كلماتها العذبة قصيدة .

ولكنها على هذا الجمال الفتان وعلى مـا فيها من نضارة الشباب ، كانت

تبدو عليها مظاهر السويداء فلا تنقطع عن التفكير ، فهل كتب في لوح المقدور لهذه الفتاة ما كتب لأمها ؟

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

ولما دخلت أمها ووقفت أمامها انتبهت لها فنظرت اليها مبتسمة وقابلتها أمها بمثل ذلك الابتسام .

ولو نظر الناظر الناقد اليهما لما قال انهما أم وبنتها ، بل قال انهما اختان بينهما بضعة أعوام على أن الأم تزيد البنت بقدر عمرها .

وجلست حنة تجاه لويزا فأخذت طرفاً من الوشاح الذي تطرزه وجعلت تساعدها في التطريز .

فقالت لها لويزا : كفاك عناء يا أمي واستريحي ، فأنا أتم هذا الوشاح إذ لم يبق منه غير القليل .

قالت : العلك نسيت يا ابنتي انه يجب علي تسليم الوشاح في هذا اليوم الى تلك السيدة الغنية .

— نعم ولقد ذكرت لي اسمها فهي ماري توشيت ، اليس كذلك ؟

نعم يا لويزا .

لماذا لم نخلق أغنياء يا أمي مثل هؤلاء الذين نشتغل لهم فنكتفي مشقة العمل ، وانما أقول ذلك من أجلك فاني سعيدة بقربك ويكفيني ذلك .

فنظرت حنـة إلى لويزا بنتهـا نظرة شفت عن الكآبة وقالت في نفسها تخاطب ابنتها :

إنك لا اسم لك ولا لقب ، ولكنك لو علمت إنك ابنة مونمورانسي لما كنت تقولين .

ثم تاهت في مهامة التفكير فقالت لها لويزا : بما تفكرين يا أماه ؟

فارتعشت حنة واغرورقت عيناهـا بالدموع فقالت : افتكر يا ابنتي بانك ما خلقت لهذا العمل الشاق ويسوءني ان تخز الأبر يديك الجميلتين .

وأخذت يدي بنتها وجعلت تقبلها .

فضحكت الفتاة وقالت لها : أتظنين يا أمي ان يدي تشبه أيادي الأميرات ؟

فزاد اضطراب حنة وأجابتها قائلة : من يعلم يا ابنتي لولا هـذان الرجلان الشقيان ..

ثم توقفت فجأة عن الحديث فقالت لها لويزا :

متى تقولين لي يا أمي هذا السر الهائل المثقل على حياتك ، ومتى تذكرين لي اسم ثاني الرجلين الذي نغص عيشك هذا التنغيص ، فإنك لم تذكري لي غير اسم واحد .

— نعم يا لويزا ، وهو الشفالييه دي باردالیان .

— إني لا انسى هذا الاسم وسأكرهه ما حييت فقد كان السبب في شقائك. ولكن اذكري لي اسم الآخر .

فسكتت حنة ولم تجب واحترمت البنت سكوت أمها فعكفتا على العمل حتى تم الوشاح .

وعند ذلك أخذته حنة وذهبت به الى تلك السيدة وهي ماري توشيت .

أما لويزا فإنها وقفت بعد ذهاب أمها تنظر من النافذة ، وقـد أرسلت نظرها إلى فندق يقابل منزلها وقلبها يخفق بالرجاء .

وكان في نافذة إحـدى غرف ذلك الفندق فتى جميل ، فلما رأى الفتاة أطلت من الشباك أرسل لها قبلة من يده .

فاحمر وجه الفتاة ثم اصفر ولبثت هنيهة وعيناهـا محدقتان بهذا الفتى ، فكانت هذه النظرات شبه اعتراف بموافقتها على الحب .

ولم تكن الفتاة تعرف هذا الفتى ، ولكنها لو عرفت اسمه لما وقفت في

تلك النافذة ، ولما نظرت اليه هذه النظرات وللعنته أشد لعن ، فأن هـذا الفتى كان يدعى الشفالييه دي باردليان الأصغر .

أي أبن باردليان الأكبر الذي عرف القراء أمره فيما تقـدم من سياق الحديث

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

- ١١ -

باردليان الاصغر
جواده وكلبه وحسامه

كان باردليان الأصغر يقيم منذ ثلاثة أعوام في غرفة من أجمل غرف فندق دفينير تشرف على شارع سانت دينيس الذي تقيم فيه حنة وابنتها لويزا .

وسنرى كيف تمكن هذا الشاب على فقره المدقع من الأقامة في هـذا الفندق الذي كان يعد من أشهر فنادق باريس في تلك الأيام .

ولا بد لنا قبل ذلك من أن نصف باردليان ، فقد عرفناه طفلاً صغيراً قوي البنية خفيف الحركات ، وهو الآن في العشرين من عمره ريان الشباب ممتلىء البدن شديد الأعصاب لين العريكة .

وكان يلبس لباساً واحداً في الصيف والشتاء ، وهو من المخمل الأزرق وقبعته تختلف عن قبعات جميع الناس ، فهي مستديرة وعليها ريشة ديك ، وقد استعمل هـذه القبعة هنري الثالث فعم انتشارها ، ولكنها كانت من

مخترعات باردليان دون شك .

وكان عالي القامة براق العينين ولنظراته حلاوة ورهبة ، إذا ابتسم أو غضب ، وعلى الجملة فقد كان جميلا مهيباً في حين واحد .

وقد لقب نفسه كأبيه بلقب شفاليه ، فكان جميع سكان شوارع سانت دينيس وتامبيل وسانت انطوان ، وفي جميع خمارات الغلمان الأشرار يعرفونه ويخافونه .

وطالما رآه الأزواج وهم مع نسائهم يمر بهم وهو معتز كالملوك ، فيهربون من لقائه بل طالما كانت السيدات ترفع سجوف مركباتهن لتشيعنه بالنظر

أما هو فقد كان طاهر القلب فلم يكن ينتبه لشيء مما يحيط به من اعجاب الناس ، بل كان يسير غير مكترث وانفه مرتفع للهواء كأنه ذئب يبحث عن مغنم ، وما غنمه غير معركة يثيرها أو خصم يبارزه وحادثة غرام تسليه .

وكان الجنود يخافونه فلا يعاملونه إلا باللطف والابتسام ، وقطاع الطريق الأشداء يعجبون به ويعرضون عليه أن يتولى رئاستهم فيأنف منهم . فكان جميع الناس يعجبون به على اختلاف الطبقات .

أما هذا البطل فلم يكن يمتلك شيئاً في الوجود ، إلا ما أنعم عليه به الله من صحة وظرف وقوة ، وحصان يدعى كالور وكلب يدعى بيبو وحسام طويل يدعى جيبوليه .

هذه هي كل ثروته ، وسنعود إلى حديث جواده وكلبه وسيفه فان لها شأناً في هذه الرواية .

ولنعد الان إلى حديث باردليان فنقول : انه قبل أن يرسل إلى لويزا تلك القبلة من النافذة بستة أشهر دعاه اليه والده وكان يقيم معه في ذلك الفندق فقال له : إني دعوتك إلي يا بني لأودعك .

فاضطرب وقال له : ألعلك مسافر ؟

— نعم يا بني وقد كان خطر لي أن أقترح عليك السفر معي

فاصفر وجه باردليان وظهرت عليه علائم الاضطراب ، وكان أبوه يراقبه فقال له لقد كان خطر لي هذا الخاطر ، ولكني رأيت بعد ذلك ان بقاءك في باريس أفضل ، فانها عاصمة البلاد ومقر الملك ومطمح أهل الأقدام مثلك .

قال : ولكن ماذا يدعوك إلى السفر يا أبي ؟

أجاب : يدعوني اليه أمور كثيرة يا بني أخصها أني نشأت على التجوال والضرب في الأرض ومناجاة الطبيعة في معظم جلالها ، وقد ضيق العيش في باريس صدري فلم أعد أستطيع الاقامة فيها .

وربما كان الدافع إلى سفر باردليان الأكبر سبب غير هذا يريد أن يكتمه فانه كان يتلجلج في قوله .

ثم مضى في حديثه فقال :

إني أفارقك الان يا بني وقد يكون هذا الفراق فراق الأبد ، فقد كدت أبلغ مبالغ الشيوخ ويسوءني اني ليس لي ما أدعه لك غير نصائحي الأبوية وهي إرثك الوحيد مني ، بل هي خير من المال فانها نتيجة التجارب والاختبار دهراً طويلا .

ورأى باردليان دمعة سقطت على وجنة ولده فقال : على م البكاء يا بني ان بكاءك يحزنني : فاحتفظ بدمعك ترسله في غير هذا المقام ، فليس فراقي نكبة تدعو إلى البكاء .

واني مسافر يا بني ولكني أفتخر بأني تركت ولداً جديراً بأن يكافح في معترك الحياة فأنت خير من حمل السيف وليس في جميع بلادنا الفرنساوية من يستطيع الثبات أمامك ومضاهاتك في ما علمتك إياه من فنون القتال ، فأنت حديد النظر ذو همة شماء شجاع عنيد لا يعوزك سبب من أسباب الفخار .

وفوق ذلك فقد كنت أحملك في حداثتك تارة على جوادي وتارة على ظهري

وطوراً أدعوك إلى المسير

فلما تجاوزت سن الحداثة كنت قد طفت جميع فرنسا من شرقها إلى مغربها وشمالها إلى جنوبها فتعلمت ما لم يتعلمه سواك

تعلمت أن تبيت على الفراش الخشن وأن تنام دون طعام ، وأن لا تكترث لبرد أو حر ، وأن تبسم لحرارة الشمس وتضحك لهطل الأمطار وترتاح لهبوب العواصف . وأن تجوع وأن تعطش . نعم انك تعلمت كل ذلك يا بني ولذلك نشأت أشد بنية من الفولاذ .

ثم نظر باردليان الأكبر إلى ولده نظرة اعجاب ومباهاة ، وعاد إلى حديثه فقال :

ومع ذلك فقد كان بوسعك أن تعيش عيش الهناء والراحة في منصب حسن برئاسة سيد له نبل الملوك وثروة تزيد عن ثروتهم ، ولكن جريمة حالت دون بلوغك هذا المنصب الذي كنت أعده لك .

فذعر الفتى وقال : أية جريمة تعني يا أبي ؟

– إذا لم تكن جريمة فهي بلاهة وأنا الذي ارتكبتها .

– انت ترتكب الجرائم يا أبي ؟ كلا ان ذلك محال . فان قلبك الحنون ألين من ان يرتكب الهفوات .

– اصغ إلي يا بني فاني بعد ان عشت زمناً طويلاً جواب آفاق تاقت نفسي إلى الراحة فلقيت من يضمن لي هناء العيش ، وكان يجب علي أن احتفظ بمنصبي من اجلك ، ولكن رئيسي عهد إلي يوماً بمهمة سهل قضاؤها وهي اختطاف طفلة ، ففعلت وكافأني على ذلك بخاتم من الماس لا يقل ثمنه عن ثلاثة آلاف ريال ووعدني بضعفي هذا إذا أبقيت الطفلة عندي .

وقد عهد إلي بمهمة أخرى شائنة ، ولكني عولت منذ تلقيت الأمر بقضائها ان لا أقضيها ، ولذلك أكتمها عنك .

– وبعد ذلك .

– وبعد ذلك أجبت داعي الضمير ، فعصيت أمر الرئيس ، وأرجعت الطفلة إلى أمها وأعطيتها ذلك الخاتم جزاء خيانتي . فلم أجد بعد عصياني رئيسي سبيلاً إلى البقاء عنده ، فكان نتيجة ذلك إني بت خمسة عشر عاماً شريداً . ولذلك بت شقياً معدماً ، لم أدخر لك ما يعينك على العيش .

– من هي هذه الأم المنكودة يا أبي ، ومن هو هذا الرئيس الذي كنت في خدمته ؟

– ليس ذلك سري لأبوح لك به ، ولكن إعلم إنك بسبب جريمتي بت أشد فقراً من أيوب ، وهنا ينتهي شبهك بهذا الرجل ، المشهور بالصلاح والصبر .

والآن ، إصغ إلى ما أقوله لك واعرني سمعك لألقي عليك نصائحي لانها كل ما ترثه عني فاسمع :

أول ما أوصيك به يا بني ان لا تثق باحد من الناس فليس بينهم من يسوى قيمة الحبل الذي يجب ان يشنق به .

إذا رأيت رجلاً مشرفاً على الغرق ، إرفع له قبعتك مودعاً ، وامض في شأنك .

وإذا رأيت لصوصاً ينهبون رجلاً في زاوية من زوايا الطريق فدعهم وشأنهم ومر في طريق آخر .

وإذا قال لك أحد الناس انه صديق لك ، ليكن اول بحثك عن الشر الذي ينويه لك .

وإذا قال لك انه يريد لك الخير البس درعاً من الزرد .

وإذا دعيت الى النجدة صم أذنيك كي لا تسمع ..

أتعدني يا بني ان لا تنسى شيئاً من أقوالي ؟

– نعم ، نعم .. وبعد ذلك ؟

– ثانياً ، يجب ان تكون شديد الحذر من النساء ، لان أشدهن دعة تهيج في قلبها البراكين ، وأرقهن بك أنفذهن سهماً إلى قلبك .

واعلم يا بني ، ان النساء خلقت لنا رياحين ، فتمتع من شميم الريحان ما شئت .

ولكن إحرص على قلبك ولا تبحه لغانية ولا تقيد نفسك بالغرام ، وإذا فعلت كنت سعيداً وعشت العيش الرغيد .

وكأنما هذه الوصية لم ترق لباردليان ، وهو يسمعها من شيخ تجاوز عهد الغرام .

– سأعمل بوصيتك يا أبي جهد الامكان .

– إذاً أسافر مطمئناً آمناً وسأبقي لك سيفي الطويل .

ثم نظر الى سيف طويل معلق على الجدار نظرة إعجاب فقام وانتزعه من موضعه وعلق حمائله في عنق ولده .

ثم قال له بلهجة ملك يقلد وسامه من ينعم عليه :

– كن قوياً على نفسك ، وعلى النساء ، وعلى الرجال . وهذا السيف الطويل النجاد خير عون لك ، فهو الصديق الذي لا يخدع ، والخليلة التي لا تخون ..

والآن أستودعك الله يا بني .

فصاح باردليان يستوقف أباه ويقول : أبتي .. قل لي اسم هذه المرأة التي أرجعت اليها ابنتها ، واسم هذا الرجل الذي كنت في خدمته .

فأجابه بلهجة خطيرة : لقد قلت لك ان هذ السر ليس لي .

ورأى باردليان انه لا فائدة من الالحاح ، فاكتفى بتشييع أبيه إلى خارج باب باريس . وهناك ودع الأب ولده وامتطى جواده ، واندفع به يسابق الرياح .

وقد بكى باردليان ورجع إلى الفندق آسفاً حزيناً وهو يعلم انه بات وحيداً في الوجود لا رفيق له إلا هذا الذي أخذه من أبيه .

بعد ذلك باسبوعين كان باردليان يتنزه على ضفاف السين وعليه مظاهر الكآبة فرأى عصابة من الغلمان قد طوقوا عنق كلب بحبل وجعلوا يجرونه إلى جهة النهر بغية إغراقه .

فرق قلبه لنكبة الكلب وانقض على العصابة ففرقها وأنقذ الكلب وهو يقول : ان أبي أوصاني بعدم إنقاذ الغرقى من الناس لكنه لم يمنعني عن إنقاذ الغرقى من الكلاب .

ولا حاجة الى القول ، ان الكلب تعلق بمنقذه ، وجعل يقفو خطواته ، غير أن باردليان كان يصعب عليه في أيام العسر تغذية نفسه ، فحاول طرد الكلب .

ولكن هذا الكلب الأمين تمرغ على قدميه ، وجعل ينظر اليه بملء السلامة ، كأنه يبرهن له عن إخلاصه وامتنانه . فمال باردليان اليه وذهب به الى الفندق .

ولم يمض ثلاثة أشهر حتى عرف عيوب كلبه وحسناته ، ودعاه بيبو ، وعرف كل طباعه . فقد كان ذكياً كثير اللعب ، سارقاً ، خطافاً ، كذوباً .

ولا يذهل القراء من أننا وصفناه بالكذب ، فمن الثابت ان الكلاب تتكلم ولكن ليس من يفهم لغتها ، غير انه مع هذه الصفات كان شجاعاً مقداماً شديد الاخلاص ، فشفعت هذه المحاسن بتلك العيوب ، ودعت باردليان إلى التعلق به .

وكان باردليان يقيم في ذلك الفندق مع أبيه في غرفة مظلمة تشرف على فناء الفندق ، ولم يكن يكترث لعيوبها ، في عهد والده . ولما سافر وبقي وحده تجلت له مساوئها ، بحيث أنف الاقامة فيها وجعل يعمل

الفكرة لإبدالها .

وفيما هو يفكر حانت منه التفاتة إلى الباب ، ورأى باب الغرفة التي تقابل غرفته مفتوحاً . فدخل اليها ووجدها خالية ، وهي مفروشة أجمل فرش ، وفيها كل ما يحتاج اليه ، فقال في نفسه : هذه هي الغرفة التي أريد الاقامة فيها .

ثم فتح نافذتها فوجد انها تشرف على شارع سانت دانيس .

فتأمل هنيهة جمال هذا الشارع وهم بالرجوع وإقفال النافذة ، فوقع نظره فجأة على منزل مقابل للفندق ورأى في أعلا نافذة من نوافذ هذا المنزل فتاة لم تر العيون أبدع منها فصاح صيحة دهش وإعجاب بلغت إلى مسامع الصبية فاحمر وجهها استحياء وأقفلت النافذة .

فوقف بارداليان في مكانه منذهلا مفتوناً لذلك الجمال الفضاح لا سيما وانه رأى تلك الفتاة مراراً تسير في ذلك الشارع ، ولكنه لم يعلم انها تقيم في ذلك المنزل وان نافذة غرفة الفندق تشرف على منزلها

وقد لبث واقفاً تائهاً في مهامة التصور والتفكير إلى ان أيقظه من غفلته صوت لاندري جريجوار صاحب الفندق .

كان لاندري هذا في حداثته ضعيف البنية هزيلا ، فلما كبر وشب لم يزد طولاً ، بل زاد عرضاً وكثر سمنة ، حتى بات عرضه مساوياً لطوله فأصبح شبه البرميل .

فلما رأى بارداليان في تلك الغرفة قال له: إني أبحث عنك يا سيدي الشفالييه منذ ساعة فلم أجدك لانك لم تكن في غرفتك .

فجلس بارداليان على كرسي وقال : اني فيها قل ما تشاء .

فاضطرب لاندري ورد : كيف أنت فيها ؟

– لا أرى داعياً إلى العجب لقد راقت لي هذه الحجرة فاستبدلت غرفتي بها وسأبيت فيها الليلة .

فاصفر وجه صاحب الفندق ، ورد بصوت يتهدج من الغضب : إنك تختار ما تريده من غرف فندقي في حين اني كنت قادماً اليك لاخبرك إني لا أستطيع قبولك في غرفتك القديمة .

وأجاب بملء البرود : إذاً ، نحن متفقان ... إصنع بحجرتي القديمة ما تشاء .

وهاج ثائر لاندري ورد : إذا كنت أرفض ان أبقيك في غرفتك القديمة المظلمة فهل أأذن لك بالاقامة في أجمل غرفة من غرف فندقي وهي تؤجر بمائة ريال على الاقل ..

لقد آن لي ان أتكلم يا سيدي الشفالييه ، إن أباك حين شرفني بالاقامة عندي وعد ان يدفع لي الاجرة بشكل منظم ، وقد مضى عامان دون ان يدفع شيئاً وهو ما لا يرضى به سواي .

– إن ذلك يشرفك يا لاندري

– نعم ، ولكنه لا يعنيني . وقد طلبت إلى والدك بعد ما نفد صبري ان يدفع لي ما عليه .

– وماذا أجاب ؟

– أجابني بالصفع والضرب .

– ألم يؤدبك هذا الجزاء ، فتعلم وقاحتك ، بطلب الاجرة من رجل شريف ؟

– نعم ، لكن لا بد لي ان أقول لك يا سيدي أن والدك كان يحمي فندقي ولا يدع احداً يعتدي علي فيه ، وإذا عربد سكير عربدة تزعج الزبائن حمله والقاه إلى الشارع فلا يجسر ان يعود .

– إذا كان ذاك أنت المدين له كما أرى .

– كفى مزاحاً يا حضرة الشفالييه .

– كما تشاء ، قل ما تريد .

– أريد ان تغادر فنـــدقي ، إلا إذا دفعت لي مؤخرات عامين عنك وعن والدك .

– أهذا آخر ما تقوله ؟

وتشجع صاحب الفندق بما رآه من لطف بارداليان وقال له : إن آخر كلمة أقولها أن تكون هذه الليلة آخر لياليك عندي .

فخرج بارداليان بملء السكينة إلى غرفته ، فجاء بالعصا التي كان يعدها والده لضرب صاحب الفندق حين يطالبه ، وعـاد فانهال بها على ظهر ذلك المنكود ، وهو يقول : يجب على الابن المهذب أن يقتدي بوالده وقد كان والدي يضربك كما تقول ، فلا بد لولده ان يعمـل عمله ، ومن أشبه والده فما ظلم .

وجعل بارداليان يضربه ضرباً موجعاً ، وصاحب الفندق يصيح ويستغيث وأسرعت امرأته وفي أثرها الخدم والخادمات ، وهم مسلحون بادوات المطبخ والمكانس ، وكلهم يصيحون باصوات مختلفة . لان بعضهم توهم ان النار قد شبت في الفندق ، وبعضهم حسبوا ان اللصوص هاجموه فلم يكترث الجيران لهذا الصياح لانهم حسبوا انهم يقتلون احد الهيكنوت ، لان ذلك كان كثير الاتفاق

ولما رأى بارداليان ان الحجرة قد غصت بالخدم ، عمد الى الحيلة ، فحمل صاحب الفندق ودنا من النافذة ، وأمسكه بيديه وجعل جسمه خارج النافذة .

ولما رأى صاحب الفندق هذا الخطر المحدق به ، ورأى ان بارداليان يتهدده بالموت إذا لم يأمر خدمه بالانصراف صاح بهم بصوت يختنق من الخوف: أخرجوا جميعكم وإلا تركني فهويت .

ولم يسع الخدم غير الامتثال ، وخرجـوا جميعهم ، ولم يبق غير امرأة صاحب الفندق .

والغريب انها لم تكن بادية عليها علائم الخوف ، وهي ترى زوجها في أشد الاخطار

وأما لاندري فإنه جعل يستغيث ببارداليان ويقول له : رحماك أرجعني إلى الحجرة .

– أتعود بعد الآن إلى مثل تلك المطالب ؟

– كلا ! كلا !

– أيحق لي الإقامة في هذه الحجرة ؟

– بل إن الفندق كله لك ... أرجعـني إلى الحجرة بحق الله ، لاني أكاد أموت .

وأعاده بارداليان ببطء ، والقاه على كرسي ، وقد وهنت عزائمه وكاد يغمى عليه .

فجعلت امرأته تنضح وجهه بالماء ثم نظرت إلى بارداليان بدلال ، وقالت له برفق : ماذا فعلت يا سيدي الشفاليـيـه ؟ إنه لو سقط من يـدك لمات في الحال .

– إن ذاك محال يا سيدتي .

– كيف تقول محال ، ألا ترى هذا العلو الشاهق ؟

فابتسم بارداليان وقال : إنه يقع على بطنه يا سيدتي فيثب . ألا ترينه يشبـ كرة الجلد المحشوة هواء .

وبعد ان ثاب لاندري إلى رشده عقد مع بارداليان اتفاقاً خلاصته انـ يحق له ان يقيم في تلك الغرفة الجميلة ويحق له ان يتناول طعام العشاء في الفندق على شرط ان يحميه .

وتعهد الشفاليـيه بحمايتـه ، وأقسم بشرفه . فعقد الصلح على ذلك وتم الاتفاق .

ولقد عرفنا الآن كيف ان بارداليان ، على فقره المدقع كان يقيم في أجل

غرفة من اجمل فنادق باريس .

وعرفنا كيف انه نال ذاك السيف الطويل من والده.

وكيف حصل على ذاك الكلب بعد ان فرق عنه الغلمان . وبقي علينا ان نعلم كيف فاز بذاك الجواد فنقول :

إنه خرج ليلة من إحدى الخمارات ، وقد أفرط في الشراب ، مع احد أصحابه حتى بات يشبه السكارى ، أي انه كان يترنح بمشيته ، وحسامه الطويل يقرع بلاط الشارع ، فيخرج له نغمة يطرب لها قلبه ويندفع في الغناء بملء صوته .

وقد أخذ ينشد نشيداً غرامياً كان مشهوراً في ذاك العهد . فلما أتم الفقرة الاولى منه وقف وجعل يحدث نفسه فيقول :

أحق إني أصبحت من العشاق فينطبق علي قول هذا الشاعر ...

كلا . إن ابي حذرني من النساء . . ولا بد لي من الامتثال لوصاياه الصادقة .

لكنه لم يسر خطوتين حتى عاد إلى الغناء ، فأنشد الفقرة الثانية وفيها اوصاف الحسناء التي يتغزل فيها الشاعر .

فلما أتمها وقف وقفته الاولى

وقال كلا بل إن شعرها حيات تطوق الاعناق وما رضابها غير السم النقيع واما عيناها ...

أواه إنها اذكرتني تلك اللحظات ...

لكن ابي لا يريد ان اعشق فلأحذر النساء

وعاد إلى الغناء فلم يتم الفقرة الثالثة ، حتى سمع صوت رجـــل يستغيث ويقول : الينا يا اهل النجدة !

فانقطع عن الغناء واصغى إلى الصوت فتكررت الاستغاثة وكان الصوت يشبه اصوات الشيوخ .

فقال بارداليان في نفسه : ان الصوت صادر من شارع سانت انطوان ، ويجب علي ، حسب وصية والدي ، ان اذهب في الجهة المضادة اي ان اسير إلى الفندق .

وقد عول ان يعمل بهذه الوصية .

لكنه ما لبث ان سمع الصوت قد تكرر حتى جعل يعدو بخفة الغلمان الذين يقضون اوقاتهم في تسلق الاشجار .

وكان سريع العدو فلم تمر به هنيهة حتى وصل الى شارع سانت انطوان دون ان يريد ، لانه اندفع مع تيار الفطرة ، وكان يود ان لا يخل بحرف من وصية والده .

وهناك رأى رجلين يحيط بهما اثنا عشر رجلاً من قطاع الطرق .

كان كل من الرجلين ممتطياً جواداً ، وفي يد احدهما عنان جواد ثالث خلا من فارسه .

فكان قائد هذا الجواد شيخاً متشحاً بملابس تدل على انـه من خدام البيوت العظيمة ، وهو الذي كان يصرخ ويستغيث فيقول تارة إلى النار ، وتارة إلى اللصوص

غير ان اولئك اللصوص لم يخشوا الاستغاثة ، كأنهم كانوا واثقين انه لا يجسر على إغاثة فريستهم احد ، فلم يبالوا بالشيخ وصراخه وانقضوا على الفارس الآخر .

اما ذاك الفارس فكان يدافع عن نفسه اجمل دفاع ، دون ان يفوه بكلمة ولقد اصاب اثنـين من اولئك المهاجمين بجراح بالغة ، فانقلبـا على الارض

غير ان هذا الفارس على شدته ، وحسن دفاعه ، كان قـد بدت عليه علائم الجزع ، لتكاثر الاعداء من حوله ، لانهم اجمعوا كلهم على مهاجمته مرة واحدة .

فنظر باردليان نظرة النسر الى الموقف فأدرك حرج الفارس وصاح به :
تشدد واصبر لقد اتيت لنجدتك !

ثم انقض على اللصوص انقضاض الصاعقة وجعل يعمل فيهم الضرب الاليم قبل ان يجرد حسامه المشهور ، كأنه لا يتدانى إلى تجريده على اللصوص فكانوا يزحون تحت ضرباته .

ثم كأنـه اراد ان يظهر لهم قوة بدنه الهائلة ، فهجم على اثنين من اقربهم اليه ، وامسك عنق كل منهما باحـدى يديه ، وضم كلا منهما الى الآخر بعنف شديد ، فالتطم الانف بالانف ، وسالت الدماء وعلا صياح الألم .

وبعدها القى بهما على اللصوص ، فسقطا على بعد خطوات وسقط معهما كل من اصاباه .

ثم وقف امـام الفارس ، وجرد حسامه الطويل ، بحماسة ترتجف لها القلوب .

ولا ندري أذعر اولئك اللصوص مما شاهدوا من قوة هذا الرجل أم عرفوا انه باردليان ولكنهم تراجعوا منذعرين وحملوا جرحاهم ، فلم تمر لحظة حتى لم يبق منهم واحد .

وعندها برقت أسرة الفارس ببارق من السرور وقال لباردليان : إنك والحق يقال أنقذتني من الموت

– أتعلم يا سيدي ماذا صنعت ؟

– كيف لا أعلم إنك أنقذت حياتي كما ذكرت .

– كلا يا سيدي بل إني ارتكبت جريمة .

فذهل الفارس لما سمعه وسأل : العلك تمزح ؟

– كلا ، لكني خالفت وصية والدي ، وأخشى ان أصاب بنكبة بعد هذا العصيان

– ولكنك في أي حال خدمتني أجل خدمة ، فماذا تريد ان يكون جزاؤك ؟

– لا أريد شيئاً .

– إذاً تفضل بقبول هذا الجواد على سبيل التذكار لهذه الحادثة ، وهـو خير جيادي بل هو أفضل جواد لأن اسمه يدل عليه .

– ما اسمه يا سيدي ؟

– كالور ، وهو اسم مغربي يراد به القوة .

فقال له باردليان بلهجة ملك يتفضل بقبول احترام أحد رعاياه : إني أقبل منك هذا الجواد .

ثم وثب عليه فامتطاه بخفة نادرة ، كأنه قد ربي فوق ظهور الصافنات .

أما الفارس المجهول ، فإنه أشار بيـده إلى باردليان إشارة وداع ، وانصرف .

وسار خادمه وراءه على مسافة بضعة أمتار ، فدنا منه باردليان وقال له بصوت منخفض : أتريد ان تخبرني اسم هذا الفارس الذي عصيت من أجله وصية والدي في هذه الليلة ؟

فانذهل الخادم وأجاب : دون شك .

– ما اسمه؟

– هو هنري دي مونمورانسي مارشال دامفيل

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

- ١٢ -

بيت شارع باراس

فعاد بارداليان إلى الفندق بضيف جديد ، وقد وصل بعد أغلقت أبواب الفندق . فلم يوقظ خادماً ولم يقرع باباً ، بل سار بجواده تواً إلى الاصطبل ، فوضعه في أحسن مكان منه ووضع له العلف في المعلف ، ووقف يتأمل محاسنه ويفحصه فحص العارفين بالجياد .

وكان عجبه به شديداً ، وسروره لا يوصف ، لانه كان حقيقة كما وصفه له هنري .

وفيما هو على ذلك سمع من ورائه صوت صاحب الفندق يقول : ماذا تعمل هنا يا سيدي الشفالييه ؟

والتفت بارداليـان اليه ، وقال له : إني أفحص مـا غنمته من جرية الليـلة . . .

فارتعش لاندري وسأل : العل هذا الجواد لك يا سيدي ؟

فوضع بارداليان حفنة من الشعير في المعلف وقال : ألم أخبرك اني غنمته هذه الليلة ؟

فقال صاحب الفندق وقد امتعض وجهه : أيجب علي ان أطعمه ؟

– إذاً أتريد ان يموت مثل هذا الفرس الكريم جوعاً ؟

ثم نظر إلى جواده فتأكد انه لا يعوزه شيء وحيى لاندري مودعاً ودخل

إلى الفندق وصعد إلى غرفته .

أما لاندري فانه وضع رأسه بين يديه ، ثم تمكن منه اليأس فحاول أن ينتف شعره .

لكنه لم يفز في ما أراد لانه كان أصلع ولا شعر في رأسـه الذي كان يلمع كالعاج .

أما بارداليان فانه لم ير منذ ذاك اليوم إلا راكباً ، فكان يمتطي جواده ويسير عليه معتزاً به إعتزاز الملوك يتقدمه كلبه وأنفه مرتفع في الهواء يبحث عما يأكله او يسرقه من باعة الطيور .

واما هذا الجواد الكريم فانه لم يكن يتحول عن الجهة اليمنى من الطريق مهما بذل بارداليان في سبيل رده. فكان الناس يضطرون حين مروره إلى المرور من جهة الشمال إلا من اراد منهم ان يداس .

ومما يضاف إلى ذاك انه إذا بدرت بادرة انتقاد او تذمر من احد المارة فإن سيف بارداليان كان يخرج من نفسه من الغمد .

وعلى ذلك فقد القى بارداليان وحسامه وكلبـه وجواده الرعب في قلوب سكان ذاك الشارع المقيم فيه ، وإنما نريد أهل الوقاحـة والعناد من اولئك السكان .

وإن بارداليان ، على ما عرف القراء من صفاته ، كان والحق يقـال رقيق الحاشيـة لين الجانب ، شريف الغاية لا ينـدفع في خصام إلا بغيـة الانتصار للضعيف .

واتفق له كثيراً انه كان يأتي بالفقير المتسول في قارعة الطريق فيجلسه أمامه على المائدة ويقتسم معه طعامه .

وفي مثل هذه الحوادث كان يدفع ثمن الطعام لصاحب الفندق وأما إذا كان وحده فلا يدفع شيئاً .

وقد اتفق مرة ان صاحب الفندق كان محتاجاً اليه ، فلما أراد دفع ثمن

طعام الفقير الذي جاء به أبى صاحب الفندق قبض الثمن ، فاستاء بارداليان وقال أحسب انك من عظماء الأسياد ، وهب انك الدوق دي كيز او انك الملك نفسه ، إني لا أسمح لك ان تتجاسر وتدفع ثمن ما يأكله ضيفي ، لأن ذلك وقاحة منك .

وحدث مرة انه جاء إلى الفندق مستعجلاً فدخل إلى المطبخ وأخذ دجاجة مقلية ورغيفاً وزجاجة خمر ثم دفع ريالاً وانصرف .

فعجب الطباخ لأمره واقتفى أثره فرآه دخل إلى كوخ حقير كان فيه ثلاثة من الفقراء فوضع الطعام بين أيديهم وحياهم بقبعته وانصرف دون ان يفوه بحرف .

غير انه بعد خروجه من الكوخ قال : هوذا إني خالفت وصية والدي مرة ثانية باحساني إلى الناس ، ولا أعلم ما يعد الله لي من العقاب في الآخرة .

على انه كان يشعر بضجر شديد حين تمر به أيام لا تحدث له فيها حوادث مؤثرة . فكان يسير في الشارع وعيناه شاخصتان إلى منزل حنة حتى إذا رأى لويزا زال ما كان يشعر به من الضجر ، وفرح قلبه برؤية وجهها الجميل كما كان يقول .

وقد تعودت الصبية تباعاً على نظراته فلم تعد تقفل النافذة بسرعة حين تراه ، بل جعلت تنظر اليه مثل نظراته .

وقد وقف الأمر بهما عند هذا الحد ، لان لويزا لم تكن تعرف شيئاً من أمره ، وهو لا يعرف منها إلا انها ابنة تلك السيدة التي لا تخلع الملابس السوداء حتى لقبت بها ، وكان يعرف عن الأم وابنتها انهما ترتزقان من صناعة التطريز .

وفي ذات يوم كان بارداليان ينظف ملابسه وعدته في غرفته وكان من عادة امرأة لاندري ان تقضي عنه هذه المهمة ، لكن هذه المرأة الجميلة باغتته يوماً

وهو ينظر إلى لويزا نظرات الهائمين فعادت إلى المطبخ وانقطعت منذ ذاك اليوم عن تنظيف عدته .

وكان بارداليان يشتغل بتنظيف عدته وملابسه بملء الاستياء ، لكن لم يجد بدأ من ذلك كي يروق في عيني لويزا .

وكان يقول في نفسه إني إذا لم أجد وسيلة استطيع ان اقتدي برجال البلاط في ما يلبسون فلا رجاء لي ان تحبني . وكيف اطمع بحبها وهذا الثوب لم استبدله منذ أربعة اعوام .

وعلى الجملة لقد كان بارداليان كثير السلامة والبساطة .

ولما أتم تنظيف ملابسه وسيفه ، لبسها وخرج من الفندق وهو عازم على ان يبذل كل ما عز وهان ، في سبيل الحصول على تلك الملابس التي كان يحلم بها

لكن قبل ان يخرج من الفندق أطل من النافذة ، فرأى حنة خارجة من المنزل وذاهبة إلى شارع سانت انطوان ، وفي الوقت نفسه برزت له لويزا من تلك النافذة كما يبرز القمر من خلال الغيوم ، فأرسل لها تلك القبلة بيده كما تقدم لنا ذكره .

أما لويزا فقد أحمر وجهها استحياء لكنها مع ذلك لبثت هنيهة في موقفها ثم توارت ببطء عن انظاره وابتعدت عن النافذة .

وأما بارداليان فقد خفق قلبه خفوقاً شديداً حتى شعر انه يكاد يخرج من صدره فقال في نفسه : أحقيقة ما رأيته ام خيال ؟

إنها لم تستاء لجرأتي ، ولم تقفل النافذة . وكل ذلك يحمل على الرجاء انها تحبني ، بالرغم عن حقارة ملابسي . إذاً لم يبق لي بد من مخابرة امها في الحال .

ولو اتفق لغيره من السفهاء ما اتفق له لما خطر في باله ان يسرع إلى مخابرة امها ، بل كان اول ما يخطر في باله ان يغتنم فرصة غياب الام ليذهب

وينطرح على قدمي الفتاة .

على ان بارداليان خرج من غرفته راكضاً ، ونزل درجات السلم اربعاً اربعاً .

واسرع حتى ادرك حنة وهي تنتقل من شارع سانت دينيس إلى شارع سانت انطوان في جهة الباستيل .

وكان قد اندفع في اثرها دون ترو ، فلما وصل اليها لم يجسر ان يكلمها ، فجعل يتفقد اثرها على مسافة قريبة ، حتى وصلت إلى شارع باريس ووقفت عند باب منزل فيه .

وكان هذا المنزل صغيراً ولكنه كان حسن الرواء تحيط به الحدائق الجميلة الناضرة فرآها بارداليان طرقت ذلك الباب وفتح لها فدخلت .

فوقف بقرب ذلك المنزل وهو يقول في نفسه : إنها ستخرج منه عائدة إلى منزلها فأكلمها إذ لا بد لي من محادثتها .

اما حنة فقد صعدت بها خادمة إلى الدور الأعلى من المنزل وادخلتها الى غرفة مفروشة بأجل الأثاث .

وكان في هذه الغرفة فتى جالساً بجانب صبية يحادثها فلما رأت الصبية حنة داخلة ابتسمت لها .

وقال لها الشاب : ارسمت ما اوصيتك برسمه ؟

فقالت حنة : نعم يا سيدي وهذا هو الرسم .

فسألته الصبية : ما هذا الرسم ؟

فأخذه من يد حنة وعرضه على الفتاة قائلا : انظري اليه يا ماري عله يروق لك فقد رسمته بيدي .

ونظرت اليه ماري وقالت : كيف لا يعجبني يا شارل ، وانت الذي رسمته .

ثم اخذت تفحص ذلك الرسم الجميل ، وكلما نظرت الى زهرة ظهرت

عليها علائم السرور والاعجاب ، حتى إذا انتهت من فحصه انطرحت بين ذراعيه وهي تقول انك جعلتني أسعد النساء يا حبيبي شارل فضمها إلى صدره بحنو لا يوصف .

وكانت حنة واقفة تنظر اليهما وتقول في نفسها :

ما أسعد هذين العاشقين ، وأسفاه أما كان يجب أن اكون كذلك مع من أحب ؟

أما شارل فإنه لم يكن يخطر في باله وجود حنة في ذلك المكان ، وقد سكر بنظرات ماري .

فقال لها : نعم أيتها الحبيبة ، اني لا أفتكر إلا بك من قلب اللوفر ، فاني بينما أمي تحسب اني منهمك في إبادة الهوكينوت ، وبينما أخي الدوق دي أنجو يحسب اني أفكر بأنجع الوسائل لقتله ، وبينما الدوق دي كيز يحدق في عيني ليقرأ ما كتب له في لوح المقدور ...

بينما جميع هؤلاء يفتكرون بما أنا براء منه ، أفكر أنا بأني أحبك ، وحدك ، لأني لا أجد غير ماري توشيت ، من تحبني حباً صادقاً في هذا الوجود .

وكانت ماري تسمع كلام من تحب وقد سكرت ايضاً باخلاصه الصحيح وحبه الأكيد ..

فقالت له : أشكرك ، يا صاحب الجلالة ، فقد جعلتني أسعد من ربات العروش .

فارتعشت حنة حين سمعتها وقالت في نفسها : شارل .. صاحب الجلالة .. ملك فرنسا .

ثم اهتزت اهتزازاً عنيفاً حين رأت نفسها واقفة بحضرة شارل التاسع ، الذي طالما خطر لها أن تذهب اليه وتسأله العدل ، ليس من أجلها ، بل من أجل ابنتها .

وعند ذلك تقدمت خطوة كأنها تريد أن تبدأ الشكوى.
غير ان الملك لم يدع لها مجالاً فانه أبعد عنه حبيبته برفق.

وقال لها: دعي الجلالة والألقاب، يا ماري، فما أنا هنا غير محبك شارل الطاهر القلب، لأني لم أسمع هذا الوصف إلا من فمك الجميل وهو لي أعظم سلوى.

ما أنا بملك أيتها الحبيبة، وما أنا إلا رجل منكود تكرهه أمه، ويبغضه اخوانه...

اني لا أجسر أن آكل في اللوفر وأخاف ان اتنشق الهواء الذي يهب عليه، فلا أجسر على مناولة الطعام والشراب، إلا عندك أيتها الحبيبة، ومن يدك..

بل اني لا أجسر على استنشاق الهواء بملء رئتي إلا حين أكون بقربك، فأنظري إلى قلبي، كيف يخفق خفوق أجنحة الطائر، حين افتكر بهؤلاء الناس.

فخافت عليه ماري عاقبة التأثير فقالت له: كفى يا شارل... سكن روعك..

ولكن الملك اندفع في تأثره فاتقدت عيناه، واصفر وجهه، واضطربت أعصابه. فقال لها:

– لقد طالما قلت لك إنهم يريدون موتي.. ماري انقذيني.. خبئيني عندك.. اني قرأت بين عيونهم سور الموت، ورأيت الحكم بقتلي مكتوباً في ضمائرهم بحروف من نار

فاضطربت ماري لما رأته من اندفاعه وقالت له:

بالله يا شارل كفى واشفق على نفسك فأن النوبة العصبية عائدة اليك.. انك عندي الآن.. انك بقرب ماري.

فدفع الملك ماري عنه وقد فاجأته النوبة وكانت هائلة فانه قبض بأحدى

يديه على الكرسي وضغط عليها حتى كاد يسحقها.

وسال العرق البارد من وجهه وجحظت عيناه والتهبتا فجعل ينظر بهما إلى اشخاص تمثلهم له النوبة، ثم ضحك ضحكاً عالياً وقال:

ويح لأولئك الأشقياء انهم يبحثون عن طريقة لقتلي وينظرون في من يخلفني على العرش.

أهو أنت يا دي كيز الجهنمي، ام أنت يا انجو وبابيران:

ويح للقتلة السفاكين انهم جميعهم يتآمرون علي..

ومن هؤلاء الذين يتقدمون إلي في جنح الظلام، ومن هذا الذي يتولى زعامتهم، أهو كوليني؟

يا ويحكم سترون عاقبة غروركم.. إلي ايها الجيوش.. اقبضوا على جميع هؤلاء اللصوص واذبحوهم أمامي ذبح الأغنام..

رباه انهم يقتلونني.. إلي إلي. النجدة النجدة.

وقد ختم هذا القول بضحك عصبي ترتجف له القلوب ثم انطرح بين ذراعي ماري وقد استفحل أمر النوبة ولم يعد يعي على شيء.

فاسرعت حنة لمساعدة ماري.

فقالت لها ماري: استحلفك بالله يا سيدتي ان لا تذكري كلمة مما رأيته وسمعته رحمة بهذا الملك المنكود.

– اطمأني يا سيدتي فاني اعرف مصائب البشر حق العرفان وان المصائب لا تأنف من البلوغ الى اصحاب التيجان. فاطمأني يا سيدتي واعلمي ان مثل هذه المصائب علمتني الكتمان.

فشكرتها ماري الطف شكر.

فقالت لها حنة، ألا تريدين يا سيدتي أن اعينك في شيء؟

فشكرتها أيضاً وقالت: لا حاجة إلى ذلك فانه سيصحو من نفسه ولا

يسكن روعه غير وجوده بين ذراعي كما ترينه .

– إذاً يجب أن اذهب قبل أن يستفيق كي لا يعلم انه ارتكب ما ارتكبه من الضعف امام شاهد .

فشكرتها ماري أجمل شكر ، وودعتها حنة وخرجت واليأس ملء قلبها فانها ضحت خير فرصة تتمكن فيها من عرض شكيتها على الملك .

ولم تكد تبرح ذلك المنزل ، حتى فتح شارل التاسع عينيه فمسح وجهه بيده ، ونظر نظراً مضطرباً إلى ما حوله ، فلما رأى ماري اطمأن وابتسم ابتسامة حزن .

قال : لا تزال النوبة تعاودني حتى تذهب بحياتي .

– اطمئن أيها الحبيب فقد زالت اعراضها أتم الزوال وهي أخف مما كانت عليه في المرة السابقة .

– لقد كان يوجد هنا امرأة وهي عاملة التطريز ، فاين هي ؟

– انها انصرفت منذ حين .

– أذهبت قبل النوبة .

– نعم ، ولم ترى شيئاً مما حدث ، فاستند علي أيها الحبيب واشرب جرعة من هذا الأكسير فانه يقويك .

ثم جلست وأجلسته بقربها فكان يطيعها كالطفل .

وبعد أن سقته الدواء ، وضعت رأسه على صدرها ، فساد السكوت في ذلك المنزل ، لأن ملك فرنسا كان قد انهكه التعب ، فنـام متكئاً على صدر من يحب ، وهو مطمئن واثق ان هذا الملاك يحميه مدة رقاده من كيد الأعداء .

* * *

ولا بد لنا قبل ختام هذا الفصل من وصف الملك ومعشوقته في ذلك الحين فقد كان الملك متوسط القامة نحيل الجسم يبدو الاصفرار على وجهه وتدل عيناه على الاضطراب .

وهو يبسم عادة ابتسامات تدل على الشر ، ولكنه حين كان يبسم لماري كانت تظهر عليه دلائل الاخلاص الأكيد .

وعلى الجملة فإن هيئته كانت تدل على انه مصاب بمرض عصبي عضال ، فانه كان يضحك أحياناً دون سبب ضحكاً هائلاً يحمل على الاشفاق وهو لم يتجاوز بعد العشرين من العمر .

أما المرأة فقد كانت تزيده بثلاثة او أربعة أعوام ، وهي شقراء الشعر زرقاء العينين جميلة ، ولكن جمالها عادي لا يدعو الى الاعجاب ، غير أن عينيهـا كانتا تدلان على حنو عجيب ، إذا نظرت بها إلى الملك سحرته . وعلى الجملة فإن كل ما فيها يدل على الحنو والخلوص .

وهذا الذي حمل الملك على التفاني في غرامها والركون اليها ، حتى باتت مستودع أسراره ، وبات منزلها مأواه الذي يلجأ اليه حين يريد الأكل أو الشرب أو النوم ، فانه كان يخشى مكائد أهله في كل حين ولا يجسر أن يتبلغ في اللوفر بقوت .

وحده قاضيه
منتدى
ليلاس

- ١٣ -

صوت الشعب صوت الله

أما بارداليان فإنه كان لا يزال واقفاً خارج المنزل ينتظر أن تعود حنة فيكلمها ، إذ عزم كل العزم على محادثتها ، ولكن ماذا يقول لها ؟

أيقول لها انه يحب ابنتها وانه يريد أن يتزوجها ، ربما كان هذا مراده ، فهو نفسه لم يكن يعلم ما يجب أن يقول ولكن أقصى أمانيه أن يتقرب من الفتاة وأمها

وقد كان أعد الخطاب الذي أراد أن يلقيه عليها ، فلمـا رآها خرجت من المنزل ، وتقدمت الى الجهة التي كان فيها اضطرب قلبه وتلجلج لسانه . فلما مرت به نسي بدء ذلك الخطاب الجميل الذي كان أعده ، ووقف وقوف البله ، ولم يجسر على أن يقول كلمة ، واكتفى بأن رفع قبعته وحياها بملء الاحترام .

وبعد أن سارت أمامه وثاب اليـه رشده ، ذكر الفقرة الأولى التي كان نسيها من خطابه ، فجد في أثرها وهو يرجو ان يتوفق إلى محادثتها في شارع سانت دينيس .

ولم يخطر لهذا الساذج الفطرة ان خير وسيلة في مثل هذه المواقف أن يزور الأم في منزلها ، ويخبرها بما يريد ، فإن البنـات لا يخطبونهن في الشوارع ، ولكن ذلك لم يخطر في باله ، وقد ارتأى ان يكلمها فوجد رأيه

لباب الصواب .

ولبث سائراً في أثرها ، وهو على قيد عشرين خطوة منها إلى أن وصل إلى شارع سانت أنطوان ، فرأى ان باريس قد تغيرت واضطربت كما يضطرب البحر حين العاصفة .

وقد رأى الناس أفواجاً مختلطين يزحم بعضهم بعضاً وهم سائرون الى اللوفر وقد غصت بهم الطريق حتى لم يبق سبيل المرور .

فقال بارداليان في نفسه : ما عسى أن يكون قد حدث ؟

وشغل بمراقبة الناس .

ثم التفت فوجد ان حنة قد توارت عن أنظاره ولم يبق سبيل إلى ادراكها لكثرة الزحام ، فسار مع الشعب السائر وهو لا يعلم أين يسير ، فكان كالخشبة العائمة تندفع مع التيار .

وكان يرى أمامه ثلاثة رجال ضخام الأجسام يسيرون متعاقدي الأيدي في طليعة الناس ، ولهم رقاب كرقاب الثيران ، وعيون يكاد يقطر منهـا الدم ، فكان الناس يسيرون في أثرهم ويصيحون : ليحيى كرفيه .. ليحيى ليزو .. ليحيى كيرمي !

فسأل بارداليان رجلاً بقربه : من هم هؤلاء الأفيال ؟

فنظر الرجل نظرة إزدراء إلى بارداليان ولكنه ما لبث ان رأى سيفه الطويل حتى لطف لهجته وأجـاب : كيف يا سيدي ألا تعرف كيرمي الجوهري وبيزو الجزار وكرفيه الكتبي ؟

- أرجو يا سيدي ان تعذرني فإني قادم من الريف ، فهل هم هؤلاء الثلاثة الذين يهتفون لهم ..

- نعم ، وهم أصحاب الدوق دي كيز

- إن صداقتهم شرف عظيم لسيدي الدوق .

- دون شك فإنهم المدافعون عن الديانة المقدسة .

أجابه بارداليان ببرود قائلا : أية ديانة تعني يا سيدي ؟

– ديانتنا ... أي ديانة البابا والملكة ، والدوق دي كيز ، بل ديانة الشعب ..

– إذا كانت ديانة جميع الناس ، فهي ديانتي أيضاً ، فماذا تريد هذه الديانة ؟

– إصغ تعلم ما تريد ...

وكان بارداليان قد وصل في هذا الحين إلى الجسر الخشبي ، وهناك اشتد الزحام ، وزاد تجمهر الناس ، وكثر الهتاف للدوق دي كيز ، وجعل الجميع يصيحون بصوت واحد : ليمت الهوكينوت . ليمت البروتستانت !

فقال له الرجل : أسمعت ما يصيح به الشعب ؟ ان صوت الشعب يا سيدي صوت الله ..

– إذاً .. هو الله الذي يصيح الآن ليمت البروتستانت ؟

– بلا ريب ، فهو الذي أوحى الى الدوق دي كيز ان يهيج الشعب على هذه الطائفة المبتدعة .

وقد قدم اليوم هذا الدوق العظيم إلى باريس وسيمر بهذا المكان حين ذهابه إلى اللوفر ، فليحيى الدوق دي كيز ، ولتمت ملكة نافار !

وعند ذلك دخل كثير من الناس بين باردليان ومحدثه واصطفت الجماهير على جانبي الطريق لقرب وصول الدوق .

وكان بارداليان واقفاً عند مدخل الجسر وعلى يساره منزل قديم متداع إلى السقوط ، يظهر انه مهجوراً ، لأن جميع نوافذه كانت مقفلة في حين ان نوافذ البيوت المجاورة وسقوفها كانت غاصة بالناس .

وكان مقابل هذا المنزل الخرب منزل أقفلت نوافذه أيضاً ما خلا نافذة كانت مفتوحة ، فرأى من خلالها وجه امرأة كانت عيناها ترسلان نظرات نارية إلى تلك الجماهير التي كانت تصيح ليمت البروتستانت .

ولم يكن في ذلك العهد ، أحد من اهل تلك الطائفة في باريس ، وإذا اتفق وجود أحد منهم ، فقد كان مختبئاً دون شك ، وفوق ذلك فإن معاهدة الصلح متى أمضيت في سانت جرمين كانت تضمن الراحة والأمن في العاصمة .

إذاً لا بد أن يكون لهذا التجمهر سبب غير الهياج على الهوكينوت ، ولا بد للدافعين اليه مأرب آخر .

وقد رأى بارداليان ان الجزار والجوهري والكتبي ، جعلوا يمرون بالعصابات المجتمعة ويسرون اليهم كلاماً خاصاً ، فجعلوا يصيحون لتمت ملكة النافار .. لتلقى في المياه .

اما اولئك الزعماء الثلاثة ، فإنهم وقفوا في الجهة اليسرى من الجسر قرب بارداليان .

فقال بارداليان في نفسه : يظهر ان هذا اليوم يوم الغرائب .

وفيما هو ينظر الى الزعماء الثلاثة وهو معجب بتحمسهم رأى احدهم وهو ينظر إلى تلك النافذة التي خيل لبارداليان انه رأى منها وجه امرأة ، فرأى رجلا مختبئاً وراء النافذة تبودلت إشارة سرية سريعة بينه وبين الزعيم ، ثم توارى عن الأنظار .

* * *

ولندخل الآن إلى ذلك المنزل لنعلم من كان فيه . فقد كان في تلك الغرفة المطلة على الشارع امرأة هزيلة متشحة بملابس السواد ، لها انف كأنف العقاب وشفتان متلاصقتان ، ونظرات نافذة كنظرات النسر وهي جالسة على كرسي كبير .

وهذه المرأة هي كاترين دي مديسيس ، ارملة هنري الثاني ، ووالدة

شارل التاسع .

وكان بالقرب منها رجل لا يزال من اهل الشباب ، وهو وافر الجمال ، وهذا الرجل يدعى ريجياري الفلكي .

وقد كان واقفاً بقربها من غير كلفة كأنهما صديقان ، إذ لم يكن يبدي لها شيئاً من واجبات الاحترام التي تعودها الملوك من الرعية .

فضربت كاترين الأرض برجلها وقد ظهرت عليها علائم الجزع .
فابتسم لها ريجياري وقال لها :

– صبراً ايتها العزيزة .

– أأنت واثق انها في باريس ؟

– كل الثقة ، فإن ملكة النافار جاءت امس ودخلت سراً الى باريس ، وهي لا بد قادمة لشأن خطير .

– ولكن كيف عرفت ذلك ؟

– من الجاسوسة التي عيناها في خدمتها .

– اليس دي ليكس ؟

– هي بعينها ، وهي والحق يقال من اذكى الجواسيس .

– أأنت واثق ان ملكة النافار ستمر بهذا الجسر ؟

– دون شك ، ولولا ذلك لما استنجدت بالكتبي والجزار والجوهري ، اتظنين اني فعلت ذلك ليهتف الشعب للدوق دي كيز ؟ صبراً يا كاترين سوف ترين ..

فضمت كاترين يديها وقالت :

– ان كرهي لهذه المرأة لا يقف عند حد ..
إن الدوق دي كيز لا ابالي به فهو في قبضة يدي أعبث به كما اشاء وحين اشاء ، اما ملكة النافار فهي العدو اللدود الشديد فإذا ظفرت بها خنقتها بيدي .

– لا تغمسي ايتها الحبيبة يدك الجميلة بالدم ، ودعي هذه المهمة للشعب فهو سيتولى قضاءها عنك .
قسماً بزحل والمريخ ان المشهد سيكون فخيماً يستحق عناء الفرجة .

وعند ذلك سمعا ضجيج الشعب فدنت كاترين مع الفلكي من النافذة وجعلت تنظر وقد اصطكت اسنانها واتقدت عيناها بلهب الانتقام .

وبعد ان تطلعت قالت

– اني لا ارى غير هنري دى كيز .

– انظري هناك في آخر الجسر الا ترين مركبة قادمة يخفرها الحراس ؟

– نعم ، نعم ..

– إن هذه المركبة لم تعد تستطيع الرجوع فقد طوقها الشعب .
اصبري هنيهة إلى ان تصل، وسترين ان كرهي يعرف لأول نظرة ملكة النافار .

وكان هنري دي كيز يسير فوق الجسر ومعه نحو ثلاثين فارساً ، وهو يحيي الهاتفين له باليد والابتسام فيعيدون الهتاف قائلين : لتحيى الكنيسة وليسقط البروتستانت !

وكان مشهد هؤلاء الفرسان فخيماً ، فإنهم كانوا ممتطين افخر الجياد . والحجارة الكريمة تلمع ، وتزيدها اشعة الشمس بريقاً فوق ثيابهم الحريرية ..

ولكن هيئة رئيسهم هنري كان اشد فخامة ، فقد كان في العشرين من عمره ، وهو عالي القامة ، قوي البنية شديد الانفة والكبرياء ، وقد اتشح بوشاح من الحرير الأزرق وبرقت اللآلىء والجواهر على قبعته فانعكست اشعتها على ملابسه الزرقاء ، فكان الناس يصيحون حين يمر بهم : ليحيى الدوق كيز !

والملكة تنظر اليه وتضم قبضتها بعنف ، حتى تكاد تدخل اظافرها

في جلدها من الحقد .

كل ذلك يجري وملك فرنسا نائم في منزل خليلته ماري توشيت لا يعلم شيئاً مما تكيده امه ، ومما يعمله الدوق دي كيز .

أما الدوق دي كيز فقد اجتاز الجسر مع حراسه ، فلما بلغوا إلى آخره اضطروا إلى الوقوف لكثرة الزحام .

وعند ذلك كثر الصياح من ورائهم ، وكان صياحاً مخيفاً حتى خشي الدوق على نفسه فوضع يده على قبضة خنجره .

ولكنه أيقن انهم لا يريدون به شراً .

وبدأ عندئذ ذلك الحادث الرهيب ، الذي كان يراه الدوق وام الملك وصديقها الفلكي .

وهو أن مركبة كانت تسير على ذلك الجسر فبلغت المنزل القديم الذي كان واقفاً بالقرب منه الزعماء الثلاثة وباردالیان .

وكانت المركبة بسيطة الظاهر ونوافذها محكمة الاقفال .

فلما وصلت الى ذلك المنزل فتحت نافذة المركبة لحظة ، ولكن هذه اللحظة كانت كافية ، فهاج الزعماء هياج الضواري وصاحوا قائلين : هوذا حنة دي البريت ملكة النافار !

ليمت البروتستانت ، لتمت ملكة النافار !

فهجم الشعب هجمة واحدة على المركبة فقلبوها وصاحوا قائلين: اطرحوا عدوة الدين في النهر ..

لتمت ملكة النافار !

وقبل ان تسقط المركبة وثبت منها امرأتان إلى الأرض ، فقالت احداهما وهي الأصغر سناً : رحماكم اشفقوا على جلالتها .

ولكن هيأتها لم تكن تدل على انها خائفة من هذا الموقف الخطر .

فأشار الزعماء الثلاثة إلى الملكة وقالوا : هذه هي . هذه هي !

أما الملكة فإنها وضعت برقعها على وجهها بملء الجلال ومشت إلى ذلك البيت الخرب كأنما قوة خفية تدفعها اليه .

فارتفعت الأصوات حتى طبقت عنان الفضاء ومدت الأيدي إلى الملكة ، فلو أدركتها لمزقتها .

وفي ذلك الحين كانت كاترين أم الملك والفلكي في النافذة ، والدوق دي كيز فوق جواده ينظرون إلى هذا الحادث الهائل ، وهو هجوم الف رجل على امرأة هجوم الوحوش المفترسة .

ولكن تلك الأيدى لم تصل الى الملكة فإن رجلاً اخترق هذه الجموع وجعل يفرقهم بيديه ورجليه ورأسه وكوعيه ، كأنه القضاء المنزل ، فلا يسمع من حوله غير التألم ، ولم تمر هنيهة حتى تمكن من جعل فسحة خالية بين باب المنزل الذي كانت المرأتان واقفتين عنده ، وبين جمهور الثائرين وزعمائهم الثلاثة .

وعند ذلك جرد حسامه الطويل وجعل يفتك به اولئك المتحمسين فيعودون عنه والذعر ملء قلوبهم ، ثم يعودون إلى ما كانوا عليه من الهجوم ويعود إلى ما كان عليه من القتل .

أما كاترين فإنها أعجبت بهذا الباسل ، بقدر ما خافت منه على نجاة ملكة النافار ، فقالت للفلكي : يجب إما أن يكون هذا الفتى لي أو يموت .

فأجابها الفلكي : لقد خطر لي ما خطر لك فاني لم أجد أشد منه إقداما ولا أنفذ حساماً إلى القلوب .

وقال الدوق دي كيز لأحد أخصائه : يجب أن أعرف هذا الرجل الذي ينقض انقضاض الصاعقة ولا يحفل بالموت

أما هذا الباسل الذي أرادت أم الملك أن يكون من رجالها ، وهذ البطل الذي أراد أن يعرفه الدوق دي كيز ، فقد كان الشفاليي باردالیان .

وكان باردليان حين رأى الزعماء ورجالهم هجموا على المركبة ورأى ان فيها إمرأتين حاول الهجوم .

فتعلق به ذلك الرجل الذي كان يحادثه وقال له دعهم يفعلوا واذكر ما قلته لك وهو ان صوت الشعب من صوت الله .

فدفعه باردليان فانقلب الرجل يهوي الى الأرض وهو يقول : ما هذا بشراً ، إن هذا إلا شيطان رجيم .

- ١٤ -

ملكة نافار

فلم تمر نصف دقيقة حتى كانت الجماهير محدقة بباردليان تنذر وتتوعد وهو لا يفوه بكلمة بل ينيب عنه حسامه الطويل بالجواب .

على أن ذلك لا يمكن أن يكون ، فإن أولئك المتحمسين كانوا يعدون بالمئات وهو واحد فرد فأيقن أنهم سيسحقونه سحق الزجاج في أقرب حين .

وعند ذلك ضرب بحسامه أحد الهاجمين عليه ضربة أوقعت الرعب في قلوب سواه والتفت إلى المرأتين فقال لهما : تأهبا .

ثم هجم على باب المنزل الخرب ورفسه برجله رفسة قوضت أركانه ، ولكنه لم يفتح .

فعلم الهائجون غرضه وهجم عليه نحو خمسة منهم ، فلم تكن إلا لحظة حتى سقط اثنان يتخضبان بدمهما فشغل بهما الآخرون .

وعاد باردليان إلى الباب فرفسه برجله أيضاً رفسة شديدة فانكسر وفتح .

فقالت الملكة لرفيقتها تعالي معي يا اليس ، ثم ولجتا ذلك الباب وتبعهما باردليان .

أما الشعب فلما رأى أن فريسته قد هربت منه ، زأر زئير الضواري ودوت أصواته في الفضاء دوي الرعود حتى اهتز المنزل الخرب ، وأوشك أن يتهدم واختفى الزعماء الثلاثة بين الناس الثائرين فكانوا يشبهون الجيش حين هجومه .

حتى إذا وصلوا إلى ذلك الباب وبعضهم يسير فوق بعض ، رأوه قد أقفل من الداخل فوقفوا عنده كأنهم يتشاورون فيما يجب أن يصنعوه .

وذلك انه بعد أن دخلت الملكة ، ووصيفتها إلى ذلك المنزل جعل باردليان يضرب بحسامه يمنة ويسرة كيفما اتفق ، وكل ضربة يخر لها صريع أو يئن لها جريح حتى إذا رأى القوم قد دعروا منه وارتدوا عنه وثب إلى المنزل ورفع الباب الساقط ، فرده إلى موضعه وجعل ينظر إلى ما حواليه نظرات تتأجج ناراً .

وكان هذا المنزل منزل نجار وفيه كثير من الألواح الغليظة ، فأخذ منها خمسة ألواح ودعم بها الباب بحيث أمن اغتصابه إلى حين .

وكان أول كلمة قالتها الملكة انها سألته : من أية ملة أنت يا سيدي ؟

– أن مذهبي الان يا سيدتي أن اصون حياتك من الخطر .

فنظرت اليه الملكة نظرة اعجاب يستحقها ، فقد كان ممزق الملابس دامي اليدين والوجه ، وهو لا ينفك عن الابتسام فكان في تلك اللحظة جميلاً يشرق وجهه بنور البشر على ما هو فيه من الخطر ، وتبدو بين عينيه علائم الجرأة النادرة فتزيده جمالاً .

ثم قالت له الملكة : انه إذا كان قد قضي علينا بالموت فاريد قبل موتي أن اشكرك وأقول لك اني في ساعة موتي لقيت أعظم بطل نبيل لا يدانيه أحد

فقال لها باردليان : اننا لم نمت بعد يا سيدتي ، ولا يزال لدينا ثلاثة دقائق فان المهاجين لا يكسرون الباب ولا يصلون الينا قبل هـذا الزمن ، فاصبري يا سيدتي علنا ننجو .

ثم فحص المكان الذي هم فيه بنظرة فرآه قاعة متسعة فيهـا كل آلات النجارة ، وقد اسند سقف هذه القاعة على ثلاثة اعمدة من الخشب .

وهذه الاعمدة تخترق أرض القاعة وتنفذ منها إلى الاقبية .

فمشى باردليان في تلك القاعة مسرعاً فاحصاً، فوجد في آخرها منفذاً إلى القبو الكائن تحتها .

وعند ذلك نادى المرأتين فاسرعتا اليه فقال لهما : انزلا إلى القبو

فقالت له الملكة : وأنت ؟

– بالله يا سيدتي امتثلي ولا تسأليني الان شيئاً ، فان الموقف حرج والمقام ضيق .

فامتثلت الملكة ونزلت على سلم القبو تتبعها وصيفتها ، وفحصت ذلك القبو الكائن تحت القاعة ، فسمعت هدير الأمواج وعلمت ان هذا المنزل مبني على أوتاد قائمة في الماء .

فاستبشرت وجعلت تبحث عن المنفذ المؤدي إلى النهر وهي تسمع فوق رأسها أصواتاً انسانية تشبه قصف الرعود ولا تفهم منها غير كلمة الموت .

ولم يكن قد مضى على دخولها إلى المنزل اكثر من دقيقة فأصغت كي تعلم من أين مصدر الأصوات ، فسمعت صوتاً يشبه صوت المنشار حين النشر .

ولكن ذلك لم يطـل فان اصوات الثائرين تغلبت على صوت النشر فلم تعد تسمعه .

وعادت إلى البحث عن المنفذ وقد استنار فكرها في هذا الموقف الرهيب، موقف الموت الأكيد .

فبينما هي سائرة عثرت رجلها بحلقة من الحديد ، فمدت يدها اليها وانتزعتها بقوة ضاعفها اليأس ففتح باب خشبي ، فرأت منه وهي تتنهد تنهد المنفرج بعد ضيق ، سلماً من الخشب ينتهي إلى نهر السين ، ورأت قارباً عند أسفل السلم .

ففرحت فرحاً عظيماً وأسرعت إلى باب القبو تنادي باردليان .

فسمع باردليان نداءهـا وقال لها : لبيك يا سيدتي فاننا إذا متنا الان يموت معنا كثيرون .

ثم ظهر لها عند أعلى السلم وفي يديه حبل غليظ وهو يشد به شداً عنيفاً حتى ان عروق صدغيه كادت تنفجر .

وفي هـذه اللحظة كان الهائجون قد كسروا الباب ودخلوا إلى المنزل جماعات وهم يصيحون : إلى الموت !

وفي هذه اللحظة أيضاً بذل باردليان آخر مـا لديه من قوته الهائلة في شد الحبـل ، فسمع صوت عظيم هائل يشبه صوت الصاعقة المنقضة تلته أصوات مختلفة .

ذلك ان سقف هذا المنزل قد سقط على أولئك المهاجين ، فقتل وجرح منهم مئات وعلت أصوات التألم والذعر .

ثم خفتت الأصوات وساد السكوت سكوت الموت ، فان باردليان كان قد نشر الدعائم الخشبية القائم عليها السقف وانتزعها بذلك الحبل فسقط السقف على المهاجين .

وعند ذلك وثب من منفذ القاعة إلى القبو دون أن يصاب بأذى ، فوقع عند قدمي الملكة .

أما الملكة فقد ذعرت ذعراً شديداً دون أن تعلم مـا حدث ، فأنهضت باردليان ودلته بيدها على النهر والسلم والقارب .

فأسرع الثلاثة بالنزول وبعد هنيهة كان القارب يسير بهم إلى جهة اللوفر

والناس يعتقدون انهم هلكوا مع الذين سقط عليهم المنزل .

وبعد خمس دقائق وصلوا إلى الشاطىء وصعدوا اليه ، فوقف باردليان يبتسم ويده على سيفه وقوف من رافق هـذه السيدة في نزهة وهو يلتمس الاذن بالانصراف .

فقالت له الملكة بسكينة لم تفارقها من ساعة الخطر إلى ساعة السلامة :

إني يا سيدي ملكة النافار ، فمن أنت ؟

– إني أدعى يا سيدتي الشفاليه دي باردليان .

– إنك يا سيدي خدمت أسرة بوربون خدمة جليلة لا تنساها مدى الحياة وتحفظها لك في صفحات تاريخها .

فأبدى باردليان إشارة كأنه يريد أن يتنصل من هذا الشكر فقالت له :

لا تتنصل من فضل ما فعلت يا سيدي الشفاليه ولا سيما أمامي .

فأجابها ببساطته المعروفة : لا أتنصل يا سيدتي من شيء فعلته أمام أحد ، ولا أنكر اني خدمت جلالتك خدمة جليلة إذ أنقذت حياتها من أشد الأخطار .

غير إني حين أقدمت على انقاذك لم أكن أعلم أنك من أصحاب التيجان ، بل فعلت ما فعلته بغية انقاذ امرأتين كانتا في خطر .

فأعجبت ملكة النافار ببسالة باردليان وبساطته ، وهي التي طالما أثارت الحروب وأدارت رحاها كأشهر القواد ، وهي التي خاضت معارك السياسة فأرهبت أهل الحنكة والتدبير .

فلما أجابها باردليان هـذا الجواب ، نظرت اليه نظرة اعجاب لم تحاول اخفاءها وقالت له : انك إذا شئت أن تتبعني إلى معسكر ولدي ضمنت لك الثروة والمجد .

فارتعش باردليان لذكر الثروة والمجد ، وفي الوقت نفسه تمثلت له

جارته الحسناء بشعرها الجميل ولحاظها الفتانة ، فانقبضت نفسه حين افتكر انه سيبرح باريس .

ووقف في شر موقف بين أن يترك تلك الغادة وهي عنده خير من كل ثروة ، وبين أن يترك تلك الثروة التي عرضت له اتفاقاً ، وهي كل ما كان يسعى اليه في هذا الوجود .

ولكن الغرام تغلب على نفسه فأجاب الملكة قائلاً : ألتمس من جلالة الملكة أن تتفضل بقبول امتناني ، فإني عزمت على أن أبحث عن الثروة والمجد في باريس .

– لا بأس فليكن ما تريد غير انه إذا أراد أحد أتباعي أن يراك فأين يجدك .

– في فندق دافنيير في شارع سانت دانيس .

فأومأت الملكة برأسها والتفتت إلى رفيقتها .

وكانت هذه الرفيقة والوصيفة بارعة الجمال رشيقة الحركات ، وكانت علائم القلق بادية عليها في تلك الساعة تنظر إلى الملكة نظرات سريعة كانت أقرب إلى الدلالة على الخوف .

فقالت لها الملكة : لقد ارتكبت يا اليس خطأ فادحاً بأن جعلت المركبة تمر فوق الجسر .

فأجابتها الفتاة بثبات : لقد توهمت ان الطريق آمنة .

– ولقد أخطأت أيضاً بفتح نافذة المركبة .

فضعف ثبات الفتاة وقالت : لا أنكر ان ذلك كان مني على سبيل الفضول.

– ولقد أخطأت أيضاً يا اليس بأن ذكرت اسمي بصوت مرتفع أمام الجمهور الهائج وأنت تعلمين انهم أعدائي .

فاضطربت الفتاة عند ذلك اضطراباً شديداً وقالت : لقد طاش رأسي في

تلك الساعة ، فلم أعلم ماذا اصنع وانطلق لساني بما لا أريد .

فنظرت الملكة اليها نظرة منكرة ثم قالت لها بعد صمت قليل : إني لا اقصد توبيخك يا ابنتي ، ولكن لو أراد عدو تسليمي لما فعل أكثر مما فعلت فاعتبري بما بدر منك ولا تعودي إلى هذا الطيش .

وعادت إلى مخاطبة باردليان فقالت له : اني أود يا حضرة الشفالييه أن أعهد اليك بمهمة أخرى .

– تفضلي يا سيدتي ومري بما تشائين .

– أشكرك الشكر الجزيل ، والذي أريده منك أن تقفو خطواتنا على مسافة قريبة حتى نصل إلى حيث نحن ذاهبان ، فإني بحماية بطل مثلك لا أخاف أن أمر بين جيش .

فشكرها باردليان لثنائها عليه وثقتها به ، ثم تنهد وقال في نفسه : أية خسارة أبلغ من عدم استطاعتي مبارحة باريس لتعلق قلبي بالغرام ... لقد صدق أبي حين أوصاني بالحذر من النساء ، وما كان إلا من الصادقين .

وها أنا الان عالق بهوى جارتي أضيع مثل هذه الفرصة النادرة في سبيل هذا الغرام .

ثم نظر الى ملابسه الممزقة الخلقة فتنهد أيضاً وقال .

اني برحت منزلي وفي نيتي أن أعود اليه بأجمل لباس ، وها أنا سأعود اليه بنفس ملابسي ، وستعمل الابرة كل الليل بترقيعها بعد أن عمل سيفي طول النهار بتمزيق الجلود .

وكان باردليان يحدث نفسه بمثل هذه الأقوال وهو يتبع الملكة على قيد عشر خطوات ويده على قبضة حسامه ، والملكة تتوغل مسرعة مع وصيفتها في شوارع باريس .

وقد بدأ الجوع ينهش معدة باردليان فانه لم يأكل حين خروجه من الفندق لانشغاله في لحاق أم لويزا .

وبعد أن طافت الملكة كثيراً من الشوارع وقفت عند باب منزل في شارع فامبل وأشارت الى اليس أن تطرق الباب .

فامتثلت اليس وفتح البـاب للفور ، فدخلت الملكة وأشارت إلى باردليان يتبعها .

وقالت له : انه يحق لك الان يا حضرة الشفالييه أن تقف على أعمالي فادخل معي .

فانحنى باردليان وقال : لا يحق لي يا سيدتي إلا أن أكون عبداً مطيعاً في تنفيذ أوامر جلالتك .

ودخل الثلاثة إلى المنزل فاقفل الباب على أثر دخولهم واستقبلهم رجل عجوز طويل اللحية بيضت شعره السنون ، فأجلسهم حول مائدة ونظر الى الملكة فابتسم .

– أهذا أنت يا سيدتي ؟ اني لم أرك منذ ثلاثة أعوام ، ولكن اسمك مطبوع في صندوقي ..

فأجابته الملكة بجفاء : نعم فاني أدعى مدام لارو .

– هو ذاك يا سيدتي فقد كدت الفظه لو لم تسبقيني اليه .

فهل لك أيضاً ما تبيعينني اياه من عقود اللؤلؤ وحجارة الماس ؟

وكان في يد الملكة كيس من الجلد فوضعته على المائدة وفتحته واخرجت ما فيه من الجوهرات فبدرته على المائدة دون انتظام .

فاتقدت عينا اسحق العجوز ومد يده الى قطع الماس والياقوت والزمرد وغيرها من الحجارة الكريمة التي كانت تتوهج فتبزغ باجتماعها انوار مختلفة .

واما باردليان فانه حين رأى هذه الجوهرات وهي موضوعة بعضها على بعض فوق المائدة ، منها مجتمع ومنها متفرق .

ثم لما رأى نفسه واقفاً أمام هذه الثروة الشعرية ينظر إلى أنوارها الزرقاء والحمراء والخضراء كأنهـا خارجة من اتون سحري حدق بعينيه كأنه غير

مصدق ما يراه .

ثم طار بالخيال الى من يحب فتصور ان هذا الكنز له ، وانه باع احدى جواهره ، فاشترى خير الملابس ورصع قبعته ببعضها ، وذهب يختال تحت نوافذ لويزا وهو يرى انه ملك الدنيا .

ولكن هذا الحلم لم يطل فانه نظر الى ملابسه الممزقة فصحا من سكرة تصوراته ، ولم يعد يجسر ان ينظر إلى تلك الجواهر فتنهد وجعل ينظر الى الملكة .

كانت ملكة النافار في عهد هذه الرواية قد بلغت الثانية والاربعين من عمرها ، وهي لا تزال لابسة ملابس الحداد على زوجها انطوان دي بوربون ملك النافار المتوفي في سنة ١٥٦١ مع أنها لم تأسف أسفاً كثيراً على هذا الزوج الضعيف الارادة المتقلب الاراء الذي كان يرتبك لكثرة الاحزاب ، فلم يستطع لضعفه إلا ان يتخذ الموت حزباً حين حاجة بلاده إلى موت رئيسها المتخلع القلب .

وقد ترك بلاده ومشاكلها الى امرأته وهي أشهر النساء جرأة وأشدهن ذكاء وابعدهن في السياسة وحسن التدبير نظراً

وكانت زرقاء العينين ولكن نظراتها كانت تخترق حجب النفوس فتنفذ الى اعماقها .

وكانت تبدو للرائي لأول وهلة انها من اهل الكسل والخمول ، ولكنها حين تتأثر لأمر تهيج عواطفها فتستحيل من حالة الى حالة .

وقد شبهها المؤرخون لافراط جرأتها وغيرتها على تأييد المذهب البروتستانتي بجان دارك الشهيرة ، وقالوا انه لم يحل دون تمام هذا الشبه غير ما لقيته في طريقها من العقبات التي أوقفت سيرها .

لقد وصفنا حنة زوجة فرنسوا وصف ام تحب ولدها ووصفنا كاترين دي

مدسيس بوصف أم لا تكترث لولدها ، ونحن آخذون بوصف جان دي البرت ملكة النافار وهي أم أيضاً ، ولكنها كانت مناقضة لكاترين دي مدسيس كل التناقض بالأمومة .

فبينما كاترين تبذل كل ما أوتيت من الذكاء والحيلة في سبيل تقويض سلطة ابنها ، كانت ملكة النافار لا يشغلها في الوجود غير تأييد عرش ولدها وجعل تاجه من اعظم التيجان .

ومن اجله خاضت معامع الحروب ، ووقفت فيها مواقف القواد الحاذقين وخاطرت في سبيل مجده بالنفس والنفيس .

وهي انما جاءت الى هذا الجوهري اليوم لتبيع ما بقي لديها من الجواهر وتنفق على جيش ولدها هنري .

فلما بسطت الجواهر على المائدة ارتعش باردليان وابتسم اليهودي ، وبقيت الملكة ثابتة لا يبدو على وجهها شيء من ملامح التأثر .

أما اليهودي فانه أخذ ينظم هذه الجواهر ويرتبها حسب قيمتها وأثمانها .

ثم جعل يفحصها فحص العارف الخبير فيقطب تارة ويبتسم طوراً حتى فرغ من فحصها . فجعل يقدر ثمنها ويكتب على ورقة ثمن كل جوهرة .

ولما انتهى من تقديره قال للملكة :

– إن هذه الجواهر يا سيدتي تساوي ثلاثمائة الف فرنك .

فأجابته الملكة قائلة : لقد أصبت بتقديرك .

– واني أدفع لك مائتين وخمسين الفاً فإن النقد قليل في هذه الأيام .

– رضيت .

– كيف تريدين أن أدفع لك القيمة ؟

– كما دفعت في المرة السابقة .

– أتريدينه حوالة على أحد عملائي ؟

- نعم ، ولكني لا أحب ان يكون الدفع في بوردو كما كان قبلاً .

- اختاري ، يا سيدتي المدينة التي ترغبينها ، فإن لي عملاء في جميع المدن .

- اخترت مدينة سانت .

فلم يجبها اليهودي ، بل أخذ ورقة فكتب عليها الحوالة ودفعها إلى الملكة فقرأتها ووضعتها في جيبها .

وعند ذلك نهض اليهودي وقال لها :

- اني يا سيدتي رهين أمرك في جميع هذه الشؤون .

فارتعشت الملكة وتنهدت بالرغم عنها ، لأن هذه الجواهر كانت آخر ما بقي لها ، وخرجت من منزله تتبعها اليس وباردالیان .

أمـــا باردالیان ، فإنه تبعها حائراً مبهوتاً ، وهو لا يعلم أيعجب بذلك اليهودي الذي دفع هذا المبلغ العظيم على سرعته بتقدير المجوهرات ، وهو واثق انه لا يخطىء .

أم يعجب بتلك المرأة التي لم تنظر نظرة إلى تلك الجواهر الكريمة اللامعة وارتضت ان تستبدلها بورقة عليها ختم وتوقيع بسيط .

وحده قاضيه منتدى ليلاس

- ١٥ -

السفراء الثلاثة

خرجت الملكة من باريس من باب سانت مرتين المجاور لشارع تامبل الذي كانت فيه .

وقد لقيت على مسافة مائتي خطوة من ذلك الباب مركبة كانت تنتظر وهي مركبة سفر تجرها أربعة جياد قوية ولها سائقان .

فسارت الملكة اليها دون ان تفوه بكلمة ، فأمرت وصيفتهـا اليس ان تصعد الى المركبة .

ثم التفتت إلى باردالیان وقالت له إنك لست يا سيدي الشفـاليه من الذين يقتصر بشكرهم على الألسنة ، فإنك من أبطال العهـد القديم ، وأنت فوق كل مديح وثناء ، فأقتصر معك على كلمة الوداع ، وإذا ودعتك فإنما أودع أحد اولئك الأبطـال ، الذين كانوا يخوضون غمـار الحروب مع شارلمان العظيم .

ثم مدت له يدها فتناول باردالیان تلك اليد وقبلها بملء الاحـترام وهو منذهل اشد الانذهال لما سمعه من فم الملكة .

وسارت المركبة بالملكة تنهب الأرض وباردالیان واقف مطرق إطراق المفكر وهو يناجي نفسه فيقول :

أنا من أبطـال العهد القديم .. أنا من أبطال شارلمان .. ولمـاذا لا

وطوراً أدعوك إلى المسير

فلما تجاوزت سن الحداثة كنت قد طفت جميع فرنسا من شرقها إلى مغربها وشمالها إلى جنوبها فتعلمت ما لم يتعلمه سواك

تعلمت أن تبيت على الفراش الخشن وأن تنام دون طعام ، وأن لا تكترث لبرد أو حر ، وأن تبسم لحرارة الشمس وتضحك لهطل الأمطار وترتاح لهبوب العواصف . وأن تجوع وأن تعطش . نعم انك تعلمت كل ذلك يا بني ولذلك نشأت أشد بنية من الفولاذ .

ثم نظر باردليان الأكبر إلى ولده نظرة اعجاب ومباهاة ، وعاد إلى حديثه فقال :

ومع ذلك فقد كان بوسعك أن تعيش عيش الهناء والراحة في منصب حسن برئاسة سيد له نبل الملوك وثروة تزيد عن ثروتهم ، ولكن جريمة حالت دون بلوغك هذا المنصب الذي كنت أعده لك .

فذعر الفتى وقال : أية جريمة تعني يا أبي ؟

— إذا لم تكن جريمة فهي بلاهة وأنا الذي ارتكبتها .

— انت ترتكب الجرائم يا أبي ؟ كلا ان ذلك محال . فان قلبك الحنون ألين من ان يرتكب الهفوات .

— اصغ إلي يا بني فاني بعد ان عشت زمناً طويلاً جواب آفاق تاقت نفسي إلى الراحة فلقيت من يضمن لي هناء العيش ، وكان يجب علي أن احتفظ بمنصبي من اجلك ، ولكن رئيسي عهد إلي يوماً بمهمة سهل قضاؤها وهي اختطاف طفلة ، ففعلت وكافأني على ذلك بخاتم من الماس لا يقل ثمنه عن ثلاثة آلاف ريال ووعدني بضعفي هذا إذا أبقيت الطفلة عندي .

وقد عهد إلي بمهمة أخرى شائنة ، ولكني عولت منذ تلقيت الأمر بقضائها ان لا أقضيها ، ولذلك أكتمها عنك .

— وبعد ذلك .

— وبعد ذلك أجبت داعي الضمير ، فعصيت أمر الرئيس ، وأرجعت الطفلة إلى أمها وأعطيتها ذلك الخاتم جزاء خيانتي . فلم أجد بعد عصياني رئيسي سبيلاً إلى البقاء عنده ، فكان نتيجة ذلك إني بت خمسة عشر عاماً شريداً . ولذلك بت شقياً معدماً ، لم أدخر لك ما يعينك على العيش .

— من هي هذه الأم المنكودة يا أبي ، ومن هو هذا الرئيس الذي كنت في خدمته ؟

— ليس ذلك سري لأبوح لك به ، ولكن إعلم إنك بسبب جريمتي بت أشد فقراً من أيوب ، وهنا ينتهي شبهك بهذا الرجل ، المشهور بالصلاح والصبر .

والآن ، إصغ إلى ما أقوله لك واعرني سمعك لألقي عليك نصائحي لانها كل ما ترثه عني فاسمع :

أول ما أوصيك به يا بني ان لا تثق باحد من الناس فليس بينهم من يسوى قيمة الحبل الذي يجب ان يشنق به .

إذا رأيت رجلاً مشرفاً على الغرق ، إرفع له قبعتك مودعاً ، وامض في شأنك .

وإذا رأيت لصوصاً ينهبون رجلاً في زاوية من زوايا الطريق فدعهم وشأنهم وسر في طريق آخر .

وإذا قال لك أحد الناس انه صديق لك ، ليكن اول بحثك عن الشر الذي ينويه لك .

وإذا قال لك انه يريد لك الخير البس درعاً من الزرد .

وإذا دعيت الى النجدة صم أذنيك كي لا تسمع ..

أتعدني يا بني ان لا تنسى شيئاً من أقوالي ؟

— نعم ، نعم .. وبعد ذلك ؟

أكون منهم .

بل لماذا لا أظهر للعالم أجمع ، ان من رزق حظاً من قوة البدن وشجاعة النفس وجب عليه ان يبذل تلك القوى في سبيل الفضيلة وخدمة أخيه الانسان ..

ولكنه حين ذكر الفضيلة تنبه وبرقت عيناه وقال ويح لنفسي ، الا ازال أخالف وصية ابي ، وهو الذي امرني ان احذر من نفسي ، وان احذر من الناس ..

فلأذهبن الآن الى الفندق عساي اجد فيه ما اتبلغ به من القوت ، فقد كاد يقتلني الجوع

وعند ذلك سار في طريق الفندق وهو يترنم بنشيد صيد كان كثير الشيوع في تلك الأيام ، لأن الملك شارل التاسع قد وضع لحنه فوصل إلى باريس حين كان الحراس آخذين بإقفال أبوابها .

وبعد ذلك بساعة كان جالساً حول مائدة وضع عليهـا طعام شهي أعدته له امرأة لاندري صاحب الفندق ، وقد تأنقت به خصيصاً كي تجعله مقدمة للصلح بينها وبين بارداليان ، ووقفت تخدمـه وقد شمرت عن ساعدين كالعاج .

غير ان بارداليان كان منهمكاً بالتهام الطيور المقلية ، وقناني الخمور التي كانت تخفرها . فأكل وشرب ، حتى امتـلأ جوفه ، وذهب إلى سريره ليستريح بالرقاد من عناء ذلك اليوم ، وغادر لاندري يتنهد لفرط ما شربه من الخمر ، وامرأة لاندري تتأوه لأنه لم يمن عليها بنظرة رضى .

وفي اليوم التالي نهض متأخراً وأخذ رداء تركه له أبوه فاتشح به وكان اول ما فعله اهتمامه بخياطة ما تمزق من ثيابه في معركة الأمس .

ولا ندري أيعظم قـدره في عيون القارئات لاهتمامه بترقيع ثيابه ،

بينما كان الأطباء يهتمون بترقيع ما مزقه حسامه من جلود الناس ، ام ينظرون اليه بالازدراء والاستخفـاف ، لاشتغاله بالابرة ، وهو من أهـل السيف .

غير اننا نمثل معيشة الأبطال في عهد شارل التاسع ، وعلى القارئات والقراء ان يحكموا عليه بما يشاءون .

وقد كان جالساً عند النافذة وظهره إلى باب الغرفة ، فبينما هو يخيط ثوبه سمع قرعاً خفيفاً على الباب واذن للطارق بالدخول دون ان يتزحزح من مكانه او يترك إبرته .

وعند ذلك فتح باب الغرفة وسمع بارداليان صوت صاحب الفندق يقول : نعم إنه هنا يا سيدي البرنس فتفضل بالدخول

والتفت بارداليان كي يرى من هذا الرجل الذي يدعوه صاحب الفندق بلقب الأمير ..

ورأى رجلاً على أتم ما يكون من مظاهر السيادة ، يلبس ملابس كبار النبلاء في ذلك العهد ، وقد زين ريشة قبعته بزمردة لم ير مثلها إلا بين جواهر ملكة نافار .

فلما رآه بارداليان دنا من الباب وقال له وإبرته لا تزال في يده : تفضـل يا سيدي وادخل .

فأجابه الرجل بملء العظمة والجلال قائلاً إذهب ، وادع لي سيدك في الحال

ونظر اليه بارداليان نظرة استكبـار وقال له : ليس لي سيد ، فأنا سيد نفسي .

فعجب الرجل لهذا الجواب الغريب ، لأن كل إنسـان ، في ذلك العهد ، كان له سيد يحتمي به ويلجأ اليه ، حتى الملك نفسه ، فقد كان سيده البابا .

ووقف هنيهة مبهوتاً ، وهو يحدق ببارداليان ، حتى ظهر له من مخائل عزيمته ما استدل منه انه يجل عن مقام الخدم فقال له : العلك يا سيدي الشفالييه بارداليان .

فابتسم وأجاب : لي الشرف ان أدعى بهذا الاسم .

فرفع الرجل قبعته وحياه بملء الاحترام قائلاً : إني قادم اليك يا سيدي الشفالييه من قبل سمو الدوق دي كيز ، لأعرب لك عن احترامه إياك وإعجابه بك .

– ثق إني أبادله احتراماً باحترام وإعجاباً باعجاب .

– إن معركة الأمس يا سيدي قد أجلتك في النفوس ، ورفعتك إلى أعلى مقام .

– أتريد بها معركة الجسر ؟

– وسقوط المنزل أيضاً ، فلا تلهج الألسن بغير هذا الحديث ، حتى ان جان دورات ، شاعر الملك ، روى هذه الحادثة لجلالته حين نهوضه في هذا الصباح .

– وماذا قال هذا الشاعر ؟

– قال إنك تستحق السجن في الباستيل ، لإقدامك على إنقاذ إمرأتين مجرمتين كانتا تحاولان النجاة .

– وبماذا أجاب الملك ؟

– إنك لو كنت من رجال البلاط لعلمت للفور ان الملك لم يجب بحرف ، لأنه قليل الكلام . ومهما يكن من الأمر ، لقد أصبحت الآن في عيون الناس شبيهاً لأشيل ، وهم يقصون حديثك كما يروون أحاديث أبطال التاريخ .

– لا أنكر ذلك .

– وعلى الجملة يا سيدي ، إن مولاي الدوق دي كيز ، يسره أن

يظهر لك إعجابه ببسالتك ، ودليل ذلك انه أرسلني اليك بهذا الخاتم هدية ، بل تذكار منه فأرجوك ان تتكرم بقبوله ، كي لا تسيء إلى هذا القائد الكبير .

فأخذ بارداليان الخاتم ووضعه في إصبعه وقال : معاذ الله ان أرفض هذا التذكار من مثل الدوق .

– أشكرك يا سيدي لقبول الهدية ولاحتفائك بي .

– بل أنا أشكر الدوق لهذا الخاتم النفيس ، وأشكرك لتفضلك بزيارتي .

ودار بينهما سياق الحديث على المجاملة وبارداليان ينظر معجباً إلى ملابس هذا الرسول ولا يتمالك عن إظهار إعجابه .

إلى ان قاطعه الرسول فجأة وقال : لنبحث الآن في ما أتيت لأجله لأن مولانا ، الدوق دي كيز ، عازم على تجديد حاشيته لأسباب خطيرة ، وأنا أبسط لك الاقتراح ، بملء الحرية والجلاء ، فهل تريد ان تكون من أتباعه ؟

فابتسم بارداليان وقال :

– وأنا أجيبك بمثل حريتك وإخلاصك .

– ما هو جوابك ؟

– هو اني لا أكون إلا من أتباع نفسي .

– أهذا هو الجواب الذي يجب ان أنقله إلى مولاي الدوق ؟

– بل تزيد عليه ان لساني لا يفي حق امتناني لتعطفه علي وسأذهب اليه وأظهر له ما يخالج قلبي من الامتنان .

فظهرت دلائل الارتياح على محيا رسول الدوق وقال في نفسه : إنه بات لنا دون شك ، لكنه يريد ان يساوم الدوق على خدماته دون ان يطلع على شروطه أحد .

وقد اكتفى بهذا الجواب الصريح فودع بارداليان وانصرف .
أما بارداليان فإنه شيعه إلى الباب بالاكرام والتبجيل .

ثم عاد إلى غرفته ، فجعل يناجي نفسه ويقول : أرى الدهر ابتسم لي وسالمتني الليالي ، وماذا عساي أطمع بأكثر من أن أكون في حاشية هذا الدوق العظيم ، وهو أعظم رجل في المملكة بعد الملك ، لا سيما وهو يدعوني اليه .

بل أية سعادة تفضل هذه السعادة ، وأي مستقبل خير من هذا المستقبل ، إني لا يمر بي بضعة أيام حتى تكون لي المنزلة الأولى بين رجال هذا البطل العارف قدر الأبطال ...

إذاً لا بد لي من قبول الاقتراح ...

ولكن ما هذا الضعف الذي تولاني ، ويا ويح نفسي ، أنسيت وصية والدي ؟ .

ألم يقل لي لا تثق بأحد من الناس ؟ ..

كلا إني لا أقبل هذا الاقتراح .

ثم جعل يمشي في غرفته بخطوات مضطربة ، وقد سره انه وجد هذا التعليل ، كي ينقطع عن التفكير بالدوق ، إلى النظر في هديته . فجعل يتأمل ذلك الخاتم الجميل ، وهو يتوهج في إصبعه كالنجم ، فبدأ بتثمينه .

فقال : إنه يساوي على الأقل ماية وعشرين ريالاً بل إني قد أبيعه بماية وخمسين .

وجعل يتأمله ، وكل ما زاده نظراً ، زاده ثمناً . حتى بلغت قيمته ثلاثمائة ريال .

وعند ذلك طرق باب غرفته ، فأدار الخاتم كي يخفي لمعانه ، وانتظر دخول الطارق .

فدخل رجل متشح برداء كبير ، وهو يلبس ملابس بسيطة ، تشبه ملابس التجار ، وحيا بارداليان باحترام وقال : أأنت هو الشفاليه بارداليان يا سيدي ؟

ـ هو بعينه فماذا تريد منه ؟

ـ سأخبرك بما أتيت لأجله ، لكني أحب ان أسألك قبل ذلك عن مولدك ، ففي أي يوم ولدت وفي أية ساعة وأي شهر وأي عام .

فنظر بارداليان إلى حسامه المعلق كأنه خشي ان يخرج من غمده ويعاقب هذا الرجل لفضوله .

ثم أجاب الرجل قائلاً : كلا يا سيدي وكل ما أعرفه اني أبلغ من العمر عشرين عاماً وقد ولدت في أيام التين .

فقال الرجل في نفسه : لا بأس ، فأستشير النجوم بشأنه بقدر ما تيسر .

ثم قال لبارداليان : الملك حر يا سيدي الشفاليه .

فابتسم بارداليان وأجاب : من يجسر ، يا سيدي ، على الادعاء أنه حر ، حتى الملك نفسه ، فإنه لا يستطيع ان يخطو خطوة خارج اللوفر ..

وهذه الملكة كاترين التي يقولون عنها انها نالت من السيادة ما لم ينله الملك ، العلها ظافرة بهذه الحرية ...

بل هذا الدوق دي كيز ومونمورانسي وغيرهما من كبار النبلاء اليس لكل منهم قيد يرصف به ويشير الى استعباده .

وبعد ، فإنك تسألني إذا كنت حراً ، فكنت كأنك تسألني إذا كنت صاحب ثروة وللسؤالين أجوبة تتعلق بحالة المسؤول .

مثال ذلك عن نفسي ، إني حين امتلك ريالاً ، أحسب نفسي غنياً كالأمراء ، وحين استطيع أن أغازل زجاجة الخمر ، أحسب إني بلغت

درجات النبل .

وماذا تريد بالحرية ؟

انك إذا اردت بها إني استطيع أن انام عند الفجر واستيقظ عند الظهر واني أجول في الأسواق دون أن أخشى رقيباً ، وادخل إلى الخمارة أو إلى الكنيسة حين اشاء ، وآكل واشرب حين اعطش واجوع ، واغازل من احببت من النساء ، وأطوف بهما شوارع باريس في أية ساعة اردتها من الليل دون مهابة .

واهزأ بقطاع الطرق واسير إلى حيث تدفعني الأهواء ولا حاكم علي غير سلطان قلبي . . .

انك إذا كنت تعني الحرية بما ذكرته لك فانا حر بحمد الله .

وكان الرجل مصغياً أشد الاصغاء إلى كلامه ، فلما فرغ من حديثه مشى دون ان يجيبه الى مائدة فأخرج كيساً من تحت ردائه فوضعه عليها وقال له : إن هذا الكيس يحتوي على مائتي ريال

فدهش بارداليان وقال : مائتي ريال !

— وكل ريال ستة فرنكات .

— إنها تشبه الثروة .

— وهذه الثروة لك .

— إذاً إسمح لي ان أضعها في محل أمين .

ثم أخذ بارداليان الكيس بيد ترتجف ووضعه في صندوق وبعد ان أقفله عاد إلى الرجل .

فقال له بملء السكينة : والآن أرجوك ان تقول لي يا سيدي لماذا أعطيتني هذا المال ؟

وكان يظن هذا الرجل انه امتلكه بهذه الهبة .

فلما رأى ما كان من سكينته وقلة اكتراثه أيقن أنه المغلوب ولكنه ملك

نفسه وحاول ان يسترد سلطانه عليه .

فقال له : إني أعطيتك هذا المال لاشتري به حريتك .

فلم يظهر بارداليان شيئاً من علائم الدهشة او النفور بل قال له بملء السكينة إذا كان الأمر كذلك فإنك لا تزال مديناً لي بتسعمائة وتسعة وتسعين الفاً وثمانمائة ريال .

فارتعش الرجل وقال : أيبلغ ثمن حريتك مليون ريال ؟

— وذلك في العام فقط .

وكان هذا الرجل ربني ريجياري الفلكي المشهور في ذلك العهد ، وصديق الملكة كاترين وشريكها بدسائسها وفتنها فشعر على دهائه انه لا قبل له بهذا البطل ونظر اليه نظرة إعجاب وقال :

أرى إنك تدير الكلام كما تدير الحسام ، وأنت شجاع العقل واللسان كما أنت ثابت القلب والجنان .

فاحتفظ يا سيدي بحريتك إذا شئت ، غير انك برهنت لي الآن على شدة ذكائك وحسن أدبك ، كما برهنت أمس للناس أجمعين على شجاعة قلبك ومضاء حسامك .

وما جئتك إلا لأعرض عليك خدمة غرض نبيل تتولاه أعظم أميرة ، فهل تريد ان تخدم هذا الغرض النبيل ؟

— لندع الغرض ولنبحث عن الأميرة ، فمن عسى تكون ، العلها مدام مرنتبانيه .

فظهرت على شفتي الفلكي علائم الاستخفاف .

فقال بارداليان : العلها مدام دي نيمورس .

— لا تجهد نفسك في البحث يا بني واقتصر على العلم ان هذه الأميرة أعظم الأميرات قوة في فرنسا .

— لكن يجب ان أعرف على الأقل تلك الأميرة التي تعرض علي خدمتها .

— إنك مصيب فيما تقول فتعال إذاً في الساعة العاشرة من مساء غد إلى الجسر الخشبي واصعد إلى أول منزل تجده عن يمين الجسر فاقرع بابه ثلاث مرات متوالية .

فارتعش بارداليان إذ ذكر ذلك المنزل الذي رأى في نافذته وجه تلك المرأة المصفر فعزم للفور عزمـاً تاماً وأجاب الرجل قائلا : لقد رضيت وسأذهب إلى المكان المعين .

فقال له الفلكي : هذا كل ما أريده منك .

ثم انحنى أمامه مودعاً بملء الاحترام وانصرف .

وبعد انصرافه جعل بارادليان يفكر في هذه الأمـيرة التي وصفها الفلكي بقوله انها من أعظم أهل السلطة ، فقال في نفسه ثكلتني أمي ان لم تكن هذه الأميرة الملكة كاترين والدة الملك .

أما الغرض النبيل التي تريد أن اتولاه في خدمتها فسوف أعرفه بعد المقابلة وأما الآن فقد انصرف هذا الرجل وهو يعرفني دون ان أعرفه ولكن لا بأس فلأفحص تلك الريالات التي منحني اياها .

ثم أخذ الكيس من الصندوق فأفرغ ما فيه على المائدة وجعل يعد الريالات ويضعها صفوفاً عمودية بعضها إلى جنب بعض ، وهو ينظر اليها باسم الثغر فرح القلب ، ويقول انها في الحقيقة مائتان ، وهي وهاجة لماعة لا أجد مثلها إلا في دار الضرب .

ووالله اني لست بحالم ، فاني أمسها بيدي واملأ منها جيوبي ..

وهذا الخاتم أيضاً ، فانه يوازي هذا المال او يزيد ، إذاً ، لقد بت من الأغنياء .

ولكن مالي اضطرب امام هذا المـال ، ألعلي خفت من الثروة ولم أكن أخاف من الفقر ؟

وفيما هو يفكر هذا التفكير وقد بدأ ينصرف إلى تبديد هذا المال في سبيل

ارضاء من يحب ، إذ قرع باب غرفته للمرة الثالثة ، فقام إلى البـاب منذعراً وفتحه ولكنه لم يلبث أن رأى القادم حتى استحال ذعره إلى دهشة . ذلك ان هذا الزائر الجديد كان يشبه الزائر الذي تقدمه شبهاً عجيباً بمشيته وخيلائه وتقاطيع وجهه واتقاد عينيه .

ولم يجد فرقاً بين الاثنين سوى أن الفلكي كان في الخامسة والاربعين من عمره والزائر الجديد لا يتجاوز الخامسة والعشرين .

ولكن هذا الشاب كانت تبدو عليه علائم الحزن وتدل نبرات صوته على كآبة خفية كامنة في نفسه .

فلما دخل الزائر ، جعل ينظر الى بارادليان ، وبارادليان ينظر اليه نظرة الفاحص .

ومن غرائب القلب في سرعـة تأثره ، بل من عجائب اسرار تلك النظرة الأولى ان هذين الشابين لم يكد احدهما ينظر إلى الآخر حتى امتزج قلباهما كا يمتزج النور بالنور وهو سر من اسرار الطبيعة لا يعرف سره إلا من يعرف سر الوداد والبغضاء .

وجملة القول ، ان هذه النظرات الأولى كانت رائد القلبين إلى الوداد ، فانحنى الزائر الجديد أمام الشفاليه وقال له : ألعلي يا سيدي بحضرة الشفاليه دي بارادليان ؟

فأجابه بارادليان برقة لم يتعودها قائلاً :

هو ذلك يا سيدي ، فهل تأذن لي أن اسألك عن اسم الذي شرفني بهذه الزيارة في غرفتي الحقيرة ؟

فارتعش الزائر لهذا السؤال وقال له : لقد أصبت يا سيدي بسؤالك ، فان آداب الزيارات تقضي علي بأن أذكر لك اسمي .

وكأنما بارادليان قد لاحظ انه يريد كتمان اسمه فقال له : اسألك العفو يا سيدي فاني ما طلبت اليك معرفة اسمك إلا لما شعرت به من الميل اليك ، أما

اذا كنت تريد كتمانه فاني من اعوانك على هذا الكتمان .

– كلا يا سيدي الشفاليبه ، فليس اسمي سراً اريد كتمانه ، واني ادعى ديودات .

ونعم ، اني لا ادعى بغير هذا الاسم الفرد ، وهو يفيد باللاتينيـة ، معنى اللقيط ، فاني وجدت عند باب كنيسة ، فعثرت بي امرأة فالتقطتني وربتني فكانت لي خيراً من الأمهات .

هذا هو اسمي وهذا تاريخه واني اذكر هذا التاريخ في كل مكان أملاً بان يتصل بمن نبذني فيندم على ما رماني به من الشقاء .

وكان الزائر يتكلم بجلاء وحرية تشفان عن أدب نفسه فأثرت لهجتـه الحزينة على بارداليان ، وأراد أن يخفي تأثره بالحديث فقال له ومن هي هذه المرأة التي ربتك كما تقول ؟

– إنها ملكة النافار .

– أهي مدام دي البريت ؟

– هي بعينها ، وهي التي عهدت الي بالمهمة التي تشرفت من أجلهـا بزيارتك .

– بل أنت الذي شرفتني بزيارتك وأرجو أن تشرفني بصداقتك بمصافحة يدي التي أمدها اليك بملء الإخلاص .

فمد ديودات يده فصافح بارداليان وهو يقول : ألا تحتقرني بعد أن علمت أني من اللقطاء ؟

– بل أجلك وأحترمك لاسيما وقد اعترفت بهـذه الذلة التي إذا عدت نقيصة ، فإنما تبعتها على سواك لا عليك ، وأي ذنب جنيته فيحتقرك العاقلون بل كيف لا أحترمك وأنا أراك طويل نجاد السيف ، ومخائل الشهامة تجول بين عينيك .

– ثق ، أيها الشفاليبه ، ان هذه هي المرة الأولى التي عرف قلبي فيها

حقيقة السرور ، فقد تبينت من لهجتك وعينيك مروءة وكرماً لا أستطيع وصفها سوى بأنك بت معهما فوق جميع الذين عرفتهم من الأسياد والأمراء.

– ان محادثة تبدأ على هذا النمط يجمل إنهاؤها على المائدة ، فهلم معي أيها الصديق فإن الظهر قد حان .

– أشكرك من صميم القلب أيها الشفاليبه فقـد عرفت بك حلاوة الصداقة .

– ومن شروطها أيها الصديق أن لا تناديني حين نجتمع إلا باسمي دون اللقب ، كما أناديك ، فأنا أدعوك ديودات وأنت تدعوني جان .

وعند ذلك نادى بارداليان صاحب الفندق فأسرع إلى تلبيتـه ، ورأى الريالات مرصوفة على المائدة في غرفته فبرقت عيناه ووقف بحضرة بارداليان وقوف الخدم فأمره بارداليان أن يعد لهما طعامـاً شهياً وأن يتأنق به بحيث يكون كطعام أبناء الملوك .

فارتعش ديودات حين سمع هذه الجملة الأخـيرة وخرج صاحب الفندق لتنفيذ أوامر الشفاليبه .

وبعد ربع ساعة كان الاثنان على المائدة فبدأ ديودات الحـديث فقال :

– إنك فتنتني أيها الصديق بكرم أخلاقك وأدب نفسك حتى كدت أن أنسى المهمة التي جئت اليك من أجلها .

فقال الشفاليبه : إني أعرف هذه المهمة .

– كيف تعرفها ؟

نعم ، فإن ملكة النافار أرسلتك إلي كي تشكرني باسمها على دفاعي عنها أمس ، وكي تجدد ما اقترحته علي من دخولي في خدمتها وتقدم لي هدية فاخرة ، اليس كذلك أيها الصديق ؟

– هو ما تقول ، ولكن كيف عرفت ؟

– إن الأمر بسيط فقد جاءني في هذا الصباح رسول من قبل أحد العظماء

فأعطاني خاتماً ثميناً من الماس واقترح علي أن أنتظم في خدمة مولاه ، ثم جاءني بعده رسول آخر فأعطاني مائتي ريال وقال لي ان أميرة عظيمة تريد أن اكون من رجال حاشيتها ، ثم جئت أنت من قبل ملكة النافار فقلت في نفسي لا بد ان تكون مهمتك كمهمة الرسولين السابقين .

— لقد أصبت أيها الصديق ، وهذه هي الهدية .

ثم ناوله خاتماً من أنفس أنواع الياقوت .

فأخذه الشفاليه وقال له : هذه الهدية ، فلننظر في بقية المهمة .

— ان جلالة الملكة عهدت إلي أن أخبرك أنها أخرجت هذه الياقوتة من كيس لا بد أن تكون قد رأيته وهي لا تنسى أنها مدينة لك ، وأما انتظامك في سلك جيشها فذلك منوط بك حين تريد .

— إذاً لقد ذهبت الى الملكة ؟

لم أذهب اليها ، بل هي أتت إلي فاني كنت انتظرها في سانت جرمين وقد سافرت بعد ان عهدت إلي بهذه المهمة التي شرفتني بصداقتك .

— اسمح لي أيها الصديق ان أسألك سؤالاً آخر ، ألم تر حين صعودك إلى غرفتي رجلاً متشحاً برداء كبير وهو في سن الكهول ؟

— كلا لم أر أحداً .

— ومتى عزمت على السفر ؟

فقطب ديودات حاجبيه وقال : اني لا أسافر لأن ملكة النافار عهدت الي بمهمات يقتضي لقضائها بعض الوقت ، ثم انه يجب علي الاهتمام أيضاً بشؤوني الخاصة

— إذا كان الأمر كذلك فإنك تقيم معي في هذا الفندق .

— أشكرك كل الشكر فإن أحدهم ينتظرني .. ولكن ماذا أقول ، اني أرى لساني قد انطلق في محادثتك حتى اني لا أجد ما يصدني عن الإباحة لك بأسراري فاعلم ان دي تاليني يقيم الآن سراً في باريس

— أهو صهر الأميرال كوليني ؟

— نعم ، وهو مقيم في قصر الاميرال في شارع بتهيزي ، فإذا أردت أن تراني تجدني في ذاك القصر ، وإنك قد تراه خالياً مقفراً بالظاهر ، ولكنك إذا قرعت الباب ثلاث مرات متوالية يفتح لك رتاجة فتقول عند ذلك كلمة المرور وهي (جارناك ومونكوتور) فيفتح الباب .

— أشكرك أيها الصديق لحسن ظنك بي ، ولكن أتعلم ما يقال بشأن تاليني ؟

— وماذا عسى يقولون عنه سوى انه فقير لا ثروة له غير عقله وحسامه وأن الأميرال أخطأ بتزويج ابنته من رجل لا ثروة له .

— نعم ويقولون أيضاً ان الخطاب قد ازدحموا على ابنته وانه قبل زواجها بليلة جاءه رجل عظيم فأعرب له عن حبه لأبنته وعن رغبته بمصاهرته .

— وهذا الرجل العظيم هو الدوق هنري دي كيز ، فإنه جاء الأميرال وتوسل اليه أن يزوجه ابنته ، فأجابه الأميرال ، ان من كان مثله لا ينكث عهداً ، وانه قد وعد تاليني فلا سبيل إلى الرجعة ، لاسيما وان الخطيبين متحابان ، فخرج الدوق قانطاً ، وتزوج تاليني بنت الأميرال في اليوم التالي ، أما الدوق فقد حمله اليأس على الزواج بكاترين دي كليف .

— نعم ، وهي تحب جميع الناس ما خلا زوجها .

— ولها عشيق كما يقال ؟

— نعم ، وهو يدعى سانت ماجرين .

— العلك تعرفه ؟

— لقد عرفته اليوم ، واسمح لي أيها الصديق أن أخبرك بنبأ تجهله وهو أن الدوق دي كيز الآن في باريس .

— العلك واثق مما تقول ؟

— كل الثقة ، فقد رأيته أمس بعيني وسمعت الشعب يهتف له .

فتقلد ديودات حسامه مسرعاً واتشح بمعطفه ، فودع صديقه وقد رجع اليه الانقباض .

- متى اراك ؟

- متى شئت في قصر الأميرال ولا تنس كلمة المرور .

وعند ذلك افترقا فذهب ديودات في شأنه ، وصعد بارداليان إلى غرفته ، فأخذ قبضة من الريالات وخرج بها فاشترى خير الملابس التي كان يحلم بها ، ثم ذهب الى الجوهري الذي اشترى جواهر الملكة ليبيعه خاتم الدوق دي كيز ، أما ياقوتة الملكة فقد زين بها قبعته .

- ١٦ -

حفلة غريبة

لم يعد بارداليان إلى الفندق إلا بعد أن توارت الشمس في حجابها ، فكان يمشي مزدهياً مختالاً بثوبه الجديد ، وبما مر به في ذلك اليوم من الحوادث الداعية إلى المباهاة ، فإن الملوك وكبار الأمراء أرسلوا يخطبون وده ويتزاحمون على استخدام حسامه .

وقد وصل الى البيت الذي تقيم فيه حنة ورفع عينيه الى تلك النافذة التي طالما أطلت منها لويزا إطلال البدر من خلال الغمام ، وتمنى لو انه خسر نصف ما امتلك في ذلك اليوم من مال بشرط ان تبرز له من النافذة وتراه بثوبه الجميل وريشة قبعته التي تناطح السحاب .

وحده فاضيه
منتدى اليلاس

ولكنه وجد النافذة مقفلة فتنهد والتفت إلى ناحية الفندق فرأى بالقرب منه ثلاثة رجال تدل ملابسهم على انهم من الأشراف وخيل له انهم يفحصون منزل لويزا إذ رآهم ينظرون اليه بإمعان .

ثم سمع احدهم يقول لأحد رفيقيه : أهذا هو المنزل يا مورفر ؟

فأجابه رفيقه : هو بعينه يا كاليس وان الفتاة تقيم في الدور الأول منه ، وقد استأجرت الدور الثاني في هذا الصباح .

فقال كاليس : اني لأعجب لاهتمام سموه بهذه الفتاة .

- ذلك ان سموه شديد الاتضاع ثم انه يرى ان عرش الغرام لا يرقى اليه على سلم الانساب .

- بل هو كالحوت لا يرويه شيئاً يلهمه ويصبح ظمآن وفي فمه البحر .

وهنا بدرت نكتة من مورفر لم يسمعها بارداليان فضحك الاثنان ضحكاً عالياً وافترق عنهما الثالث قائلاً الى اللقاء هذه الليلة .

وبينما الاثنان يحاولان الانصراف اقتداء به اقترب منهما بارداليان فقال لهما وقبعته بيده : أياذنان لي سيدي ان اسألهما عما ينظران اليه في هذا المنزل ؟

فنظر كل من الاثنين الى الآخر نظرة انذهال ، ثم أجابه كاليس بعظمة قائلاً : لماذا تسألنا هذا السؤال يا سيدي .

- ذلك لأن المنزل منزلي .

وكان وجه بارداليان قد اصفر قليلاً من الغضب ، ولكن الرجلين لم يريا هذا الاصفرار ، لاسيما وانه كان يحدثهما بملء الرقة والأدب .

فقال له كاليس : ألعلك حسبت اننا نريد شراء هذا البيت ؟

- ان منزلي غير معروض للبيع .

- إذاً ماذا تريد ؟

- أريد أن أنبهكم إلى أمر لم تفطنوا له ، وهو أنكم نظرتم إلى منزلي وضحكتم ، ولا أحب أن ينظر الناس إلى منزلي ويضحكون .

فاصفر وجه كاليس من الغضب وقال له : أنت لا تريد . .

وأخذ مورفر بيد رفيقه وقال له : هلم بنا فان الرجل مجنون كما يظهر .

فأجابه باردليان دون أن يظهر عليه شيء من علائم التأثير ، لست مجنوناً يا سيدي كما توهمت ، ولكني أكره من تدفعه الوقاحة فينظر إلى ما لا يجب أن ينظره .

– إنك تقضي على نفسك بنفسك فإنك تدعوني إلى قطع أذنيك

– بل إني أعاقب السفهاء فقد تعودت معاقبة من يضحكون أمامي إذا كان ضحكهم لا يروق لي ، فاذهبوا واضحكوا في غير هذا المكان .

فأجابه كاليس : وقد استشف من قوله أنه يدعوه إلى المبارزة ، إلى أين تريد أن نذهب فنضحك ؟

– إلى الغابات .

– حسناً ، فمتى ؟

– الآن إذا أردت .

كلا ، ولكن في الساعة السابعة من صباح غد تجدني مع صديقي في المكان الذي عينته فاجتهد أن تضحك الليلة كثيراً لأنك لن تضحك بعدها .

فانحنى باردليان أمامهما وقال : سأفعل ما تريدان .

ثم تركهما وذهب إلى قاعة المائدة وهو يفكر في أمر هذين الرجلين ، والسبب في ضحكهما ونظرهما إلى نافذة منزل لويزا فيقول ترى ما عسى أن يكون قصد هذين الرجلين ، وما شأنهما في مراقبة هذا المنزل العلهما يريدان شراً بلويزا : والله إذا كان ذلك مرادهما مزقت قلبيهما بهذا الحسام .

وعند ذلك يحمر وجهه وتنتفخ أوداجه حتى يتمثل له أنهما قابضان على الفتاة يريدان اختطافها من بيتها والعبث بها ، فيضرب المائدة بيده الحديدية بحيث ترتج وتسقط عنها الصحون ، ويتراكض الخدم فيفطن لنفسه ويهدأ ثائر غضبه فيقول في نفسه كلا ، إني مسترسل في الأوهام ، وان لويزا لا تخرج

من المنزل ولا تشرف من النافذة إلا في القليل النادر ، فلا بد أن يكون للرجلين غرض آخر .

ثم ينطلق في مهامه التفكير وتعينه أقداح الخمر على التعقل ، فيسكن ويطمئن ويعود إلى مراقبة زوار الفندق بعينه النقادة ، فقد كانت المراقبة سجية فيه .

وكان يحمله على الانصراف إلى المراقبة ، كثرة توافد الزوار على الفندق في تلك الليلة ، وما كان يجده من اهتمام الخدم في أعداد مائدة في قاعة مجاورة .

فنادى رئيس الخدم وقال له : ما هذا الاهتمام الخاص بتلك المائدة ، أقدم اليكم ضيوف أخصاء ؟

– هو ذاك يا سيدي ، واني فرح جداً بهؤلاء الضيوف .

– ولماذا الفرح ؟

– أولاً لأن ضيوف الليلة من أكابر الشعراء ، وهم مفرطون في الكرم يشربون فلا يشفقون على الخوابي ولا يحرمونني مما يشربون .

– إذاً ضيوفكم من الشعراء .

– نعم يا سيدي وهم يجتمعون في أول كل شهر ، فيتناشدون من نفائس الأشعار ما تطيب له نفسي ، لولا انصرافها بملذاتها الى الشراب .

– أهذا هو كل السبب في سرورك ؟

– كلا ، بل يوجد سبب آخر وهو قدوم الأخ تهيبون

– وما شأن هذا الراهب في هذه الحفلة ، ألعله أيضاً من كبار الشعراء ؟

– كلا يا سيدي ... أرجوك أن تعذرني فاني أرى قبعة حمراء

ثم تركه قبل أن يتم جملته وانصرف مسرعاً إلى استقبال فارس كان لابساً قبعة عليها ريشة حمراء

وقد دخل هذا الفارس إلى القاعة وهو ملتف برداء كبير يستر وجهه إلى الأنف

فانكر باردليان هذه المبالغة بالتستر وامعن النظر في وجه الداخل فعرف أنه المسيو دي كوسيني رئيس حرس الملك شارل التاسع ، أي أعظم رجل عسكري في اللوفر .

وقد دهش بارداليان لقدومه ، وأسرع رئيس الخدم إلى استقباله فقال في نفسه : إذا كانت الحفلة خاصة بالشعراء ، فما شأن هذا الرجل فيها وهو من رجال السيف .

بل ما غاية هؤلاء الشعراء انفسهم من هذا الاجتماع ، وما بال صاحب الفندق تخلف عن خدمتهم بنفسه وعهد بها إلى سواه وهم من علية القوم وأفاضل الناس .

ان في الأمر سراً دون شك ، ولا بد لي من اكتشاف هذا السر .

وأخذ عند ذلك بمراقبة الرجلين .

أما رئيس الخدم فانه سار برئيس الحرس الى القاعة التي كان يعد الخدم فيها المائدةفقال له : هنايا سيدي ستكون مأدبة الشعراء .

وقد قال له هذا القول وهو يحدق في وجهه رجاء أن يعرفه .

غير ان رئيس الحرس لم يحفل بقوله فقال : سر بي إلى أبعد من هذا المكان .

فسار به الى قاعة كبيرة لم يكن فيها أحد من الناس ، ولكن كان فيها خمسة عشر كرسياً .

وعلى يسار هذه القاعة غرفة سرية ، فدخل رئيس الحرس اليها وقال له : ما هذا الباب الذي أراه في الغرفة

أجاب انه يشرف يا سيدي على الرواق الكائنة فيه القاعات الأربع ، وهو يشرف أيضاً على الشارع

ـ ألا يمكن لأحد أن يدخل من هذا الباب ؟

فابتسم رئيس الخدم وقال . ألا ترى يا سيدي هذا المزلاج الحديدي العظيم

ـ حسناً وأين يقيم الراهب تهيبوت .

أجاب . أنه يتولى حراسة باب القاعة الكبرى ، فلا يستطيع أحد الدخول بحيث تتناشدون اشعاركم دون أن يسمعها أحد سواكم .

فظهرت علائم الرضى على وجه رئيس الحرس ، وخرج من الغرفة السرية فتوارى عن الانظار بدخوله إلى احدى القاعات

وكان بارداليان يراقب كل ما جرى ، فعزم عزماً أكيداً على أن يكتشف هذا السر الذي يجهله رئيس الخدم دون شك ، فاسرع الى القاعة المصفوفة فيها الكراسي ، ودخل منها الى الغرفة السرية التي دخل اليها قبله رئيس الحرس .

وكان لهذه الغرفة بابان أحدهما يشرف على القاعة التي أعدت لاجتماع السفراء أو المتآمرين .

وفي وسط هذه الغرفة المظلمة التي لا أثاث فيها ، إلا من نسج العنكبوت كان يوجد باب يفتح على سلم ينفذ منه الى اقبية الفندق ، فنزل بارداليان الى تلك الأقبية ففحصها فحصاً دقيقاً ، ثم عاد فترك بابها مفتوحاً ، وأقفل الباب المشرف على القاعة ، وجعل ينظر من ثقب ذلك الباب إلى ما يجري في القاعة وقد تحولت كل حواسه إلى آذان .

ولندعه الآن في مراقبته وندخل بالقراء الى تلك القاعة المتسعة التي كان يراقب ما يحدث فيها .

في الساعة التاسعة من تلك الليلة ، دخل الى الفندق ثلاثة رجال متشحين بارديتهم المتسعة وعلى قبعاتهم ريش أحمر .

فأسرع لوبين رئيس الخدم إلى استقبالهم وادخلهم الى قاعة الطعام الخاصة .

وبعد عشر دقائق جاء رجلان ، ثم جاء ثلاثة أيضاً ، وكلهم قد وضعوا الريش الأحمر على قبعاتهم ، فكان لوبين يدخل بكل قادم منهم الى تلك القاعة .

وبعد هنيهة أقبل الراهب تيهوت ، فاسرع لوبين اليه وقال له : انهم

حضروا وهم في القاعة .

فقال الراهب : إذن اصغ إلي فان الأمر خطير ، وان هؤلاء الشعراء الذين رأيتهم ليسوا من قومنا ، بل هم أجانب وقد جاؤا لينافسونا بأشعارهم ويزاحمونا بحق السبق في القريض .

فأجابه لوبين : ولكن كيف اتفق أيها الأخ أن تكون مع هؤلاء الشعراء وما أنت من أهل الشعر ؟

فقطب الراهب جبينه وقال له بجفاء : أعلم أنه إذا أذن لك رئيس ديرنا أن تبرح الدير وتختلط مع العوام فهو لا يأذن لك ان تكون من أهل الفضول ، فعليك ان تنقل الينا كل ما يحدث ولا يحق لك ان تسأل عن شيء .

– ليكن ما تريد يا سيدي فسألزم الصمت .

– وحسناً تفعل أو نرجعك إلى الدير .

– ويح لنفسي فاني أوثر ان أعيش العمر أبكم على ان أعود إلى ذلك السجن .

– وذلك موكول اليك فاحذر العودة الى الفضول واذهب فقف حارساً عند مدخل الرواق المؤدي إلى الغرفة السوداء ، فإذا أراد أحد الدخول فامنعه ، وإذا أصر على الدخول عنوة فاستغث نجب نداءك .

فلم يجد لوبين بداً من الامتثال ، فذهب منقبض الصدر وبقي الراهب عند باب القاعة وهو يقول في نفسه : ثكلتني أمي ان كنت أعرف الغرض من هذا الاجتماع السري ، ولكني أمرت بحراسة القاعة كا أمرت لوبين بحراسة الرواق وأنا واياه لا نعلم من الأمر شيئاً .

وفي الساعة التاسعة والنصف، قدم أشهر شعراء باريس في ذلك العهد ، وهم ستة فدخلوا الى قاعة المائدة ، وبدأ عميدهم الكلام فاخبر رصفاؤه بأمر الضيوف الذين قدموا لحضور حفلتهم السرية ، وانهم جميعهم من أعظم النبلاء .

فاعترضه أحدهم قائلا : كيف ساغ لهم حضور مجتمعنا ، ألا تخشى

افتضاح أمرنا .

– بل سيكونون خير عون على تبرئتنا ، فليس بينهم غير الأمير والنبيل ووجودهم بيننا يثبت حسن قصدنا إذا ذاع أمر هذا الاجتماع .

وفوق ذلك فهم مسافرون الليلة بعد الحفلة ، فإذا رضيتم أن يحضروها فلندخل اليهم قبل الطعام ، وإذا كانت آراؤكم متفرقة فلنقترع شأننا في كل خلاف .

فسأله سائل عن اسماء أولئك الزائرين .

فأجابه : إنهم متنكرون وسيحضرون الحفلة والبرقع على وجوههم .

– ولكنكم ستقرأون اسماءهم في محضر الجلسة غداً .

وبعد جدال قصير وافق الجميع على القبول ، فدخل الشعراء الستة إلى تلك القاعة ، وكان فيها تسعة رجال مستترين بالبراقع ، لا يبدو من خلالها غير عيونهم وهم جازعون كأنهم ينتظرون فراغ الشعراء من حفلتهم كي يبحثوا في الشؤون التي قدموا للمباحثة فيها .

أما الشعراء فانهم حين دخولهم إلى القاعة اتشح كل منهم برداء كثير الألوان ، ووضع على رأسه شارة سوداء .

وكان في وسط القاعة هيكل يشبه هياكل الوثنيين ، وعند اسفله تيس حي ربط برباط غير متين ، وأمامه شيء من العشب لا يستطيع الوصول اليه وهو يرمقه بعين تدل على استحكام الجوع منه .

ثم جعلوا يبخرون التيس والهيكل ، ويطوفون حولها وهم ينشدون الأناشيد على طريقة عباد الأوثان .

حتى إذا فرغوا من اناشيدهم وقف عميدهم وتلا خطاباً ناجى فيه آلهة الحرية والاحراج والغابات ، وجعل يظهر مظالم الملك وعسف رجال الدين ورضوخ الشعب تحت نير الظلم والاستعباد مستطرداً من ذلك الى الحض على الثورة وكسر تلك القيود ، وان الشعب لم تعد تعوزه غير الارادة فيهب هبته

ويطلق لنفسه السراح من تلك الاصفاد .

وبعد ان ذكر الداء والدواء نظر الى ذلك التيس المربوط وأمامه العشب لا يقدر على الوصول اليه قال : لا أرى مثلكم إلا مثل هـــذا التيس ، فانه إذا وخز وخزة شديدة أسالت دمه هبت فيه قوة أعانته على قطع الرباط والبلوغ الى ذلك المشب .

وكذلك انتم معشر المظلومين والبؤساء فاذا ثار بكم زعماؤكم وسالت قطرات من دمائكم ظهرت فيكم تلك القوة الكامنة فثللتم عرش الظالم وبلغتم ما تريدونه من الحرية .

وعند ذلك استل مدية وهجم بها على التيس فطعن بها عنقه طعنة اسالت دمه فلما أحس التيس بألم الطعنـــة نفر وشد على رباطه فقطعه واندفع إلى ذلك العشب يأكل منه غير مكترث لدمه السائل .

فتطلع الخطيب عند ذلك إلى اخوانه الشعراء وقال لهم : ليست قيـــود الناس أشد من رباط هذا التيس ، وليست قوتهم اضعف من قوته ، فخزوهم بخناجر اقوالكم وعلموهم كيف يثورون فيعرف كل حده ويقف عنـــده ويعلم الملك ورجال الدين ان ايدي الشعب فوق ايديهم العاتية .

وكان يخاطب الشعراء دون ان يلتفت الى بقية الحاضرين ، فلما أتم خطبته صفقوا له تصفيقاً شديداً فعادوا الى ما كانوا عليه من الطواف حول الهيكل وهم ينشدون انشودة ملؤها الطعن برجال الدين .

حتى اذا اتموا الطواف خرجوا من تلك القاعة إلى قاعة الطعام دون أن يلتفتوا إلى الضيوف المتنكرين ، فلم تمر هنيهة حتى علت اصوات ضحكهم بين رنين الأقداح .

وكان باردليان يتطلع من ثقب الباب ويسمع كل ما يجري فدهش ، ولم يفهم شيئاً من اسرار تلك الصلاة والأناشيد والطواف حول الهيكل وتنكر الزائرين دون الشعراء وعدم مبالاة الشعراء بالزائرين .

الى أن بات الزائرون وحدهم وكشفوا البراقع عن وجوههم بعد أن خلا المكان .

فزادت دهشة باردليان إذ عرف اكثر اولئك المتنكرين فقد كان اول من كشف القناع منهم الأسقف سوربين وهو رئيس اساقفة باريس في ذلك العهد فانه كشف قناعه مغضباً وقال :

أيحضر مثلي هذه الحفلة المنكرة وليس فيها غير البدع والتجديف بالدين والطعن برجاله ، اني إذاً من الأغرار وقد كان يجب علينا ان نجتمع في غير هذا المكان الذي دنسه الكفر .

فكشف رجل آخر قناعه واجابه قائلاً :

هون عليك يا نيافة الأسقف فاننا لو خيرنا لاخترنا ، ولو وجدنا اصلح من هذا المكان للاجتماع به لما جئناه ولكننا بتنا في موقف شديد وقد بثت حولنا العيون والأرصاد ، فلو خلونا حتى في منزلك لما امنا ان نهاجم فجأة ونساق عنوة الى الباستيل .

وكان هذا المتكلم كوسين رئيس الحرس الخاص في بلاط الملك .

فاكبر باردليان أمر خيانته ، ولم يكد يثوب من دهشته بعد سمـــاع حديث الرئيس ، حتى رأى الدوق هنري دي كيز ، وقريبه الكردينـــال دي لورين .

فالتفت الكردينال الى الأسقف وقال له لندع الآن أمر هؤلاء الشعراء وما جاهروا به من المبادىء فسينال كل عقابه ولننظر في شؤوننا .

ثم التفت الى رئيس الحرس وقال له : هل فحصت الأبواب يا كوسين ؟

— نعم يا سيدي وأنا ضمين الأمان .

فخاطب الدوق دي كيز عند ذلك جميع الحاضرين قائلاً :

لنبحث الآن في ما أتينا لأجله . وأنت يا سيدي الأسقف خفف روعك فسيكون ما تريد ان يكون .

ومتى اقتربت الساعة وتولى عرش فرنسا من يجب أن يتولاه يبطل الكفر من هذه البلاد ولا يجسر رجل أن يفتكر بما جاهر به هذا الشاعر .

فلنبحث الآن فاني مستعد للبحث .

فتطلع الجميع الى الدوق بنظرة دلت على الاحترام الشديد ، وبدأ الدوق الحديث ، فسأل قريبه الكردينال :

ماذا صنعت أنت ايها الخال العزيز ؟

فاجابه الكردينال قائلا :

اني فتشت صناديق الأديرة تفتيشاً عاماً فوجدتها مكتنزة بالأموال وكرهت أن تفسد كثرة المال أخلاق الرهبان فاخذت منهم فضول المال وهي كافية للمشروع كافلة نجاحه .

فاجابه الدوق : لا ريب انك من اكابر علماء الاقتصاد .

وأنت يا حضرة مارشال دي تافان : ماذا فعلت ؟

فأجابه المارشال بملء الايجاز : لدي الآن ستة آلاف فارس متأهبون للزحف .

— وأنت يا ماريشال دي دامفيل ماذا فعلت ؟

فالتفت باردليان فرأى ان هذا الماريشال هو نفس الرجل الذي انقذه من قطاع الطرق فوهبه جواده كالور ، أي هنري دي مونمورانسي .

أما هنري دي مونمورانسي صاحب تلك الجناية الهائلة التي عرفها القراء في بدء هذه الرواية ، فقد أجاب الدوق قائلا :

لدي يا سيدي أربعة آلاف محارب مسلحين بالبنادق وثلاثة آلاف فارس ، ولكني أطلب النظر في الشروط .

فقال له الدوق : لقد عرفنا شروطك فهي سجن أخيك فرنسوا وتعيينك في مكانه رئيساً لأسرة مونمورانسي وتقليدك منصب أبيك وهو امارة الجيوش ، أليس كذلك ؟

فانحنى هنري اشارة الى المصادقة ، وتطلع باردليان اليه فرأى بارقاً ناريا من الحقد قد نفذ من عينيه .

وعاد الدوق الى سؤال الحضور فقال : وأنت يا موسيو كيتالين ؟

— أما انا فاني بصفتي مدير سجن الباستيل فعلي ان احتفظ بذلك السجين العظيم ، وعليكم ان تسلموني اياه على اني أتعهد ان لا ادعه يخرج من السجن إلا الى المدفن .

فقال باردليان في نفسه والعرق ينصب من جبينه : ترى من عساه يكون هذا السجين العظيم غير الملك نفسه .

والتفت الدوق إلى كوسين فقال له . وأنت بماذا تتعهد ؟

— إني أتعهد بأن يكون حرس اللوفر أطوع لي من البنان ، وأنني لدى أول أمر يصدر اليّ منكم ، أقبض على ذلك السجين وأحمله بمركبة إلى الباستيل .

فقال الدوق : وأنت يا مارسيل ؟

فوقف مارسيل وهو رجل ضخم الجثة هائل الخلقة فقال :

— إني شيخ مشايخ الحارات ، وان جميع العامة يمتثلون لي من الباستيل إلى اللوفر .

— وأنت يا حضرة الأسقف ؟

فأجابه رئيس الأساقفة قائلا :

— إني سأبدأ غداً باصدار الأوامر إلى جميع القسس في جميع الكنائس فيحملون على شارل حملات منكرة ويلقبونه بحامي الكفار ، ومؤيد الكفر والبدع .

فأطرق الدوق دي كيز مفكراً كأنه يتردد قبل الاندفاع في هذه المؤامرة الهائلة .

وكان الجميع يحترمون سكوته إلى أن قطع مارشال دي تافان خيط

تصوره فقال له : وماذا نصنع بالدوق أنجو والدوق النسون ؟
فارتعش الدوق دي كيز وقال : أخو الملك ؟
وقال رئيس الأساقفة : إننا نقطع رأس الحية ونتبع بها الذنب .

فوقف الدوق عند ذلك وقال : لقد كفى ما فعلناه اليوم أيها السادة ، لقد اجتمعنا وعرفنا على ماذا نعتمد للبلوغ إلى غايتنا العظمى فاعتمدوا علي وثقوا بي .

وليكن اعتمادكم علي في نجاح الغاية وثقتكم بي في تنفيذ مآربكم على ما وعدتكم به ، فما أنا من أهل النكث بالعهود وسينال كل منكم ما يبتغيه ، فاعلموا ان الساعة الرهيبة قد دنت وسترد اليكم أوامري فتعملون بها ، أما الآن فلنفترق كي لا نثير الظنون .

فوقفوا جميعهم وجعل كل منهم يدنو من الدوق فيحييه تحية الملوك كأنه قد استولى على العرش ويقبل يده بملء الاحترام .

ولما فرغوا من ذلك كان الدوق والكردينال أول المنصرفين فخرجوا من الغرفة السوداء المقيم فيها باردليان .

ولكن باردليان كان قد أسرع في النزول إلى الأقبية .

وخرج بعد الدوق رئيس حرس اللوفر ورئيس الأساقفة والمارشال دي تافان .

ثم تلاهم شيخ المشايخ ومدير الباستيل .

ثم انطلق في أثرهما هنري دي مونمورانسي . وقد خرج وحده .

ولما انصرف الجميع رجع باردليان إلى الغرفة وهو مصفر الوجه من هول ما رأى وسمع .

لقد أوقفته الصدفة على سر هائل فجعل يرتجف لهذا السر خوفاً وهو لا يخاف كرات المدافع .

فإن هذا البطل الذي لقي صدمات شعب برمته غير جازع واستقبل

الموت تحت أنقاض ذلك المنزل الذي هدمه وهو باسم ، فرق وجزع لهذا السر العظيم الذي تملك به أولئك المتآمرين فباتت حياتهم بيده أو تملكوه فباتت حياته بأيديهم . فإن الدوق دي كيز إذا عرف أن باردليان وقف على سر المؤامرة قتله بلا ريب .

ولم يكن باردليان يرهب الموت ولكنه كان يخشى المكائد ، فقد تمثل له ان الدوق وقف على أمره ، وانه يرى في كل زاوية رجالاً كامنين له ، وانه يجد السم في الخبز الذي يأكله والشراب الذي يشربه ، فلم يعد يستطع أن يعيش عيشته السابقة ، لأن الموت كامن له بالمرصاد ، ولا يعلم أين هو فيلقاه .

ثم تمثل له ان الدوق والمتآمرين قد لا يعلمون بشيء من أمره وفي هذه الحالة ماذا يجب أن يعمل ؟

أيكتفي بالوقوف وقفة المتفرج على هذه المؤامرة الشائنة .

كلا . لأن نفسه العظيمة كبرت عن هذه الجريمة الشنعاء ، فإن باردليان لم يكن يحب الملك ، بل انه لم يكن يعرفه ، ولكنه قال في نفسه : ان هذا الملك ملكي فلا أسكت عن المؤامرة مهما كان من إساءته إلى الشعب .

وقد تمعن ملياً في أمر هؤلاء المتآمرين ثم قال :

— ويح لهؤلاء الجاحدين إن كلا منهم مدين لهذا الملك الذي يريدون خلعه بمنصبه وجاهه ، من الدوق دي كيز إلى الكردينال إلى المرشال مونمورانسي إلى مدير الباستيل ، ولو كان في نفوسهم ذرة من الشرف لما أقدموا على هذه الجريمة المنكرة وجحدوا فضل مولاهم .

ومع ذلك فماذا أصنع ؟ أأبوح بسرهم للملك ؟ معاذ الله أن أفعل هذا الفعل الشنيع ، وأنزل نفسي منزلة الوشاة وأسافل الجواسيس ، إذن ماذا أصنع ؟

وقد مرت هذه التصورات في خاطر باردليان بسرعة البرق ، ثم هز

كتفيه شأنه حين تشكل عليه الأمور فستر وجهه بردائه وخرج من الغرفة إلى الرواق .

وكان لوبين لا يزال واقفاً على الباب وقد حاول أن يقفله بعد خروج مونغورانسي ليقينه ان جميع المتآمرين قد انصرفوا ولم يبق منهم أحد .

ولما رأى بارداليان قادماً وقد ستر وجهه بردائه اكبر وجوده في ذلك المكان وتحول ذهوله إلى رعب فقال له بلهجة المنذعر : ماذا تفعل هنا ؟ ومن أين أتيت ؟

غير أن بارداليان لم يمهله أن يتم سؤاله فصدمه صدمة شديدة القته على الأرض ووثب مسرعاً إلى الشارع قبل أن يعرفه لوبين .

وحده فاضيه منتدى ليلاس

- ١٧ -

جرأة بارداليان

كانت أبواب الفندق الذي خرج بارداليان من بابه السري مقفلة في تلك الساعة وكذلك المخازن المحيطة به .

وكان جميع سكان ذلك الشارع نياماً وقد أقفلت نوافذ المنازل ، وأقفر الشارع من المارة فعم السكون وساد السكوت .

وكانت باريس التي يبلغ عدد سكانها اليوم ثلاثة ملايين لا تحتوي على اكثر من مائتي الف نسمة ، وهي اليوم عاصمة العواصم ، وأم المدائن ، ولكنها كانت في ذلك الحين تشبه القرى في هذه الأيام ، وهي كثيرة الوحول مخربة

الشوارع قذرة الأزقة ، إذا أظلم الليل أسرع الناس إلى بيوتهم ولم يبق في الشوارع غير اللصوص وقطاع الطرق ، فمن اضطر إلى الخروج من منزله في الليل كان من أهل الجرأة والاقدام أو خرج في موكب من الحراس .

فلما برح هنري دي مونغورانسي الفندق سار غير هياب في شارع سانت دانيس ، حتى إذا توسط الشارع سمع لغطاً ووقع أقدام فقال في نفسه لا شك انهم من اللصوص . فجرد خنجره ووقف متأهباً مختبئاً في زقاق إلى أن يمر القادمون .

ولكنه لم يطل وقوفه حتى سمع من لهجة أولئك القادمين وارتفاع أصواتهم بالحديث ما استدل منه انهم غير لصوص فالتف بردائه متستراً وجعل يصغي إلى ما يتحدثون عنه حين مرورهم به ، فسمع أحدهم يقول لرفاقه : لا تعجبوا أيها السادة ، ولا تضحكوا فإن لهذه المرأة إسماً .

فارتعد مونغورانسي وقال : ماذا اسمع ان هذا الصوت صوت الدوق دي أنجو .

ثم سمع أحد رفاقه يسأله قائلاً : ما اسم هذه المرأة يا سمو الدوق ؟

- إنهم يلقبونها في شارع سانت دانيس ، بالمرأة السوداء ويدعونها السيدة حنة .

- ما هذا الاسم ، انه يدعو الى التشاؤم .

- ربما ، ولكني لا أبالي باسم المرأة ما زالت ابنتها حسناء ، وأية فتاة أجمل من لويزا ، فإن عيني لم تقع على أبدع منها وسترون ما رأيت ، فاني أريد ..

وهنا ضاع صوت الدوق بالهواء فلم يعد يسمع هنري دي مونغورانسي شيئاً أو اكتفى بما سمع ، فإنه لم يكد يسمع اسم حنة ولويزا ، حتى اختلج قلبه وارتعشت أعضاؤه ، فانطلق في أثر الدوق دي أنجو ورفاقه دون ترو ، فإن هذين الاسمين قد صعقاه وذكراه وجده القديم ، فهاج غرامه في صدره هياج

البراكين وجعل يقول في نفسه :

ترى من عسى أن تكون حنة وابنتها لويزا ، إن لم تكن هي ؟

ولذلك عول على أن يعرف الحقيقة ولو افضى به الأمر إلى سؤال الدوق أخي الملك .

ومشى في أثر الدوق ورفاقه وكانوا قد تقدموه فلحقهم على قيد بضع خطوات ، وجعل يسير وراءهم وهو يقول : ما هذا الغرام القاتل ، أيمر بي ستة عشر عاماً لا أراها ، ثم اذا ذكر امامي اسمها رجع غرامي القديم إلى شد ما كان عليه .

ثم اضطربت أفكاره وامتزج غرامه بالخوف فقال : لكن إذا كانت هي بعينها ، وكانت مقيمة في باريس مع ابنتها ، ثم اذا علم أخي فرنسوا بوجودها وأعانته الصدفة على الاجتماع بها ، وعرف خيانتي ، فماذا يكون من أمري معه .. انه يتصدى لي كما تصدى لي في غابات الكستنا ويناقشني الحساب ، فماذا أقول ومن يكون ترجماني غير السيف .

وهنا مسح العرق الذي كان ينصب من جبينه ، وضحك ضحكاً هائلاً وأبرقت عيناه ببارق دل على ما تهيج في قلبه من براكين الحقد والانتقام ، فقال : كلا انني لا انتظر أن يستولي الدوق هنري دي كيز على عرش فرنسا كي أغدو رئيساً لأسرة مونمورانسي ، لقد طالت حياة أخي فرنسوا فليمت إذ لم يبق بد من موته .

وعند ذلك رأى الدوق ورفاقه قد وقفوا عند منزل هنري ، فاستند هنري مونمورانسي على الجدار ، وجعل ينظر ما يفعلون ويسمع ما يقولون ، فسمع الدوق أنجو يقول : اين المفتاح يا مورفر ؟

— انه معي يا مولاي

— إذاً هاته وتقدموا معي إلى الباب .

فقال هنري في نفسه : لا بد لي أن أعلم ما يصنعون .

ثم خرج من مخبأه وهم أن يتقدم ولكنه إضطر الى التوقف فجأة ذلك انه رأى رجلا برز لهم عند باب المنزل وبادرهم قائلا بملء السكينة : قسماً ببيلاطس وباراباس انكم أيها السادة تكرهونني على مخالفة والدي فلتسقط تبعة هذا العصيان على رؤوسكم

فتراجع الدوق دي أنجو منذهلاً وهو يقول : من هذا المجنون ، وكيف أتى ؟

وقال موجيرون : انه الرجل الذي لقيناه منذ حين . ثم خاطب الرجل قائلا : أراك أصبحت حارساً على باب منزلك لا تفارقه .

فأجابه بارداليان قائلا : هو ذاك فانني أحرسه في النهار لمعاقبة السفهاء الذين يضحكون مستهزئين .

فقال له كاليس : وفي الليل ؟

— لوقايته من اللصوص

فهاج غضب الدوق وقال له : كفى أيها المهزار فاذهب من هنا .

فالتفت بارداليان الى موجيرون وكاليس وبقية العصابة فقال لهم أرجوكم ان تمنعوا خادمكم عن المداخلة في شؤوننا أو أؤدبه ابلغ تأديب .

فارتعد رجال العصابة غيظاً وقالوا : ويحك أيها الشقي اننا لا نمهلك الى الغد فنقتلك بل يجب أن تموت الآن .

فاستل بارداليان حسامه ، وهجم مورفر عليه من غير ان يفوه بكلمة ، ولكنه لم يلبث ان تقدم حتى صاح صيحة ألم ، لأن بارداليان ضربه بحسامه كشحاً ، فوقع على وجه مورفر وقع سوط من الفولاذ وجرحه جرحاً كبيراً .

ثم رجع الى موقفه وهو يقول انكم أبيتم تأجيل المبارزة الى الصباح ، فليكن ما تريدون ..

لكن ما عسى يقول أبي إذ وجدني في هذا الموقف . انه يلومني بلا

ريب فلتسقط عليكم تبعة اللوم .

وعند ذلك هجم عليه موجيرون وهو يرغي ويزبد كالجمال فضربه بارداليان على يده ضربة اطارت حسامه .

فهجم كاليس بدوره ، لكن الدوق قال بلهجة الآمر توقف يا كاليس .
ثم حال بينه وبين بارداليان واقترب منه وهو من غير سلاح .
فأسند بارداليان رأس حسامه على جزمته ووقف ينتظر مـا يريد أن يقوله الدوق .

واما الدوق فقد قال له : انني اعترف لك بالبسالة والجرأة النادرة ، ولكنك قلت منذ هنيهة قولاً ستكون عليه من النادمين حين تعرف من الذي يخاطبك .

فأجابه : لا أنكر انني اسأت اليك بوضعك في منزلة الخدم ، لذلك أعتذر عن تلك الاساءة .

– وانا قبلت اعتذارك ، أما وقد زال بيننا سوء التفاهم فلابد لي أن اقول لك بإخلاص ان لي شأناً في هذا المنزل .

– ولماذا لم تسرع بهذا القول يا سيدي ؟ فقل اي شأن لك فيه ؟

– شأن غرام .

الحق انني لم أكن مرتاباً في صحة ما تقول .

– اذاً ستدعنا وشأننا وتذهب في شأنك .

فأجابه بارداليان بسكينة : كلا !

– احذر عاقبة هذا العناد فقد اشتهر عن الملك انه قليل الصبر ، ولكن صبر اخيه اقل ..

وقد صرح الدوق هذا التصريح وحاول ان يتعالى اظهاراً لعظمته فانه كان قصير القامة حتى ان رأسه لم يبلغ كتف بارداليان .

اما بارداليان فانه تظاهر انه لم يعرف ان الذي يكلمه هو اخو الملك ،

فأجابه بلهجة بساطة قائلاً :

– يسوؤني يا سيدي ، على ما شرفتني به من صداقتك الحديثة ، ان اضطر الى رفض طلبك ، فألتمس منك باسم هذه الصداقة ، ان لا تلح بالسؤال .

فاصفر وجه الدوق من الغضب ورفع يده يحاول صفع بارداليان .

ولكنه شعر في الوقت نفسه أن رأس سيف بارداليان قد بلغ إلى عنقه فهاج رفاق الدوق هيـاج المجانين ، وركضوا إلى مولاهم فابعدوه وحالوا بينه وبين بارداليان ، وعنـد ذلك قال كاليس ، لنهجم على هذا الوقح فلم يبق بد من قتله .

غير أن الدوق منعهم عن الهجوم وقال لهم بصوت يتهدج من الغضب والخجل : أرجعوا فلا حيلة لنا اليوم مع هذا الرجل فان موجيرون جريح وكذلك مورفر ، فهلم بنا نذهب الآن وسنعود ونكون كثيرين

ثم التفت إلى بارداليان وهو ينظر نظر المحترس وقال له إلى اللقـاء وستردك اخباري .

فأجابه بارداليان مبتسماً أرجو أن تكون حسنة .

وبعد هنيهة توارت العصابة عن الانظار ، فوقف بارداليان نحو ساعة لا يفارق الباب ، وهو يخشى أن يعود الدوق كما انذر .

فلما مضت ساعة ولم يعد أيقن أنه غير عائد تلك الليلة ، ففتح باب الفندق وصعد إلى غرفته .

وهناك فتح النافذة وأقام ساعة أيضاً يراقب الشارع فلم ير بشراً .
وكانت نافذة غرفة لويزا مقفلة وهي نائمة دون شك

أما بارداليان فإنه أوشك أن يندم على مـا فعل ، فإنه عرف أخا الملك حق العرفان ، وأدرك خطورة موقفه الحرج لا سيما وأن الدوق دي أنجو ، وهو ولي العهد ، كان محبوباً في ذلك الزمن من الشعب ، فإنه أبلى في حروب

الهوكينوت الكبرى بلاء حسناً ، وأظهر من الحنكة والبسالة مـــا كلله بأكاليل الفخر .

وقد أدرك بارداليان أنه بات في أشد حالات الخطر ، فإن الدوق إذا لم يعرفه اليوم فلا بد أن يعرفه غداً لاشتهار أمره بين الناس بعد تلك المعركة التي قاوم فيهـا الشعب دفاعاً عن ملكة نافار . فقال في نفسه : لا شك أني ارتكبت خطأً لا يغتفر ، فان الدوق إذا عرفني بت لا محالة من الهالكين . وأية فائدة لي من التعرض لهؤلاء الأشراف . ابلغ من جرأتي وقحتي أن لا احترم شقيق جلالة الملك ...؟

ويح لنفسي لقـد ذهب مني كل شعور حي ، وفقدت كل عاطفـة احترام وخالفت أبي في كل ما أوصاني به ، فأي عقاب يفي بجريمتي بعد هذا ؟

وبعد ، فأي دليل صريح وجدته يدل على ان الدوق كان ينوي اختطاف لويزا ، وهذا البيت كثير السكان مزدحم بالنساء والفتيات . ألا يمكن أن يكون مطمحه إلى غير من أحب .

وبعد أن شتم نفسه اقبح شتم حكم أن للاقدار يداً في شؤونه تديره كما تشاء لا كما يريد ، وعزم عزماً أكيداً في تلك الساعة على أن ينهج حسب وصية أبيه وان لا يخالفها في شيء .

ولم يكن بارداليان من أهل البلاهة ، ولم يكن بسيط القلب كما كان يبدو من بعض اعماله ، فانه كان يتكلف البساطة تكلفاً حين يحتاج اليها .

ولكنه كان في عصر رخصت فيه النفوس وبات المجد كل المجد فيه للسيف والشريف من بلغ بالحسام والأقدام مـا يبلغه الناس اليوم بالحيلة والسياسة ، فكان الناس يهاجمون ويدافعون غير مكترثين للاسباب .

ولذلك كان يود بمـلء رضاه ان يعمل حسب وصية أبيه . غير أن الشباب ومقتضيات ذلك العصر كانا يدفعانه إلى العصيان ، فيندفع في كل مأزق ويلقي بنفسه في كل تيار ، فاذا خرج من تلك المضايق ذكر وصية أبيه ونـدم حين

لا ينفع الندم .

وآخر ما نقوله في وصف هذا البطل انه لم يكن يعرض نفسه كل حين للموت ابتغاء مجد أو انتصار لغرض نبيل ، بل كان يقاتل لانه يلذ له القتال .

وأخيراً قال في نفسه ان مثل الدوق دانجو على جلال قدره وسمو مكانته لا يليق به ان يتدانى إلى اختطاف بنات لا نصير لهن ، فهو قد نال ما يستحقه من العقاب .

ثم هز كتفيه كأنه قد وجد عزاء بهذه النتيجة ، ولكنه عاهد نفسه ان ينهج في المستقبل الحكمة وان يحافظ على وصية أبيه بقدر الامكان .

وعند ذلك تذكر انه اتفق مع موجيرون وكاليس على المبارزة في الصباح فقال في نفسه : اني جرحت أحدهما جرحاً بالغاً ، وسأبحث عن فرصة صالحة للتنكيل بالآخر ، وأما ذهابي إلى اللقاء فهو غرور محض لا يقدم عليه عاقـل فاني لا أجد هذين المتبارزين ، بل أجد جميع أعوان الدوق فينهبون جسمي بسيوفهم ، وإذا ابقوا علي ذهبوا بي إلى الباستيل .

ولما بلغ إلى هـــذا الحل المأمون بعد طول الاجهاد والتفكير ، اطمأن وارتضى ونام نوماً هادئاً وهو يحلم بلويزا .

ولنعد الآن إلى هنري دي مونمرانسي ، فقد تركناه مختبئاً في عطفة الزقاق يراقب ما يحدث ، فرأى وسمع كل ما جرى دون ان يعرف بارداليان ، فانه لم يره غير مرة واحدة في ظلام الليل منذ بضعة أشهر .

وقد لبث واقفاً في مكانه فرأى تداخل بارداليان وذهاب الدوق مع رفاقه ودخول بارداليان إلى الفندق .

فلما وثق أن الشارع بات خالياً خاوياً خرج من الزقاق وذهب فوقف بازاء ذلك المنزل الذي كان الدوق يحاول الدخول اليه

وهنا عاد الى سؤال نفسه يقول :

من هي حنة وابنتها لويزا .. انها هي دون ريب ، فان الاتفاق قد يكون

باسم لا باسمين . انهـا هي دون ريب ، ولكن يجب أن أتأكد وسأعود في النهار .. ولكن الدوق قد يخطفها مع ابنتها قبل عودتي .. إذاً لا بد لي من البقاء هنا إلى أن أقف على الحقيقة .

وكانت عيناه شاخصتين إلى المنزل والافكار المضطربة تجول في خاطره فتتمثل له تلك الليلة التي ارتكب فيها جريمته الهائلة .

فبينما تهيج تلك الذكرى غرامه القديم يفتكر باخيه فتهيج أحقاده وتضطرب أفكاره اضطراب الرياح حين العاصفة ، وتتلبد تلبد الغيوم السوداء ، ثم تحتك بعضها ببعض فتقدح ناراً يخرج من عينيه خروج البرق من خلال الغيوم

وقد مضى الليل وهو في موقفه وطلع النهار ، وأخذت الدكاكين تفتح أبوابها والناس يمرون في الشارع ويستغربون وقوف هذا الرجل قرب ذلك البيت ، فاذا دفع الفضول أحدهم الى الدنو منه بغية سؤاله نظر اليه نظرة منكرة ملؤها الوعيد فابتعد .

ولبث هنري دي مونتمورانسي في موقفه حتى تعالى النهار وفتحت نافذة في أعلى المنزل وبرز منها رأس امرأة لحظة ، ولكن هذه اللحظة كانت كافية ، فان هذا العاشق القديم والأخ المنتقم الخائن صاح صيحة دهش إذ عرف ان هذه المرأة حنة دي بيانس زوجة أخيه .

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

- ١٨ -

كاترين دي مدميس

في الساعة التاسعة من المساء كانت كاترين دي مدميس وريجياري الفلكي ينتظران قدوم الشفاليه باردالبان في ذلك المنزل الكائن على الجسر الخشبي حسب اتفاق الفلكي وباردالبان كما يذكر القراء .

وكانت الملكة جالسة حول مائدة وهي منهمكة في الكتابة ، بينما كان الفلكي يسير في الغرفة ذهاباً واياباً بخطوات بطيئة وهو ينظر من حين إلى حين إلى ما تكتبه الملكة .

ولم ينظر الى الكتابة خلسة ، بل ينظر كمن يحق له الاطلاع على أسرار أم الملك في الظاهر والملكة الحقيقية في الباطن .

وكانت الملكة قد كتبت كثيراً من الرسائل وختمتها وهي مع ذلك لا تزال تكتب ، فلا تكاد تفرغ من كتاب حتى تبدأ سواه .

والغريب في هذه الملكة انها كانت تشبه بسرعة خاطرها كبار المتمرنين من الكتاب ، فلا تقف عند تعبير ولا تكتب كلمة لغو ولا تمحو حرفاً ولا تفكر قبل الانشاء كأنما أفكارها مخزونة بذلك القلم .

فبعد أن فرغت من كتاب كبير كتبته إلى ابنتها ملكة اسبانيا بينت لها فيه حالة الاحزاب الدينية في فرنسا ، وطلبت اليها ان تقنع زوجها ملك اسبانيا بالمداخلة ، كتبت الى المهندس فيليبار دلورم الخاص بها ترشده

ارشادات يقصر عنها كبار المهندسين عن قصر التويلري .

ثم كتبت إلى كوليني وهو من كبار زعماء الهوكينوت كتاباً رقيقاً كي تؤكد له ان معاهدة الصلح ستكون مرعية ثابتة . ثم كتبت كتاباً إلى البابا ، وآخر إلى رئيس التشريفات تأمره باعداد حفلة .

وكانت بين كل كتاب وآخر تنظر إلى الفلكي وتقول له : أيأتي هذا الشاب ؟

فيجيبها : أنه يأتي دون ريب ، فهو فقير ولا عضد له فلا يضيع مثل هذه الفرصة .

– أنه باسل كثير الأقدام ، لم أر أشد منه جرأة ولا انفذ منه حساماً

– هو ذاك ، لقد أصبت في وصفه ، ولكن بأية مهمة تريدين ان تستخدميه ؟

فوضعت الملكة القلم على المائدة ونظرت الى الفلكي نظرة معنوية فقالت : إني محتاجة إلى الرجال الأشداء يا رينيه ، ولا سيما من كان منهم مثل هذا البطل .

– ولكن لدينا مورفر .

– صدقت ، غير أن مورفر بات يقلقني ، فانه يعرف الكثير من أموري وفوق ذلك فقد جرح أمس بمبارزة ، لأن يده قد ارتجفت ، وقد تحدث حادثة مفجعة في دقيقة هائلة يتوقف فيها مستقبل مملكة بأسرها على سيف رجل ، فاذا اضطرب ذلك السيف لحظة في يد ذلك الرجل قضي على تلك المملكة .

أما هذا الفتى الذي ننتظره فان يده لا تضطرب يا رينيه .

– وسيكون لنا يا كاترين فاطمأني .

فختمت الملكة الكتاب الأخير الذي كتبته وغيرت الحديث فقالت له :

أعرفت يا رينيه ان القصر الذي بنيته لك قد تم ، وقد أعطوني اليوم مفاتيحه ؟..

– لقد شاهدته ، يا ملكتي العزيزة من الخارج ، وهو من أجمل القصور .

– وماذا تقول في ذلك البرج الذي بنيته لك في قمته ؟

– أقول انه لم يشد مثله الى الآن في باريس ، وإنه جاء طبقاً لما أتمناه ، فهو خير مرصد يدني مني الكواكب التي جعلها الله كتاباً مفتوحاً فوق رؤوسنا ، يقرأ فيه من يعرف غوامض أسراره ، ما سطر للانسان في لوح المقدور .

وعادت الملكة إلى حديثها ، فقالت له : أأنت واثق من قدوم هذا الفتى ؟

– كل الثقة . ولكن ما لي أراك قلقة إلى هذا الحد ؟ وما هذا التعلق بهذا الفتى ؟.. اليس لديك ما يشبه الجيش من أبطال الأشراف ، وحاذقات النساء ؟

– نعم يا رينيه ، إن لدي مائة وخمسين فتاة حسناء أستغوي بهن مائة وخمسين عدواً فأعلم ما يضمرون لي من الكيد ..

نعم إني بثثت جواسيسي في قصور الدوق دي كيز وملكة النافار ، فصرت أعلم مقاصد من يريد الفتك بي فأكون أسبق إلى الفتك به ، وأصبح قاتلة بعد ان أكون مقتولة .

نعم ... ان لدي جيشاً من الأبطال النبلاء ، أحكم بهم باريس واللوفر ... نعم ، إن لي كل ذلك ، وهي قوة هائلة ، ولكني لا أزال حذرة يا رينيه .

– ومما تحذرين ؟

فوضعت الملكة رأسها المصفر بين يديها ، ثم عادت إلى ما كانت عليه ،

فنظرت إلى الفلكي نظرة النسر ، وقالت له بصوت أجش : إني عندما أتيت الى فرنسا كان لي من العمر أربعة عشر عاماً وانا الآن في الخمسين ، فكم تكون المدة التي قضيتها ؟

فانذهل رينيه لسؤالها وقال : ستة وثلاثين عاماً .

– إذاً ، إعلم اني قضيت هذا العمر الطويل بعذاب لا يصبر عليه سواي ، ولا يطيق احتماله بشر ، والناس يحسبون إني أتنعم بنعيم الملك فكنت محتقرة مهانة مكروهة وقد بلغ بهم الكره انهم أنزلوني منزلة الخدم ، ولا جرم فقد بدأ هذا الكره ليلة زفافي .

فقاطعها رينيه قائلاً : كاترين ما هذه التذكارات المؤلمة ؟

فأجابته بصوت أبح : إني أعيد هذه الذكرى لأنها تجدد ما كادت تدفنه الأيام من الحقد ...

نعم إن إهانتي بدأت ليلة زفافي ولو عشت مائة عام أيضاً لما نسيت تلك الليلة حين أوصلني زوجي ولي عهد فرنسوا الأول الى غرفتي بعد الزفاف فانحنى أمامي وانصرف دون ان يفوه بكلمة .

وقد فعل مثل ذلك في الليلة الثانية وما تلاها من الليالي ، ولما استوى هذا الزوج على عرش فرنسا لم أكن أنا الملكة بل كانت الملكة الحقيقية حظيته ديانا دي بواتييه .

ثم تعاقبت الأيام ودرجت الليالي وهو يصليني بنار الوحدة إلى ان علمت يوماً انه يريد طلاقي ، فجزعت جزعاً شديداً وناديت كاهني واعترفت له وسألته عن السبب الذي يدعو الملك إلى طلاقي .

أتعلم يا رينيه بماذا أجاب ؟.. أجابني أن الملك يدّعي أنني شؤم على العائلة .

فاصفر وجه الفلكي وأخذ كرسياً فجلس أمامها .

وعادت الملكة الى حديثها وقالت : إني كنت شؤماً على العائلة . أميت

إني كنت . أميت كل من تمسه يدي كما كان يقول الملك هنري الثاني . ويظهر أنه كان مصيباً يا رينيه فيما يقول : لانه بعد ان شفعت بي خليلته نفسها ديانا دي بواتييه ، رجع عن طلاقي ، وبعد ان شفع بي القسيس رضي أن يجعلني زوجة حقيقية ، وبعد ان ولدت له البنين ، أعرفت ما أصيب به هؤلاء البنون ؟..

إن فرنسوا مات وهو في العشرين من عمره بعد ان حكم عاماً واحداً وكانت وفاته بعلة في الأذن لم يعرف أصلها إلى الآن غير ان امبرواز باريه قال لي انه مات بالانحلال .

وهنا توقفت كاترين هنيهة فمسحت جبينها ، ثم عادت إلى الحديث فقالت بصوت أجش :

– أنظر إلى ولدي شارل إنه يصاب كل حين بنوبات عصبية هائلة حتى إني بت أخشى ان تفضي به هذه النوبات الى الجنون وانحلال القوى العقلية كما أصيب أخوه فرنسوا بانحلال القوى الجسدية .

ثم انظر الى الدوق دي النسون ولدي الأصغر ، ألا ترى في ملامح وجهه ما يدل على سوء المصير ؟

إذاً لا يبقى من بني غير الدوق دي انجو (وهنا رق صوتها وتهدج حنواً) فهو قوي نشيط أليس كذلك ؟

نعم ، انه لكذلك .. ولكني ربيته وخبرته ، فهو لا يستطيع أن يجمع فكرين .

ثم وقفت وقالت : إن فرنسوا مات وشارل مقضي عليه بالموت وهنري سيرقى الى العرش قريباً دون شك ويضع على رأسه الضعيف ذلك التاج الثقيل الذي لا بد ان يسحقه .

ويظهر لك مما تقدم ، انه يجب ان أكون شديدة قوية لأحمل هذا العبء الثقيل ، عبء إدارة المملكة ، بينما ملكها يكون متشاغلاً عنها

بملاهي الصبى .

ثم مشت في الغرفة بخطوات غير موزونة ، وعادت الى الفلكي فقالت : نعم ، لا بد لي من إدارة المملكة كي لا تبقى تحت رحمة أسرات كيز وكوليني ومونمورنسي .

إن الدوق دي كيز يا رينيه بلغت به الجرأة يوماً انه أخذ مفاتيح قصر الملك ، فكنت أنا شبه أسيرة في البلاط وان كوليني لا هم له إلا أن ينقل الملك من أسرة بوربون وإن كثيرين غيرهما يحاولون تمزيق هذه المملكة وأنا أذود عنها دفاعاً عن حقوق ولدي .

— أي ولد تعنين ؟

— ولدي الدوق انجو الذى سيملك قريباً فهو وحده الذى يحبني ويعرفني حق العرفان .

فأطرق رينيه برأسه وقال بصوت خافت كأنه خشي ان يسمع والآخر يا سيدتي ، إنك لم تذكريه بحرف ؟

فارتعشت الملكة وقالت له : أي ولد آخر تعني ؟. وماذا تريد بهذا القول ؟

ثم نظرت اليه نظرة هائلة لم يطق احتمالها وقالت : أراك كأنك فقدت الصواب ، إحذر بعد الآن ان تعود إلى مثل هذا السؤال .

— صدقت ، ولكني لا أجد بدأ من الكلام . لا تخشي يا سيدتي إذ ليس من يسمعنا فقد اتخذت الاحتياط ولا يوجد سوانا في هذا المنزل وإذا كنت قد عولت على الكلام فليس لأن هذا السر أرهقني وقضى علي بالهم الملازم ولكني سألت النجوم وأجابتني .

فقطبت كاترين حاجبيها وقد وجف قلبها ، لأن هذه المرأة التي لم تكن تخاف الآثام ولا ترتعش للجريمة كانت ترتعد خوفاً من النجوم .

وكأنما رينيه الفلكي كان واثقاً من أنها ستصغي اليه بعد ان أنذرها بالنجوم

واندفع في حديثه قائلاً :

— إنك تنامين يا كاترين ملء جفنيك لاتحسبين لشيء حساباً، ولا تفتكرين بذلك الولد الآخر .

أما أنا إني لم أعرف الرقاد منذ عهد بعيد ، وإذا أنهكني التعب وغفت عيني تمثل لي حلم واحد هائل لا ينفك يعاودني كلما غفوت وأرى الأشباح نفسها تحيط بي وتجلس على سريري .

إني أرى كلما غفوت رجلاً خارجاً من قصر في ليلة حالكة الأديم ، وأرى العشيقة التي ولدته تشير اليه بيدها إشارة قاضية لا رحمة فيها .

ثم أرى هذا الرجل يبكي ويلتمس ويستشفع فلا يجد شفيعاً ولا يجاب له ملتمس لأن العشيقة قضت عليه القضاء المبرم .

يخرج هذا الرجل من القصر وقد لف بردائه الطويل طفلاً حياً يبكي ويصيح كأنه يلتمس العفو ببكائه .

ولكن الرجل كان يصم أذنيه وقد تحجر فؤاده وبات نذلاً جباناً لأنه خاف تلك المرأة .

وانطلق بذلك الطفل والقاه على سلم الكنيسة ، ثم انصرف .

فعبست كاترين وقالت له بصوت أجش : لكنك نسيت امراً يا رينيه بعودتك إلى ذكر الأشباح .

— كلا إني لم أنس شيئاً وحبذا لو تمكنت من النسيان .

وأنت تريدين اني قبل ان ذهبت بالطفل ، ووضعته على سلم الكنيسة ، وضعت في فمه نقطة من ذلك السائل الهائل الأبيض ... أليس هذا الذى تعنينه ؟

— دون شك ، لأن الطفل لا يستطيع ان يعيش بعد تجرع ذاك السم أكثر من شهرين

وقد كنت في ذلك العهد شجاعاً قاسي القلب يا رينيه ، فما ندمت لأني

أحببتك لأنك قد أيدت ذلك البرهان الذي يثبت تهتك الملكة وغوايتها ، ولكن أية فائدة من العودة إلى مثل هذه الذكرى .

نعم إني أحببتك ، لقد جئتني في عهد كان زوجي الملك يكرهني فيه على احترام خليلته ، وكان أشراف البلاط لا يكترثون لي كأني لم أكن امرأة ملكهم حتى ان الخدم أنفسهم كانوا في ذلك العهد لا يصدعون بأمر أصدره إلا متى أيدت خليلة الملك هذا الأمر .

نعم إني حين عرفتك كنت مهانة محتقرة ذليلة قانطة ، فرأيت في عينيك بارقاً يدل على الرحمة ، فمشى كلانا الى الآخر فكنا نقضي النهار بالحديث عن فلورنسا ونحيي الليل بالبحث عن النجوم .

ثم انك علمتني مهنتك فعرفت أسرار الفلك ، وعلمتني فظائع بورجيا فعرفت أسرار السموم ، وبت بفضلك أملك الحياة والموت ، وأصبحت قادرة على الانتقام كما أشاء ، فأضع الموت الزؤام في فص خاتم وفي عطر زهرة وورقة كتاب بحيث بت أشد هولا من بورجيا وأسرته الهائلة

ومن ذلك العهد بدأ دور انتقامي ، بل دور هنائي يا رينيه ، وكان ذاك بفضلك ، فجازيتك بما اشتهيت ، وكنت والد ذلك الطفل الذي تذكره الآن .

وكانت كاترين تبوح بهذه الأسرار الشائنة وتتكلم بصوت منخفض كأنها تكلم نفسها او كأنها خجلت من نفسها .

ثم عادت إلى الحديث بعد ان مسحت جبينها فقالت :

- أما الآن وقد بت الملكة المطلقة الأمر ، وانتقمت من أعدائي بما أوحاه إلي الحقد الدفين وعولت على ان أبني على أنقاض المملكة الحاضرة مملكة عظيمة تدهش العالم بأسره أراك تحدثني بأمور الماضي .

واعلم يا رينيه ان ما مضى فات ، ولا عبرة إلا في الغد ، فلماذا تحدثني بهذا الطفل ؟

إنه لا شك التقطته يد مشفقة عن سلم الكنيسة حيث وضعته ، وهو دون شك قد مات بعد التقاطه بشهرين بفضل ذلك السم الذي سقيته إياه فزج في هاوية الأبدية وهو لا يعود .

فأخذ الفلكي يد الملكة بعنف وقال : وإذا كنت قد أخطأت ؟

فارتعدت الملكة وقالت كيف ذاك ؟

- إذا كانت النقطة التي سقيته إياها غير كافيه لقتله فنجا بأعجوبة من السماء ولا يزال في قيد الحياة !

- يا لهول ما أسمع ، أيمكن ذلك ان يكون ؟

- إصغي إلي يا كاترين ... إني كنت أستشير النجوم في كل ليلة فكنت أعلم منها ان الغلام لا يزال حياً يرزق .

وكنت في كل مرة أحسب نفسي منخدعاً ولكني كنت أجد في كل ليلة ذات الجواب ، وهو ان الغلام حي .

فجعل العرق البارد ينصب من جبين الملكة وهي تكرر قولها : يا للهول يا للهول !

وعاد الفلكي الى الحديث فقال :

- إني لم أكن أخبرك بشيء من ذاك وكنت أحتمل وحدي عناء ذاك الرعب والتقريع . غير ان السكوت الآن يا ملكتي يعد جريمة ، ولم أكن في خدمتك من الخائنين .

كانت هذه الملكة من أشد الناس مقدرة على إخفاء مؤثراتها والصبر على شدائد الأمور وإظهار السكينة على وجهها ، في حين ان البراكين تثور في قلبها فكانت سكينتها وعزمها الأكيد حين ملاقاة الخطر أشد خطراً من سمومها

ولما فرغ الفلكي من حديثه عادت الى سكينتها العادية ، وقالت له بملء البرود :

— حسناً لنفترض ان الغلام حي فماذا تضرني حياته ... انه يعيش ولكنه لا يستطيع أن يعلم حقيقة مولده ...

انه يعيش ولكنه يعيش عيش اللقطاء في شارع مجهول فلا نحن نعلم اين يقيم ولا هو يعرف اسم امه .

— كاترين كفاك تجلداً لأن الغلام في باريس وقد رأيته

وعادت الملكة الى الاضطراب ، وقالت : أنت رأيته ؟. اين اين ؟

— لقد قلت لك في باريس .

— ولكن متى ؟.. تكلم .

— أمس .. إنما يجب ، قبـــل كل شيء ، ان تعرفي اسم المرأة التي التقطته وربته .

— من هي ؟

— هي جنة دي البريت ملكة النافار .

فانقض هذا الاسم عليها انقضاض الصاعقة وقالت : يا للهول ولدي حي.. أيكون برهان جريمتي بيد ألد أعدائي وأنا غافلة .

— لكنها تجهل دون شك انه ولدك .

— أسكت وكفى ، لأن ملكة النافار لم تلتقط هذا الطفــل الا وهي تعلم انه ولدي . . اني أجهل كيف اتصل بها هذا السر ولكني واثقة انها واقفة عليه .

وانت ترى الآن انه لم يبق بد من موتها لان عداءنا الآن لم يعد قاصراً على تنازع أسرتنا المملكة ، بل أصبح عداء شخصياً لا بد لواحد منا أن يلقى حتفه فيه .

والآن ، قل لي بالتفصيـــل متى وكيف رأيته ؟ وكيف عرفت هذه الامور ؟

— عرفتها أمس ... حين انصرافي من عنـــد ذلك الرجـل الذي أرسلتني اليه

— تريد به باردليان الذى انقذ ملكة النافار

— هو ذاك يا سيدتي ، لاني حين خروجي من غرفته رأيت رجلاً داخلاً اليها ، فما كدت ألمحه حتى شعرت ان الدم جمد في عروقي ، وخلت كأنما شعر رأسي قد وقف .

وان هذا الرجل كان يشبهني شبهاً عجيباً حينما كنت في الخامسة والعشرين من عمري ، بل حين رأيته خلت إني أنظر إلى مرآتي ، وقد عـدت إلى عهد الشباب .

ثم وضع الفلكي يده على عينيه كأنه يحاول طرد خيال مر به فقـــالت له الملكة : إمض في حديثك .

فأجاب : إن أول عاطفة شعرت بها إني خلت نفسي من المجانـين ، ثم خطر لي أن أستر وجهي كي لا يراني ، لأنه لو رآني لشعر دون شك بشعوري .

ولما ثبت إلى رشدي ، ورأيته دخل إلى الغرفـة التي خرجت منها ، خطر لي في الحال ما كانت ترشدني اليه النجوم ، وحدثني قلبي انه دون شك ولدي .

ثم جعلت أفتكر بك وبما يتهددك من الأخطار ، فتغاضيت عن كل شيء ولم أعد أفتكر إلا بانقاذك .

وعندما عدت في أثر الشاب ورأيته دخل إلى غرفة باردليان فوضعت أذني على بابها وسمعت كلما دار بينهما من الحديث وعلمت منه يقيناً انه ولدنا ، وان ملكة النافار التقطته وربته .

وهنا ساد السكون هنيهـــة ، لأن الملكة استرسلت إلى التصورات والتفكير .

ثم سألت الفلكي قائلة : وهو أتظنه يعرف حقيقة مولده ؟

— كلا ، وانا الضمين يجهله هذه الأسرار

— في أية مهمة زار بارداليان ؟ وأي شأن له في باريس ؟

أجاب : إنه في خدمة ملكة النافار ، وهو قد التحق بها الآن دون شك .

وعادت كاترين إلى التفكير وطال تفكيرها والفلكي ساكت واجم يحترم سكوتها خائف على ولده إلى ان طرق الباب فارتعشت الملكة وقالت : من عسى ان يكون الطارق ؟

— إنه الشفالييه دي بارداليان دون شك ، لقد واعدته على اللقاء في الساعة العاشرة وهوذا الموعد قد حان

فوضعت الملكة يدها على جبينها وقالت :

— لماذا ذهب الى بارداليان العلهما صديقان ؟

— كلا ، لانه جاءه مندوباً من ملكة النافار ، يحمل اليه شكرها على دفاعه عنها

— إذاً لا صداقة بينهما .

— على الاطلاق ، لأنه لم يره قبل هذه المرة .

فابتسمت الملكة ابتساماً وجف له قلب الفلكي وقالت له : إذهب إذاً وافتح الباب لقد وجدت مهمة لهذا الفتى الباسل . ألم تقل لي عنه انه شديد الفقر والكبرياء .

— إن فقره يعادل كبرياءه وقد بلغ بكليهما إلى أقصى الحدود .

— إذاً فهو أهل للاقدام على كل امر ، إذهب وافتح

— لكن ألا تقولين يا سيدتي على ماذا عولت ؟

— إفتح الباب فهو يقرعه المرة الثالثة

— كاترين . رحماك إشفقي على ولدي .

فمدت الملكة يدها مشيرة الى الباب فقالت له : إذهب وافتح .

وانصرف الفلكي ممتثلا وهو يكاد يتعثر باذياله .

أما الملكة فإنها اغتنمت فرصة غياب الفلكي القصيرة فرسمت خطتها ، وسكن ثائر اضطرابها . فلما دخل بارداليان لم يجد أمامه غير امرأة باسمة تدل ملامحها على الدعة ومكارم الأخلاق .

فعرف لأول وهلة انه بحضرة ام الملك وانحنى أمامها بملء الاحترام .

أما الملكة فانها ابتسمت له وقالت : أتعرف يا حضرة الشفالييه من أنا ؟

فقال بارداليان في نفسه : لقد دنت ساعة التأهب والحذر فإنها ستكذب فلأكذب قبلها .

ثم قال لها إني أنتظر أن تشرفني سيدتي بذكر اسمها

فأجابته بعظمة إنك بحضرة أم الملك .

فانحنى بارداليان إنحناء عظيماً ووقف الفلكي خائفاً من الملكة معجباً بها وبمباغتتها لبارداليان بذكر اسمها .

أما الملكة فانها استأنفت الحديث فقالت مخاطبة بارداليان : إنك أظهرت أمس من ضروب البسالة والجرأة ما يدعو الى الإعجاب بك ، لأن تصديك لشعب برمته واقتحامك غمرات الموت للدفاع عن امرأة لا تعرفها يعد من أجمل الحسنات

وكانت الملكة تتوقع أن يجيبها بارداليان الجواب المألوف في هذا المقام ، وهو ان يقول لها مثلاً : إني لم أفعل غير ما يجب علي او غير ذلك مما يشبه هذا القول .

غير أن بارداليان أجابها بلهجة كبرياء تشبه لهجتها فقال : إني عالم يا سيدتي بجمال ما صنعت .

فارتعشت الملكة وقالت : إن الذي يزيد جمال صنعك انك لم تكن تعرف هذه المرأة التي دافعت عنها

— هو ذاك يا صاحبة الجلالة .

– ولكنك تعرف اسمها الآن فيما أظن ؟
وقد توقعت الملكة منه ان يكذب غير انه أجاب بصراحة قائلاً :

– نعم يا سيدتي ، إن التي تشرفت بالدفاع عنها كانت جلالة ملكة النافار وإحدى وصيفاتها .

– وأنا أيضاً أعلم ما تعلم ولهذا أردت ان أكافئك لأنك أنقذت ملكة ، والملكات متضامنات .

وفوق ذاك إن هذه الملكة من أهلي وهي فقيرة معدمة واذا لم تستطع جزاءك توليت عنها مكافأتك إذ لا بد لك من المكافأة .

– أرجو مولاتي ان تطمئن علي من هذا القبيل ، فقد كوفئت بما أستحق .

– كيف ذاك ؟

– إن جلالة ملكة النافار أسدتني من الثناء ما يذرى باللآلىء .

– ولكن هذه القريبة العزيزة ألم تعرض عليك منصباً في بلادها ؟

– نعم لكني رفضته .

– لماذا ؟

– لأنه يستحيل علي مغادرة باريس .

– وإذا عرضت عليك أنا الانتظام في خدمتي أترفض ؟

اصبر واسمع قبل ان تجيب . .

أنت لا تريد مفارقة باريس ، وهذا الذي أريده أيضاً ، وأنت قد خاطرت بحياتك دفاعاً عن امرأة لم تكن تعرفها ، أفلا تدافع هذا الدفاع عن ملكتك ؟

– ماذا أسمع ، العل مولاتي في حاجة الى الدفاع ؟

فابتسمت الملكة وقالت : لا أنكر ان هذا القول يدعو الى الانذهال لكنه حقيقة ثابتة لأني محاطة بالأعداء من كل الجهات ، أسهر الليل والنهار لصيانة

حياة الملك وعرشه ، وأنت لا تعلم ما يحدث كل يوم من المؤامرات الشائنة حول هذا العرش .

فارتعش باردليان ، إذ ذكر تلك المؤامرة التي حدثت في الفندق المقيم به ، وأيقن انه يعرف من أسرار هذه المؤامرات أكثر مما تعرفه الملكة .

لكنه لم يجب ، ومضت الملكة في حديثها فقالت :

ثم أنت لا تعلم اني منفردة وحيدة لا مساعد لي في تأييد تاج ولدي ومنع يد الآثمين من الوصول اليه .

على ان هذا الخطر لو كان محدقاً بي وحدي دونه كما كان من قبل لما خشيته لكني أم ولا بد لي من الحياة لوقاية أولادي .

فأجاب باردليان دون أن يظهر اضطرابه قائلاً :

– ليس في الأرض شريف مستحق لهذا اللقب يتردد لحظة في تضحية نفسه لهذا الفرض النبيل . . .

إن الأم مقدسة يا سيدتي ، وخدمتها فرض إنساني ، غير ان هذه الأم متى كانت ملكة ، أصبحت خدمتها واجباً مقدساً ، لا ينفر منه الشريف .

– إذاً أنت لا تتردد في الانتظام في سلك أولئك الأشراف الذين يخدمونني فيخدمون الأم والملكة ؟

– معاذ الله أن يخطر التردد في بالي ولكني لا أعلم كيف يستطيع خامل مثلي أن ينفع جلالتك .

فبدت علائم السرور على محيا الملكة وانقبضت سحنة الفلكي وتنهد ، وقالت الملكة لباردليان :

– إني قبل ان أذكر لك كيف تنفعني أحب أن أخبرك كيف أنفعك لأنك فقير وسأغنيك ، وأنت خامل كما تقول ، فسأنفض عنك غبار الخمول وأرفعك

الى المنزلة التي يجب ان يكون فيها أمثالك وأول ما أبدأ به اني أعينك في منصب بالوفر وأجعل لك راتباً قدره عشرون الف فرنك في العام، فهل أنت راض عن هذه البداية ؟

– ليس هذا ما يعبر عنه بالرضى يا سيدتي ، لاني أحسب نفسي من الحالمين .

– كلاما أنت بحالم لان من أقدس واجبات الملوك أن يحسنوا اختيار الأكفاء من الرجال وان يكافئوهم بما يستحقون

– إذاً تفضلي يا سيدتي بتعيين واجباتي .

فسكتت الملكة هنيهة وجعل الفلكي يمسح العرق البارد المنصب من جبينه كأنه كان يعلم مراد الملكة .

أما الملكة فإنها تكلفت لهجة الحزن وأجابته قائلة :

– لقد ذكرت لك ان لي أعداء وان أعدائي أعداء الملك . وأزيدك ان جرأتهم آخذة كل يوم بالازدياد ، ولولا هؤلاء الأشراف المخلصين للعرش ، اولئك الأبطال الذين ستنتظم في سلكهم ، لبلغ الأعداء منا ما أرادوا .

وهنا أخبرك كيف أتصرف حين اجد أحد اعدائي قد اقترب مني .

إنني ابدأ باثنائه عن عزمه بالرجاء وبالوعود ، وبالدموع إذا اقتضت الحال ، وهي طريقة كنت أفوز بها على الغالب الأعم ، فإن الانسان أقل شراً مما يقولون .

– وحين لا تفلح هذه الطريقة ماذا تصنعين ؟

– ألجأ عند ذلك إلى عدل الله .

– أسأل مولاتي المعذرة ، فانني لم أفهم كل ما تريد .

– أريد انني حين اضطر ان ألجأ إلى عدل الله ادعو أحد رجالي المخلصين فأعهد اليه أن يجتمع بعدوي ويختلق سبباً لمبارزته فيخرج من هذه المبارزة

قاتلاً أو مقتولاً ، فاذا كان مقتولاً مات وهو واثق اني أبكيه وانتقم له ، وإذا ظفر بذلك العدو وأنقذ ملكته وملكه يجدنا ممن يقدرون الأعمال ، بل ممن يحسنون مكافأة الأبطال فما رأيك في هذه الطريقة ؟

– إنها طريقة طبيعية ، ومن لا يجرد حسامه للدفاع عن ملكته ؟

– وإذا أرشدتك إلى أحد أولئك الأشقياء ؟

– أذهب اليه فأبارزه ولو كان يدعى ..

وكاد يخرج من فمه اسم الدوق دي كيز ومونمرانسي فان المؤامرة التي حدثت في الفندق تجلت له في تلك الساعة وكان واثقاً ان الملكة ستذكر له اسم الدوق دي كيز .

أما الملكة فقد جال الشك في خاطرها فقالت له : أي اسم كنت عازماً على أن تلفظه ثم توقفت ؟

فعادت السكينة إلى باردليان وقال لها : إني لم أكن أقصد اسماً معيناً ، ولكني أريد ان اقول اني لا أتوقف عن لقاء عدو لمليكتي مهما بلغ هذا العدو من الشدة والبأس .

– انك تحقق ما كنت اتوسمه فيك من مخائل النبل والمروءة ، فاعلم الآن اني متعهدة باثرائك فلا تخاطر بحياتك ، فانها باتت لنا منذ اليوم ويجب أن تنهج مناهج الحكمة في جميع اعمالك .

– لم افهم يا سيدتي ما تعنين .

– أريد أن المبارزة أمر محمود مألوف ، ولكن طرق المبارزة تختلف ، فان بعضهم يترصدون عدوهم ويكمنون له حتى إذا مر بهم أخذوه غيلة وقتلوه ، وانا لا اشير عليك باتباع هذه الطريقة .

– ومن يرتكب هذه الجريمة يا سيدتي غير الجبناء ومن سقطت مروءتهم ، أما أنا فاني أبارز في الليل وفي النار ، ولكني لا القي العدو إلا وجهاً لوجه والسيف منصلت بيده ، فلتتفضل مولاتي بمعذرتي إذا لم تكن طريقتي صالحة

فانني لا أحيد عنها .

– بل هذا الذي كنت اتوقع منك ان تقوله ، وان الحكمة تقترن بالشجاعة وهي في المحل الأول ، برأي الحكماء فأنا لا أسلك أن تكون باسلا ، فقد عرفت من شجاعتك مايكفي للدلالة عليها ، ولكني أريد أن تكون حكيماً وهذا كل ما ابغيه .

– إذا كان ذلك يا سيدتي فلم يبق إلا أن تذكري لي اسم ذلك العدو الذي تريدي أن القاه .

– سأذكر لك اسمه

وعند ذلك ضم الفلكي يديه ونظر الى الملكة نظرة المتوسل

فرمته الملكة بنظرة هائلة صعقته ، فأطرق برأسه الى الأرض وتراجع

أما باردليان فقال في نفسه : لا شك أن هذا العدو الدوق دي كيز بعينه ، وأن الملكة عرفت المؤامرة كما عرفتها ، فاذا كان ذلك فأي شرف اعظم من أن ابارز الدوق .

واما الملكة فانها بعد أن رمت الفلكي بتلك النظرة الهائلة واوقفته عند حده ، التفتت الى باردليان وقالت له :

لقد تلقيت زيارة أمس يا شفاليه .

– بل أكثر من زيارة ، فقد زارني أمس كثيرون .

– وأنا أعني منهم فتى جاءك من قبل ملكة النافار .

أن هذا الفتى من أشد أولئك الاعداء الذين ذكرتهم لك فهو هائل فتاك ، وقد بت أخافه خوفاً شديداً . ومـا انا بخائفة على نفسي ، فلم يبق لي في هذه الحياة مطمع ، ولكني خائفة على ولدي شارل ، أي ملكك يا شفاليه .

فاضطرب باردليان في نفسه وذهبت امانيـه بمبارزة الدوق وتمثلت له الحقيقة الهائلة ، فقطب حاجباه واهتز شارباه وظهرت دلائل الاحتقار على محياه .

فقالت له الملكة : ما هذا السكوت العلك تتردد ؟

وقد قالت له هذا القول بلهجة المتوعد ، فكبر عليه ذلك الوعيد وزاد في كبريائه فقال لها : كلا ، اني لا اتردد يا سيدتي .

فعادت الملكة الى الملاينة وقالت له .

بورك فيك فهذا الذي كنت اتوقعه من بطل فقير مثلك اتاح له حسن طالعه ان يخدم الملوك .

فاشتد وقع هذا الكلام على باردليان وقال لها : نعم اني لا اتردد يا سيدتي فإني أرفض رفضاً باتاً .

ولم يكن وقع الصاعقة بأشد على الملكة من وقع كلام باردليان ، فقد تعودت أن ترى الرؤوس مطرقة أمامها ، وأن لا يجسر أحد على ان يرفض لها أمراً .

وقد كان يمكن ان تتوقع الرفض من باردليان ، ولكنها ما توقعت أن ينهج معها مناهج القحة ، وان يرفض هـذا الرفض الصريح الموجز ، دون ان يمهد له سبباً من أسباب الاعتذار . ونظرت إلى ما حولهـا ، كأنها تبحث عن رئيس الحرس كي تأمره بالقبض عليه ، فوجدت نفسها وحيـدة .

وقد كبر عليها هذا الفشل لكنها لم تجد بداً من اخفاء اضطرابها فقالت له وهي لا تزال تتكلف الدعة والملاينة : ألا ترى انه يجب ان تظهر لي السبب في رفضك على الأقل ؟

– دون شك يا سيدتي والسبب صريح ، وهو ان هذا الرجل الذي تطلبين إلي التحرش به ومبارزته ، زارني بالأمس وأكل من طعامي ، فكان ضيفي ودعاني بصديقه ، وهو مقدس عندي ، ما زالت هذه الصداقة لم تشبها شائبة .

– أنه برهان سديد يقنعني ، فماذا يدعى صديقك هذا ؟

- لا أعلم .
- كيف ذلك ، أيكون صديقك ولا تعرف اسمه ؟
- انه لم يذكر اسمه ولم أسأله عنه ، وبعد فكيف تعجبين يا سيدتي إذ جهلت إسم صديقي وجلالتك تجهل اسم عدوهـا الألد ، اليس ذلك ادعى إلى العجب ؟

فأطرقت الملكة برأسها وقالت في نفسها إني أجد هذا الرجل أشد خطراً علي من أعدائي بعد ان أبى خدمتي .

ثم التفتت اليه وقالت إني لم أسألك عن اسمه إلا لأعلم إذا كنا متفقين على معرفته ، وقد سرني ما أراه بك من مبدأ الكتمان والتحفظ فهو حلية الرجال كما سرني حرصك على الولاء فهو أشرف ما تتحلى به النفوس فلندع الآن ذكر هذا الرجل احتراماً لعواطفك .

- اني من أسعد الناس يا سيدتي بما سمعته من جلالتك فقد خشيت ان اكون أغضبتك بما بدر مني .

- ولماذا لا أرضى عنك وانت تحترم الصداقة وتجل الولاء ، فاذهب أيها الشفاليه واذكر اني ضمنت لك المستقبل السعيد واحضر غداً إلى اللوفر فاني انتظرك فيه .

ثم نهضت الملكة وابتسمت لباردليان فانحنى أمامها بملء الاحترام وحياها التحية الملكية وانصرف .

وبعد ذلك بهنيهة كان عند الباب الخارجي حيث كان كلبه ينتظره فسار في طريق الفندق وهو يحاول حل هذا المعمى الذي يدعونه الملكة كاترين ويقول في نفسه إنها أمرتني ان أحضر في الغد الى اللوفر ميدان الثروة الذي يتسابق فيه رجال الاقدام ..

نعم سأذهب في الموعد المعين ويقيني ان أبي كان مخطئاً في ما اوصاني .
أما الملكة فانها كانت بعد ساعة في اللوفر فنادت تانسي رئيس حراسها

وقالت له : إذهب غداً صباحاً بعشرة من رجالك الأشداء ومركبة كبيرة إلى فندق دفينير واقبض فيه على مؤامر يدعى الشفاليه باردليان واذهب به الى الباستيل .

- ١٩ -

مارشال دي دامفيل

وحده فاضيه

وأما باردليان فانه صحا من نومه عند الفجر بعد أن نام نوماً مضطرباً .
فان المرء مهما عظمت نفسه وقل اهتمامه بأغراض الحياة اذ فاجأته الثروة والسعادة كما فاجأت باردليان لا يستطيع أن يتلقاها دون اضطراب .

وأي سعادة يطمع فيها مثل هذا البطل التائه أعظم من أن يصبح في لحظة صفي الملكة وساعدهـا الأيمن ، بعـد ان كان ، في كل يوم يخشى الطرد من الفندق المقيم فيه .

وقد بات اكثر ليلته يتقلب على فراشه وهو يفتكر في ما صار اليه ويعد مشروعاته المستقبلية حتى اعد خطته كما يأتي :

١ - يذهب الى اللوفر بدعوة الملكة كاترين دي مدسيس .
٢ - يذهب الى قصر كوليني فيخبر صديقه ديودات انه يجب ان يبرح باريس في القريب العاجل حذراً من انتقام الملكة
٣ - يتحرش بالدوق دي كيز ويقاتله فيخدم الملكة اجل خدمة .
٤ - حينما يثق من مركزه الجديد يذهب الى ذات النقاب الأسود فيخبرها

بمنصبه ويحبه لإبنتها لويزا ، فلا ترفض زواجها برجل من اهل البلاط ويتزوج بمن يحب .

٥ - يصبح بعد هذا الزواج من اسعد الناس .

٦ - يبحث عن ابيه حتى يجده فيعيش واياه عيشة صالحة ويقول له : لا شك ان باردليان الابن نال الثروة بعصيانه وصية باردليان الأب .

ولما رسم لنفسه هذه الخطة اطمأن خاطره وتمكن من النوم .

ولكنه صحا عند بزوغ الفجر كما قدمنا فتأنق في لباسه كي لا يهزأ به رجال البلاط ، حتى اذا أتم لباسه ولم يبق الا أن يتقلد حسامه رأى ان الوقت لا يزال باكراً ، وانه لا يستطيع الذهاب الى اللوفر قبل ساعتين او ثلاث .

وعند ذلك فتح النافذة ووقف امامها وهو لا يطمع ان يرى لويزا في مثل هذه الساعة ، ولكن العاشق يلذ له أن يرى نافذة الغرفة التي تنام فيها حبيبته ولو كانت تلك النافذة مقفلة .

على ان باردليان لم يكد يفتح نافذته حتى رأى نافذة لويزا قد فتحت بعنف ، ثم رأى حبيبته لويزا أطلت من تلك النافذة وهي محلولة الشعر صفراء الوجه مضطربة العينين فرأت باردليان ونادته بلهجة المذعورة قـائلة ... تعال .. تعال ..

فاصفر وجه باردليان وقال في نفسه رباه ماذا حدث ؟

ذلك انها لم تكن كلمته قبل الآن ولم تشر اليه إشارة ، فاستدل من ذلك انها تطلب النجدة وصاح بصوت مرتفع بلغ إلى مسمعها قـائلاً : لبيك هـا أنا آت .

ثم أسرع إلى الجدار كي يأخذ حسامه فسمع في تلك اللحظة كلبه ينبح نباحاً شديداً ، ورأى ان باب غرفته قد كسر ودخل منه اثنا عشر جندياً مدججين بالسلاح

وعند ذلك قال رئيسهم : أيها الشفاليه إننا نقبض عليك بأمر الملك .

ولم يكن باردليان قد أخذ سيفه بعد فوثب اليه كي يدافع به عن نفسه ، غير أن الجنود أحاطوا به من كل مكان فحالوا دون قصده وتمكنوا من إلقائه على الأرض .

وفي هذه الساعة الهائلة سمع صوت لويزا تناديه قائلة إلي الي !

وهو محاط بالجند مغلول اليدين لا يستطيع تلبية النداء فوقع ذلك النداء من قلبه وقع السهم وأن أنين الموجع .

ثم تكرر الصوت مراراً فكان يفعل به فعل الكهرباء .

فأبدى جهداً عنيفاً في سبيل الافلات من الجند ، ولكنه وجد انه مقيد اليدين والرجلين لا يستطيع حراكاً ، فأغمض عينيـه مسترسلاً إلى اليأس ، واضطرمت النار في قلب الأسير ، فأسالها البخار دمعة على وجنـة ذلك البطل العاشق .

ولما تمكن الجنود من التغلب عليه وتوثيق يديه ورجليه ، التفت رئيس الحرس إلى ما حواليه متفقداً جنـده ، فوجد بينهم قتيلين وخمسة جرحى ذلك أن باردليان قتل احدهما بضربة على صدغه ، وخنق كلبه الآخر ، وجرح بانيابه الخمسة .

وعند ذلك أمر رئيس الجنود أن يحملوا باردليان فحملوه وخرجوا به إلى الشارع .

وهناك فتح باردليان عينيه فرأى ثلاث مركبات احداها واقفة عند باب الفندق فأيقن انها معدة لنقله .

وأما المركبتان الباقيتان فقد كانتا واقفتين أمام منزل لويزا ، فرأى أن احداهما فارغـة وأن في الأخرى رجلاً عرف انه هنري مونمورانسي مارشال دامفيل .

ولم يبق له الجنود فرصة ليرى اكثر ما رأى فانهم ألقوه في المركبة واقفلوا بابها فسارت به مسرعة إلى حيث لا يعلم

وقد كانت هيئة هذا المنكود تحمل على الاشفاق فقد كاد يجن من يأسه .

ولكنه على يأسه لم تسر به المركبة بضعة امتار حتى ثاب اليه رشده وراقب سير المركبة والطريق الذاهبة فيها فجمد الدم في عروقه وقال بلهجة تشف عن الرعب الشديد ..

انهم ذاهبون بي إلى الباستيل ..

ومن عرف شهرة الباستيل في ذلك العهد وما كان يجري فيه من المظالم لا ينكر هذا الرعب على بارداليان .

فان هذا السجن الرهيب لم يكن كالسجون المألوفة بل كان أشبه بالقبور منه بالسجون .

وقد أيقن بارداليان انه من الهالكين حين كان يظن أن الثروة قد فتحت له ابوابها وحين سمع من لا تخطر له الثروة في بال إلا من اجلها تناديه وتستغيث به وهو مقيد اسير لا يستطيع تلبية النداء ولا اغاثة من يحب .

ولما وقفت المركبة وانزل منها التفت إلى ما حواليه فوجد نفسه محاطاً بالجنود من كل جانب

فكان اول ما خطر له لأول وهلة ان ينقض على الجنود ليس لطمعه بالفوز عليهم والفرار بل لرجائه ان يهجموا عليه من كل صوب ويعملوا فيه سيوفهم فيقتلونه ويريحونه من الحياة .

ولكنه قبل أن يتم هذا الخاطر طوقه الجنود وسار به ثلاثة منهم فولجوا من باب حديدي الى رواق طويل نبت العشب على جدرانه لرطوبتها وانبعثت منه روائح العفونة .

وقد انتهوا من هذا الرواق إلى سلم من الحجارة فصعدوا بالأسير عليه وانتهوا منه إلى باب ضخم من الحديد فدخلوا منه إلى دهليز طويل .

وهناك ادخلوه غرفة متسعة كائنة في الدور الثالث من برج السجن الغربي فتركوه فيها واقفلوا الباب .

وكانوا قد فكوا قيوده ، فانقض على الباب وحاول أن يحطمه ، حتى إذا علم ان لا حيلة في كسره تمكن منه اليأس فانقلب على الأرض مغمياً عليه .

* * *

ولنعد الآن إلى لويزا وبيان السبب التي استغاثت من أجله ببارداليان فنقول :

عرف القراء ان هنري مونمورانسي رأى حنة والدة لويزا من نافذة غرفتها فعرفها للحال .

فلما وثق إنها هي امرأة أخيه ، تلك التي هام بحبها ، حتى ارتكب في سبيلها الجرائم ، وفرقها عن زوجها بالمكائد السافلة ، نظر إلى ما حواليه فرأى أن الشمس قد تعالت والمخازن فتحت أبوابها ، والناس ينظرون اليه نظرات الفضول مستغربين وقوفه ، فلم يجد بداً من الانصراف والصعود إلى القصر .

وكان قصره مظلماً وهو بجوار سجن التامبل ، تبدو عليه ظواهر السكينة فلا يرى فيه غير الخدم والجنود بحيث بات يشبه الحصون .

وقد أقام هنري طول نهاره معتزلاً في غرفة يضطرب لكل حركة يسمعها ، ويرتعش كلما سمع صوت باب يفتح ، ويقول في نفسه : ألا يمكن أن يكون أخي فرنسوا قد حضر إلى باريس لنفس السبب الذي حضرت من أجل اليها .

ألا يمكن أن يقوده الاتفاق إلى شارع سانت دانيس ، كما قادني وان يرى حنة كما رأيتها .

وإذا اجتمع بها واخبرته بكل ما اتفق وعرف خيانتي الهائلة ، فماذا عسى يكون بيني وبينه .

وهنا اصفر وجهه وتندى جبينه بالعرق فقال : لقد مرت بنا الأعوام ، وكرت الليالي والأيام ، وأنا أحاول نسيانها فلا أجد سبيلاً للسلوان .

ولقد خضت غمرات الحروب فكنت أراها في كل معترك ، وأود تقبيل السيوف لأنها تلمع كبارق ثغرها ، واذا التمست السلوان بالشراب هاجت المدام مكامن غرامي فتمثلت لي كما رأيتها اليوم ، يفتن جمالها الأبصار وتتيه في إدراك سر حسنها الافكار .

نعم اني كلما خلوت بنفسي لا اسمع غير صوتها تنادي زوجها فرنسوا

وكلما نظرت اليها بعين الخيال أراها تنظر إلي نظرات ملؤها الاحتقار .

غير اني انتقمت انتقاماً هائلاً ، فقتلت أباها وفرقت بينها وبين زوجها ، والويل لمن يكرهني فان انتقامي لا يقف عند حد .

وكان إذا بلغ بتصوره هذا المبلغ ، يقف ويمشي في الغرفة هائجاً مضطرباً مشية المجانين .

ثم يفتكر بأخيه فيسكن اضطرابه وتنحط كبرياؤه ، وليس ذلك لأنه كان يذكر الجريمة فيقرعه ضميره ، بل لأنه كان يذكر أخاه فيخاف انتقامه .

كان يذكر كل مـــا أساء به إلى أخيه فيطير فؤاده رعباً ، ويخطر له خاطر الفرار .

وقد وضع رأسه بين يديه حين خطر له هذا الخاطر ، وفكر ملياً ثم هاج ثائر غرامه ، فجاءت وهاجت براكين حقده ، فكبر عليه الفرار وجرد خنجره فطعن به المائدة التي كان جالساً عليها كأنه يطعن صدر أخيه

ثم وقف وقال ، لقد بدأ هذا الغرام بالجريمة ، وهو بالجريمة يختم فليحضر أخي وليناقشني الحساب ، فلا أجيبه بغير هذا الخنجر وأظفر بجنة دونه .

هنا ابتسم ابتسام الأبالسة كأنه قد وجد طريقة للتوفيق بين غرامه وانتقامه ، فأكل بشهية ونام بعد الأكل بضع ساعات .

وعند انتصاف الليل تدجج بالسلاح ، وخرج من منزله إلى الشارع المقيمة

فيه حنة ، وأقام هناك يراقب في نفس الموقف الذي كان فيه أمس إلى أن أشرق القمر .

وعند ذلك قدمت مركبتان تقلان بعض الجنود ، فصعد هنري إلى أحدى المركبتين واختبأ فيها كي لا يراه أحد ، وأشار إلى قائد أولئك الجنود أن يبدأ العمل وينفذ ما أمره به .

فدخل القائد إلى المنزل يتبعه نحو عشرة من الجند .

وكان البواب قد صحا منذعراً لدخول الجند إلى المنزل قبل الفجر ، فناداه القائد وقال له : يوجد في هذا المنزل امرأتان من الهوكينوت متهمتان بالمؤامرة مع أعداء جلالة الملك

فاضطرب البواب وقال : رباه أيمكن أن يكون ذلك ومن هم أعداء جلالته ؟

- هم الهوكينوت الذين سيعاقبون أشد عقاب .

- ويلاه ، إذاً سأعاقب مثلهم .

ولماذا ، العلك منهم ؟

- كلا ، ولكنهم مقيمون في المنزل الذي أخدمه وسأعاقب بما يعاقبون .

- إنك تنجو من العقـــاب إذا ساعدتنا في القبض عليهم دون أن يعلم أحد .

- إني رهين أوامركم ، فقد خامرني الشك بهاتين المرأتين ، فإني ما رأيتهما ذهبتا مرة إلى الكنيسة .

ثم صعد السلم أمام الجنود حتى إذا وصل بهم إلى منزل حنة قرع الباب ، ففتحته حنة ووجدت أمامها قائداً والجند وراءه .

فاصفر وجههـــا ولكنها كانت تعودت الشقاء حتى الفته ، فلم تضطرب لرؤية الجنود وقالت للقائد :

- ماذا تريد يا سيدي ؟

فاحمر وجه القائد وانحنى أمام حنة باحترام وقال لها :

أسأل سيدتي المعذرة فاني مأمور بانفاذ أمر صارم وما علي غير الامتثال .

فنظرت حنة إلى الغرفة المقيمة فيهـا بنتها نظرة المتذعر وقالت له : أي أمر يا سيدي ؟

– إني قادم يا سيدتي للقبض عليكم بتهمة التشيع للهوكينوت ، ومخالفة الأوامر الصادرة .

وعند ذلك خرجت لويزا من غرفتها وعلمت كل شيء .

أما حنة فإنها قالت للقائد : إنك مخطىء يا سيدي فلست أنا المتهمة .

– إني اتمنى لك البراءة من التهمة ، وفي كل حال فلا بد من ان تتبعيني لاثبات برائتك .

فصاحت حنة صيحة رعب وقالت : رباه ايبعدونني عن بنتي .

واسرعت لويزا إلى غرفتها ففتحت النافذة بعنف ورأت باردالیان فنادته مستغيثة كما تقدم .

أما القائد فانه تقدم من حنة وقال لها : اقسم إنك لا تفترقين عن بنتك ، فاني سأذهب بكما معاً إلى محل واحد ، فامتثلي يا سيدتي واتبعيني دون مقاومة كي لا اضطر الى استعمال العنف ، وهو مـا اندم عليه طول الحياة .

فرأت حنة ان لا سبيل الى اقناع القائد بخطائه ، وأنه لا بـد من الامتثال له .

– طوعاً يا سيدي ، ولكني أرجوك أن تمهلني هنيهة كي أتأهب .

– لكن ما تريدين يا سيدتي فاني في انتظارك

ثم خرج من المنزل مع جنوده فوقف بهم عند الباب ، بينما كانت حنة قـد دخلت إلى غرفة بنتها .

وقد سمعتها تنادي ، ورأتها تشير بيدها فقالت لها : من الذي تستغيثين

به يا ابنتي ؟

– هو ذلك الفتى الذي ينظر إلي دائماً من نافذته

وقد احمر وجهها لدى هذا القول ، فما خفيت حالتها عن أمها ، فضمتها إلى صدرها وقالت لها . العلك تحبينه يا لويزا ؟

فلم تجب لويزا بكلمة ، ولكنها أطرقت بعينيها وقد سالت منها دمعتان تكلمتا بأفصح بيان .

فقالت لها أمها : وهو .. ايحبك ؟

– اظن ... بل اني واثقة

– ان كان ذلك فهل تظنين اننا نستطيع الاعتماد عليه .. أجيبي يا لويزا ، أأنت واثقة باخلاص هذا الفتى ؟

– كل الثقة يا أماه

– ماذا يدعى ؟

فأجابتها لويزا بملء البساطة قائلة : ولكني لا أعرف اسمه بعد

قالت حسناً : فان الوقت غير متسع للجدال ، وكل ما أرجوه ان تكوني غير منخدعة بهذه الثقة .

ثم أسرعت إلى مائدة عليهـا أدوات الكتابة ، فأخذت ورقة وكتبت عليها ما يأتي :

سيدي .

« ان امرأتين اخني عليهما الدهر تلتجئان إلى مروءتك .

انك لا تزال في مقتبل الشباب ، ولا تزال عواطف الرحمة والاشفاق تجول في قلبك

فاذا كنت على ما نعتقده بك فرجائي ورجاء ابنتي ان ترسل الكتاب الواصل في طيه إلى صاحبه ، واني اشكرك مقدماً أجزل شكر » .

ذات النقاب الأسود

ثم فتحت درجاً فأخرجت منه كتاباً مختوماً غلافه ، كانت قد كتبته منذ عهد بعيد كما يظهر ، فوضعته في طي الرسالة التي كتبتها الى بارداليان .

ثم وضعت الرسالة والكتاب في غلاف فختمته ونادت الخادمة فقالت لها : اصغي إلي يا ابنتي . اننا متهمون بتهمة التشيع للهوكينوت ، وهي تهمة باطلة لا البث ان اظهر زورها في موقف القضاء .

وغاية ما أطلبه اليك أن تأخذي هذا الكتاب الى هذا الفتى المقيم في هذه الغرفة .

ثم دلتها على الغرفة فأخذت الخادمة الكتاب وانصرفت .

وعند ذلك خرجت حنة مع بنتها ، ففتحت الباب وقالت للقائد : اننا مستعدتان للذهاب معك

فنزل القائد بهما وكان هنري مونمورانسي مختبئاً في المركبة ، فلما رآهم برقت عيناه ببارق وحشي من السرور .

وأما الاسيرتان فقد اصعدوهما الى المركبة الثانية ، وكانت الخادمة قد حضرت ايضاً لوداعهما فقالت لها حنة : أعود فاوصيك بارسال الكتاب الى صاحبه

– اطمأني يا سيدتي ، فقد عرفت صاحبه ، وهو الشفالييه دي بارداليان .

فأنت حنة انين المتوجع وحاولت استرجاع الكتاب منها ، ولكن المركبة كانت اندفعت في السير وجرت تسابق الرياح .

- ٢٠ -

قصر هنري

لم تنس الخادمة وصية سيدتها فان المركبة لم تكد تتوارى عن الأبصار حتى ذهبت إلى الفندق المقيم فيه بارداليان كي تدفع اليه الكتاب .

وكانت هذه الخادمة كسائر الخدمات ، تقضي معظم أوقاتها بالتجسس والمراقبة .

وقد لاحظت مراراً أن بارداليان يقف في نافذة غرفته ، ويطيل وقوفه وهو ينظر إلى مكان واحد .

فما زالت تراقب حتى علمت انه يدعى الشفالييه دي بارداليان .

فلما ابتعدت المركبة ذهبت تواً إلى الفندق ، وطلبت إلى صاحبه أن يأذن لها بمقابلة بارداليان .

فابتسم صاحب الفندق ابتسام الساخر وقال : ألم تعلمي ما حدث لهذا الرجل الجسور

– كلا ، فماذا حدث له ؟

– عجباً كيف لا تعلمين والناس لا يتحدثون إلا بأمره منذ الفجر .

– ولكن قل لي بالله ماذا حدث فاني لا أعلم شيئاً .

– حدث أن هذا الرجل الهائل قد قبض عليه ، فيجازى بما يستحق ويتأدب بالعقاب ، فلا يحاول بعد ذلك القاء الناس من النوافذ .

- وأية جريمة ارتكبها ؟
- يظهر انه من المتآمرين مع الهوكينوت .

فاضطربت الخادمة وخشيت أن يشركوها بالتهمة ، فعادت إلى المنزل فاخرجت الكتاب من جيبها وخبأته في مكان خفي ، وهي تقول في نفسها : لقد اتضح الأمر ولم يبق للريب مجال ، فان هذه المرأة وابنتها مشتركتان في المؤامرة مع باردليان ، فإذا علموا بأمر هذا الكتاب اتهموني تهمتهم دون ريب ، ومعاذ الله ان أكون عدوة الدين والملك .

* * *

بينما كانت هذه الحوادث تجري في شارع سانت دانيس ، كانت مركبة الأسيرتين تسير مسرعة إلى قصر مسيم ، أي قصر هنري دي مونمورانسي الذي كان يقيم فيه في باريس .

وقد تقدم لنا القول أن هذا القصر كان يشبه الحصون .

فلما وقفت المركبة عند بابه ودخل القائد بحنة وابنتها اليه لم تشكا في انه سجن لوقوف الجنود عند ذلك الباب .

وأما القائد فانه صعد بهما حتى انتهى إلى غرفة في الدور الثاني ، فوقف عندها وقال لهما : تفضلا بالدخول يا سيدتي فان مهمتي قد انتهت ، وأرجو أن لا تكونا حاقدتين علي ، فاني لم أسيء اليكما من عند نفسي .

فاحنت حنة رأسها قليلاً وفتحت باب الغرفة ودخلت اليها مع ابنتها ، فاقفل الباب في اثرهما للحال من الخارج .

وعند ذلك ايقنتا انهما اسيرتان ، ولكنهما ايقنتا ايضاً انهما ليستا في سجن ، فقد وجدتا تلك الغرفة التي دخلتا اليها مفروشة بخير الرياش ، وقد فرشت البسط في أرضها ، وتزينت جدرانها بالصور كغرف القصور الكبيرة .

ثم وجدتا فيها باباً مفتوحاً يشرف على غرفتين للنوم ، ولكل منهما نوافذ

تطل على رواق القصر ، فدنت حنة من احداها وأطلت منها ، فرأت جنديين يسيران ذهاباً واياباً وسيفاهما مجردان بيديهما .

فزاد اضطراب حنة حين رأت نفسها أسيرة مع ابنتها في منزل جميل ، وأطالت التفكير كي تعلم المراد من هذا الأسر ، فما اهتدت إلى حل هذا اللغز .

ثم عادت مع بنتها إلى الغرفة الأولى ، فرأت لويزا على مائدة رسالة مفتوحة ، فنبهت اليها أمها فأخذتها وقرأت ما يأتي :

« نرجو الأسيرتين أن لا تخشيا مكروهاً ، وإذا احتاجتا إلى شيء مهما كان ذلك الشيء ، فلتقرعا الجرس الكائن على المائدة بجانب الرسالة ، تحضر في الحال خادمة أعدت لخدمتهما » .

« وهذه الخادمة تعد لهما الطعام والأرجح أن هذا الأسر لا يطول أكثر من بضعة أيام » .

فتنهدت الأم وقالت : إني أؤثر الف مرة لو كنا في سجن الحكومة على أن نكون في هذا المكان

- ماذا تعنين بذلك يا أماه ، فإني أرى كل شيء معد لراحتنا .

فهزت حنة رأسها وقالت : لنصبر فستنجلي لنا هذه الغوامض . وفي انتظار ذلك أريد أن أروي لك أمراً خطيراً

فجلست الفتاة بجانب أمها وقالت لها : إني مصغية اليك يا أماه .

- اعلمي يا ابنتي أن ما سأقصه عليك متعلق بهذا الفتى الذي يحبك فهل تحبينه حقيقة يا لويزا ؟

فاطرقت لويزا برأسها دون أن تجيب .

وتوقفت حنة عن الكلام هنيهة ، كأنها تتردد في القول ثم نظرت إلى ابنتها فجأة وقالت لها : لقد عرفنا الآن اسم هذا الفتى

فأجابتها لويزا : نعم فقد قالت الخادمة انه يدعى الشفاليه دي باردليان

ولكني أرى من لهجتك عند ذكر اسمه يا أماه ، أن هذا الاسم غير مجهول لديك ، وانه قد سبب لك حزناً لا اعرفه . فقد تذكرت الآن انه حينما لفظت الخادمة اسمه أمامك ، ذعرت وحاولت استرجاع الرسالة منها ، ولكن المركبة حالت دون قصدك إذ اسرعت في المسير .

أواه يا أماه اني اضطرب وقلبي يحدثني باني سأسمع أموراً هائلة .

– هو ذاك يا ابنتي فما اخطأ حديث قلبك .

– إذاً تكلمي ولا تكتمي عني أمراً .

– نعم نعم لا بد لي من الكلام لانقاذك

– لقد زدتني رعباً على رعب ، فهل أنا في خطر ؟

اصغي إلي يا لويزا ، انك حين ولدت كانت أمك قد لقيت من كوارث الدهر ما لم يلقه انسان ، ولولاك لكان قتلني اليأس فانني ما رضيت الحياة بعد ما لقيت إلا من أجلك .

نعم اني كنت أحبك في ذلك العهد كما أحبك الآن ، أي اني أحبك أكثر مما أحب نفسي وأكثر مما أحبه .

– من هو يا أماه ؟

– زوجي وأبوك .

– انك إلى الآن تأبين ان تذكري لي اسم أبي .

– ولكنك ستعرفينه الآن فقد آن الأوان .... فاعلمي ان أباك يدعى ...

– ما بالك توقفت يا أماه .. قولي ماذا كان يدعى .

– انه يدعى فرنسوا دي مونمورانسي .

فصاحت لويزا صيحة دهش ليس لأنها أكبرت أن تكون ابن هذا الرجل العظيم ، وهي تعتقد انها ابنة رجل فقير ، ولكنها ذكرت أن أمها طالما قالت لها ان كل نكبتها من رجلين ، وان أحدهما يدعى هنري

دي مونمورانسي .

وعادت أمها الى الحديث ، فقالت : إن أباك يا لويزا كان قد سافر محارباً في حرب شديدة ، فحسبت وحسب الناس كلهم انه مات قتيلاً .

واتفق يوم كان أسعد وأشأم أيام حياتي معاً وهو اليوم الذي علمت فيه انه لا يزال في قيد الحياة .

فقد عرفت ، في ذلك اليوم ، انه عاد من الحرب سالماً ، وانه قادم إلي .

ولكن الذي بشرني هذه البشارة ، كان عمك ، وهو هنري دي مونمورانسي .

– وأين الشؤم يا أماه في هذه البشارة ؟

– الشؤم هو ان هذا الرجل الهائل اختطفك من غرفتي بواسطة رجل شقي من عماله وهو وحش مفترس كما كان يلقبه هنري نفسه .

وبعد ان أخبرني بعودة أبيك وانه اختطفك قال لي اني إذا كذبته بكلمة فيما يقوله أمام أبيك عني يشير إشارة إلى ذاك الرجل الذي كان يراه من النافذة فيخنقك .

– رباه ماذا أسمع ان هذا هائل عظيم .

– نعم وهو هول لا يخطر في بال إنسان . فتصوري ما كان من أمري حين وقف هذا الخائن الذميم يتهمني أمام أخيه بالغواية والخلاعة والعبث بالحقوق الزوجية ، فإذا رأى مني إني أحاول تكذيبه تهددني بتلك الاشارة إلى ذاك النمر الذي كان يحملك بين يديه ، فأخاف عليك الموت ، وأرضى الفضيحة مكرهة ذليلة .

فأكبت لويزا على صدر أمها تعانقها باكية وتقول : أماه أفعلت كل ذاك من أجلي . أماه كم كان عذابك شديداً .

فابتسمت تلك الأم ابتسامة دلت على مبلغ حزنها وصبرها ثم عادت إلى الحديث فقالت :

– لقد علمت الآن السبب في ما طالما قلته لك وهو انه يوجد رجل يجب أن تبغضيه وان تهربي منه كما يهرب الجبان من الموت ... إن هذا الرجل هو عمك هنري دي مونغورانسي .

– لقد ذكرت لي رجلين يا أماه ، فمن هو الرجل الآخر ؟

– أتريدين به الرجل الذي اختطفك ؟

– نعم ..

– تشجعي يا ابنتي ، لأن هذا الوحش الكاسر كان يدعى الشفاليه دي بارداليان .

فاصفر وجه لويزا حتى بات كوجوه الأموات ، وسالت دمعتان من عينيها الذابلتين ثم قالت بصوت خافت أهو والد الذي أحبه ؟

فأخذت حنة يد ابنتها بين يديها وقالت لها بملء العطف والحنو :

– نعم يا ابنتي ، لقد كتب لي ولك في لوح المقدور ان نكون شقيتين في الحب .. لأن رجلا شريفاً كريماً أنقذك من ذلك المفترس وردك إلي وهو الذي أخبرني ان الذي اختطفك يدعى بارداليان .

نعم انه والد الذي تحبينه ، لقد علمت انه كان لهذا الرجل غلام وقد شب الغلام ووضعته الأقدار في سبيلك كما وضعت أباه في سبيلي .

ولم تفه لويزا بكلمة ، ولكن الشقاء كان يعض قلبها ، فقد كانت تحب الشفاليه دي بارداليان ، ذاك الفتى الباسل الجميل الذي تقول أمها عنه انه رسول شقاء .

وقد خشيت ان تكون أمها صادقة في حديث قلبها ، وان يكون الابن درج على مبادىء الأب .

ومما زاد في أسفها انها جعلت تسائل نفسها فتقول : إني قد استغثت به

وقد رأى إشارتي وسمع صوتي فإذا كان شريف القلب صادق الحب فلماذا لم يبادر إلى نجدتي .

ولماذا كان واقفاً قبل الفجر في نافذته على غير عادته وفي نفس الساعة التي كانوا يقبضون فيها علينا .

ولماذا كان ينظر إلي هذه النظرات منذ عهد بعيد .

إذاً لم يبق شك ان هذه النظرات كانت نظرات مراقبة لا نظرات غرام وان هذا الفتى الذي توهمت انه يهواني لم يكن غير جاسوس ذاك الرجل الذي قبض علينا .

وبعد ... فمن عسى أن يكون هذا الرجل السري ، الذي قبض علينا .

وهنا جمد الدم في عروقها وانقطعت عن مناجاة نفسها فنظرت الى امها وقالت : أماه إن قلبي يكاد ينفطر .

فأجابتها تلك الأم المنكودة وقد أدركت حقيقة شقائها : لا تقنطي يا ابنتي لانك قد اجتنبت بهذا شقاء أشد وويلا أعظم .

– ولكني لا أفتكر بنفسي يا أماه .

– بمن تفتكرين إذاً ، أبه ؟

– كلا ... بل بذلك الرجل الذي اختطفنا ، لاني أخشى أن يكون ..

فقاطعتها أمها كأنها خشيت ان تذكر اسم ذاك الرجل الذي تخشاه ، وقالت لها : اسكتي .

ثم ضمتها إلى صدرها وجعلت تقبلها والدموع تذرف من عينيها .

وفيما هما متعانقتان تبكيان ، فتح الباب فجأة ، فصاحت حنة صيحة رعب ، واصفر وجهها ، وتراخت يداها ، وقالت بصوت متقطع خافت : هذا هو !

وعندما دخل الى الغرفة رجل وضع يديه على صدره ومشى الى حنة بملء السكينة وهو يبتسم .

أما هذا الرجل فقد كان هنري دى مونمورانسي .

- ٢١ -

الجاسوسة

ذكرنا عرضاً شخصاً من أشخاص هذه الرواية، ثم مضت على ذكره الفصول دون ان نشير اليه .

ونريد به اليس دى ليكس تلك الفتاة التي كانت مع ملكة النافار حين أنقذها باردالیان من ثوار باريس يوم حادثة الجسر .

ولقد عرف القراء كيف ان هذه الفتاة ذهبت مع مولاتها ملكة النافار إلى الجوهري الذى باعته مجوهراتها وكيف انها ركبت وإياها بعد ذلك المركبة التي كانت واقفة في انتظارها قرب سانت جرمين .

أما المركبة فانها سارت بهما فمرت بقمة مونمارتر واجتازت النهر الصغير المتسرب في الضواحي وذهبت تواً إلى سانت جرمين في المكان الذي عقد فيه الصلح بين الكاثوليك والهوكينوت .

وهو صلح لم يكن في حقيقته غير هدنة، لأن كلا الفريقين كانا يتأهبان ليوم عصيب يقضي على واحد منهما القضاء المبرم .

ولا بأس هنا ان نذكر كلمة موجزة عن هذا الخصام التاريخي بين الفريقين

من قبيل التفكهة والفائدة فنقول :

عقد الصلح كما قدمنا لكنه كان صلح كذب ومواربة تذرع به كل من الفريقين الى التأهب كي تكون نكايته بعدوه أشد .

فكان الكهنة في الكنائس يحثون المؤمنين على المذبحة علناً غير هيابين ولا وجلين .

وكان الملك شارل التاسع منع الناس من التقلد بالسلاح ، ما خلا الجيش وفريق النبلاء .

وقد اتفق مرة انهم أحرقوا منزلاً بمن فيه لتوهمهم ان الهوكينوت يعقدون فيه الجمعيات السرية .

ومن غرائب الجهل في ذاك العهد ان هذا الخلاف الذي ذبح فيه الألوف من الناس ، كان منحصراً في ان حزب المصلحين ، كما يدعون أنفسهم ، كانوا يريدون الصلاة باللغة الفرنسية وحزب الكاثوليك لا يريدون التقرب إلى الله إلا باللغة اللاتينية .

فلما نشبت بين الفريقين تلك المعركة المعروفة بمعركة « مونكونتور » أبلغوا الملكة كاترين ، والحرب لا تزال ناشبة ، ان النصر قد استتب للهوكينوت ، فقالت بملء البساطة :

« إذاً سنتلو الصلاة باللغة الفرنسية »

ثم لما علمت ان النصر قد تأيد للكاثوليك قالت :

« الحمد لله إننا لا نسبحه إلا باللاتينية » .

ومن نوادر التعصب في ذلك العهد ، أنه حدث بعد التوقيع على شروط الصلح بثمانية أيام ، أن أحد الباريسيين إختصم مع باريسي ، كاثوليكي مثله .

وكان الرجل لئيماً حقوداً ، فلم يجد لأذية خصمه غير ان يتهمه أنه من الهوكينوت .

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

فلما سمع الباريسيون كلامه ، انقضوا على هذا المنكود انقضاض الكواسر ومزقوه شر تمزيق ، وحاول اثنان ان ينتصرا له فأصابهما ما أصابه من الموت .

وكانوا قد وضعوا في كل عطفة شارع تمثالاً للعذراء .

وكان يقف تحت كل تمثال نحو عشرين رجلاً من أجلاف القوم مدججين بالسلاح .

واذ قدر نكد الطالع لأحد الناس ان يمر بهذا التمثال دون ان يركع احتراماً له قطعوه ارباً بسيوفهم .

وهي حقيقة ثابتة يؤيدها التاريخ ، فقد جاء فيه أنهم قتلوا على هذه الطريقة خمسين بريئاً في مدة شهرين .

ثم تطرف أولئك اللصوص ، بما وجدوه من تراخي الحكومة ، فوضعوا صندوقاً تحت كل تمثال ، وحتموا على كل من يمر به أن يضع في هذا الصندوق شيئاً من المال ، والويل لمن كان يمتنع عن دفع هذه الضريبة .

* * *

ولنعد الآن الى سياق قصتنا فنقول :

قلنا ان ملكة النافار ذهبت في المركبة مع وصيفتها اليس ، إلى سانت جرمين .

وهناك دخلت الملكة معها إلى منزل ، ووجدت فيه ثلاثة رجال ينتظرونها فيه .

فنادت واحداً منهم قائلة : تعال يا كونت دى ماريلياك .

وكان هذا الرجل الذي نادته فتى في الخامسة والعشرين من عمره قوي

البنية ولكن هيأته تدل على الكآبة .

فانحنى أمام الملكة وتبعها إلى غرفة دخلت اليها .

فلما اختليا ، قال لها الشاب : لماذا دعوتني يا سيدتي بلقب كونت ، وبهذا الاسم .

فنظرت اليه الملكة نظرة تدل على استحكام السويداء منها ، وقالت له :

- اليس هو اسمك الذي دعوتك به ... أما منحتك لقب كونت ودعوتك بهذا الاسم ؟

فهز الشاب رأسه وقال :

- إني مدين لك يا سيدتي بحياتي وثروتي واسمي وقد طوقت عنقي بجميل لا ينزعه غير الموت . ولكني أدعى ديودات وان جميع الألقاب التي تتفضل بها علي ملكتي لا تغير اسمي .. وكل ما تضعه علي من الحجب والبراقع لا يخفي شقاء مولدي .

أيتها الملكة العظيمة ألا ترين ان جلالتك وحدك تدعونني باسم الكونت دى ماريلياك وان جميع الناس يدعونني الولد اللقيط ، إلا من تلطف منهم فيدعونني ديودات .

فأجابته الملكة بلهجة حنان :

- كفى يا ولدي فأنت تكاد تبلغ حد القنوط ، واطرد هذه التصورات من مخيلتك لانها تفضي بك الى ما لا تحمد عقباه .

أنت باسل مخلص شريف وقد خطت لك الأيام أفضل ما يكتب في صحيفة المستقبل ، فكن بحيث وضعك حسامك وعقلك ولا تتمادى في حلبة الأوهام ، ذاك خير لك وأبقى .

فأجاب بصوت أجش : كلا لو أرادت الأيام ان تبسم لي لما أوقفني الاتفاق على سر مولدي ولما علمت اني ابن تلك الحية الرقطاء والداهية الدهماء التي لا يلذ

لها غير شرب الدماء . تلك الملكة التي يدعونها كاترين دي مدسيس وهي نكبة الفضيلة وعار النساء .

ولم يكد يلفظ اسم الملكة حتى سُمع صوت في الغرفة المجاورة فكان صوت اندهاش ممتزج برعب .

ولكن الملكة وديودات لم يسمعا هذا الصوت ، فأجابت الملكة ديودات قائلة :

– مهما يكن يا بني من الأمر ، فقد وجب عليك أن تحتفظ بهذا السر الهائل .

وأنت تعلم مقدار حبي إياك ، لقد ربيتك كما ربيت ولدي ، فنشأت وإياه نشأة واحدة ، وتلقيتما العلوم من معلم واحد ، وكنتما صنوين متلازمين متحدين في كل أمر ... فابق كما كنت من قبل ولدي بالتبني لان قلب الأم يتسع لاثنين .

فانحنى ديودات وقبل يد الملكة باحترام ، فقالت له :

– والآن إصغ إلي .. اني محتاجة في باريس الى رجل صادق مخلص وفي ، أعتمد عليه في مهماتي كما أعتمد على ولدي

– أنا ذلك الرجل يا ملكتي ، ولن تجدي أصدق منه إخلاصاً .

فأخفت الملكة ظواهر حنوها وقالت له : لقد كنت أتوقع منك هذا الجواب ، ولكن يجب ان تعلم ان الأمر خطير وانك معرض بحياتك للأخطار فيه .

– إن حياتي لك ، وقد عرضتها مراراً للأخطار ، في سبيل ذلك الذي يدعوني أخاه الأكبر ، أي ولدك يا سيدتي ، فكيف لا أجود بها من أجلك .

– ربما اقتصر الأمر على الحياة ، ولكني أخشى ان يطرأ من الحوادث ما يدعوك الى تضحية قلبك ، فأنا لا أسألك أن تكون باسلا ، بل أريد أن

تكون متناهياً في الإخلاص .

– مهما كانت تلك الحوادث فلا أنسى اني مدين لك بالحياة وإني اذا لم أكن شريداً شقياً معدماً كما كان ينبغي ان أكون فما ذلك الا من فضلك ، فمري يا سيدتي بما تشائين .

– إذاً اصغ الي يا ولدي العزيز .

وعندها جعلت تكلمه بصوت منخفض يشبه الهمس ، على ثقتها انه ليس من يتجسسها .

فدامت الحادثة بينهما ساعة حتى اذا فرغت الملكة من القاء أوامرها انحنى ديودات وحاول تقبيل يدها .

ولكن الملكة جذبته اليها فقبلت جبينه وقالت له : اذهب يا ولدي العزيز وليبارك الله أعمالك .

فانصرف ديودات وذهب الى القاعة التي دخلت اليها الملكة حين قدومها ، فلم يجد فيها غير الرجلين اللذين كان معهما .

فنظر نظرة سريعة الى ما حواليه ، كأنه يبحث عن غيرهما ، فلم يجد من كان يبحث عنه ، ونزل الى الشارع وامتطى جواداً وذهب في طريق باريس .

وقد أطلق لجواده العنان يسير كما يشاء وهو يلتفت من حين الى حين الى المنزل كأنه يأسف لفراقه .

وما زال يسير حتى وصل الى فندق ، فترجل عن جواده ، وطرق باب ذاك الفندق ، وبات فيه تلك الليلة لان أبواب باريس كانت مقفلة في الليل ولا تفتح الا في الصباح . ولكنه بات بليلة الملسوع لكثرة تفكيره وهواجسه

* * *

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

ولنعد الآن الى ملكة النافار فانها بعد انصراف ديودات بقيت في تلك الغرفة مطرقة مفكرة

ثم هبت من سبات تصوراتها فقرعت جرساً وصبرت فلما لم يجبها أحد عادت الى قرع الجرس .

وعند ذلك فتح الباب ، ودخلت منه اليس وصيفتها ، فقالت لها : أسأل جلالتك العفو ، لقد كنت بعيدة عن غرفتك ، فلم أسمع قرع الجرس .

وكانت الملكة جالسة على كرسي كبير فنظرت اليها محدقة نظرة غريبة تكهرب لها جسم الفتاة :

— لقد قلت لك يا اليس ، بعد ان سلمنا وأمنا الخطر انك أخطأت بجعل مركبتنا تمر فوق الجسر ، وأخطأت برفع سجف المركبة ، وأخطأت بذكر اسمي أمام تلك الجماهير المحدقة بالمركبة ، وأنت تعلمين أنهم أعدائي .

— لقد أصبت يا سيدتي ولكني أوضحت لجلالتك ...

فقاطعتها الملكة قائلة :

— اني قلت لك في تلك الساعة « أخطأت » وكنت منخدعة في هذا التعبير بل كنت أوهمك اني منخدعة لأني لو قلت لك حقيقة ما أعتقده في تلك الساعة لعرضت نفسي لبوادر أخرى تبدر منك قد تكون القاضية علي في ذاك الوقت الرهيب .

فاصفر وجه اليس وقالت : اني لا أفهم يا سيدتي ما تعنين ؟

— ولكنك ستعلمين مرادي ، إعلمي الآن يا اليس انك حين جئت إلى بلاط النافار قلت لي إنك هاربة من فرنسا خائفة من انتقام الملكة كاترين لاعتناقك مذهب الهوكينوت

وكان ذاك منذ ثمانية أشهر فتلقيتك بالرضى كما أتلقى جميع الملتجئين إلي

في هذه الشؤون

ورأيت انك كريمة النسب فجعلتك من نساء الشرف في بلاطي ، وأنا الآن أسألك وأريد ان تجيبي بجلاء ... هل حدث لك في بلاطي مدة إقامتك فيه ما يدعو إلى الشكوى ؟

— كلا بل ان سيدتي قد غمرتني باحسانها وحيث ان جلالتك قد تدانت إلى سؤالي فالتمس منها ان تأذن لي بسؤال القيه ، هل فعلت أنا خلال الثمانية أشهر ما يوجب سخطها علي ؟

ألم أقم في جميع هذه المدة بكل ما فرض علي من الواجبات في خدمة جلالتك خير قيام ؟

إنهم يلقبونني « النافارية الحسناء » فهل بدرت مني على هذا الجمال بادرة ، وهل أغريت احد أبطالكم فأشغلته عن الاهتمام بالحرب ؟

وأخيراً هل ظهر مني منذ اعتنقت مذهبكم ما يدل على عدم الاحتفاء بامر هذا المذهب ؟

فأجابتها الملكة بلهجة خطيرة أضعفت همة الفتاة وقالت :

— لا أنكر انك أظهرت من الغيرة على المذهب والتشيع له ما لم يظهره سواك من المتمكنين . ولا أنكر أنك نهجت أشرف المناهج مع رجال البلاط ...

ولا أنكر انك أقمت بواجب خدمتي حق القيام بل أزيد على ذاك انك كنت تلازمينني وتأتين إلي في غير حين حاجتي اليك بحيث كنت دائماً بقربي لترى كل شيء وتسمعي كل ما يقال .

وقد كانت الشكية ظاهرة جلية ، فاضطربت اليس اضطراب ورق الخريف وقالت إني أخاف ان أفهم .

فنظرت اليها الملكة نظرة إشفاق ، وقالت : ولكن يجب مع ذاك أن تفهمي .

إن الشك بك لم يخامرني إلا منذ أسبوعين . وكنت أود ان أصونك من خجل العار لأني أحبك ولكن لا بد لي من إبعادك لأني واثقة من خيانتك .

– أتطردني جلالة الملكة ؟

فأجابتها بملء البساطة : نعم .

وساد السكوت هنيهة كانت اليس في خلاله واقفة وقفة المجرمين تنظر إلى ما حواليها نظراً قلقاً مضطرباً لا يستقر على شيء .

ثم تنهدت تنهداً طويلا وقالت : إن جلالتك منخدعة ... واني ضحية النميمة دون شك .

وقد كانت ملكة النافار متأثرة من اضطراب وصيفتها فوق تأثر تلك الوصيفة من طردها لأن النفوس الكبيرة لا تطيق احتمال الخيانة وتشفق على ضعف الانسان .

وقد نفرت من خيانة اليس ، واستعظمت ان تخونها بعد طول إحسانها اليها . ولكنها أشفقت ان تراها في هـذا الموقف الحرج ، تجمع كل قواها العقلية في التماس برهان يؤيد براءتها ، كما يخبط الطير بأجنحته للافلات من يد القناص .

فنظرت اليها نظر المشفق وقالت لها : إصغ إلي يا اليس

لقد كان يجب علي ان أدفعك الى قضاتنا كي يثبتوا خيانتك ويعاقبوك بما تقضي به القوانين ، ولكني أشفق عليك وأكتفي بارجاعك الى الملكة كاترين .

– إن جلالتك منخدعة . . إني بريئة

فهزت الملكة رأسها وقالت : ألا تذكرين ذاك اليوم الذي دخلت إلى غرفتك فجأة وأنت تكتبين ، فلماذا القيت ما تكتبينه في النار حين دخولي وعرضت نفسك للظنون

فتظاهرت اليس بالاضطراب الشديد وقالت : أرى انه لا بد لي من أن أعترف لجلالتك بالحقيقة ... إني أحب يا سيدتي ... وقد كنت أكتب الى الذي أحبه .

– هذا الذي اعتقدته في ذاك اليوم وهذا الذي دعاني الى السكوت لكن أحد رجالي رآك في ذاك اليوم تتحدثين مع رجل يحمل البريد إلى باريس ، ثم ذهب الرجل مسرعاً الى باريس ولم يعد ، فلماذا ؟

– إني عهدت اليه بمهمات الى بعض الأصدقاء في باريس ، أيكون الذنب ذنبي اذا لم يعد ؟ وبعد : فمن يعلم ، إنه قد يكون قتل في الطريق .

– وعندما اجتمع قواد جيوشنا للمداولة فلماذا كنت يا اليس مقيمة في تلك الغرفة المشرفة على قاعة المداولة ؟

– ان هؤلاء القواد باغتوني بالدخول الى القاعة وانا في الغرفة ، فلم أستطع الخروج منها .

– حسناً ، إنك تدافعين عن نفسك بالبراهين المختلفة ، وقد أقنعتني براهينك ... ولكني ، كما قلت لك ، بدأت أرتاب بك منذ أسبوعين ريبة شديدة .

– ولماذا يا سيدتي ، لماذا ؟

– لقد بدأ شكي بك منذ إلحاحك عليّ بمرافقتي الى باريس وكان جميع رجالي يشكون بوفائك ويرسلون إلي التقارير الكثيرة عنك فأردت أن أعرض حياتي للخطر إثباتاً لبراءتك .

– وأنت ترين يا سيدتي اني بريئة ، لأنك لا تزالين في قيد الحياة .

– لولا هذا البطل الذي أنقذني لبلغ أعدائي مني ما يريدون .. اليس إنك كنت متفقة مع الذين كانوا يريدون قتلي ؟

– معاذ الله يا سيدتي أن أفعل .

– اليس دي ليكس . إنك أنت التي أردت ان تمر المركبة فوق الجسر ،

وأنت التي كشفت السجف كي يروني ، وانت التي ذكرت اسمي كي يسمعه أعدائي ، وأنت التي حاول أحد أولئك القتلة ان يعطيك رسالة حين انقلبت المركبة ، فلم تنتبهي الى الرسالة لاضطرابك ولكني كنت أقل اضطرابا منك فالتقطتها وهذه هي

ثم دفعت اليها تلك الرسالة مطوية .

فركعت اليس وقد شعرت ان الأرض تميد بها لما اعتراها من الخجل وحاولت الكلام فلم تستطع .

فقالت لها الملكة : خذي الرسالة إنها لك .

فأخذتها الجاسوسة دون ان تجسر على النظر الى الملكة .

فقالت لها : أأمرك ان تقرأيها لانها واردة اليك من أسيادك .

فقرأت اليس بصوت يتلجلج ما يأتي :

« إذا نجحت المهمة فاحضري غداً صباحاً الى اللوفر ، وإذا لم تنجح فالتمسي إجازة بعذر من الأعذار واحضري الى اللوفر بعد ثمانية أيام لان الملكة تريد ان تراك »

وكانت الرسالة خالية من التوقيع .

فأنت اليس بعد قراءتها أنين الموجع ثم عادت الى الاطراق دون ان تنبس بكلمة او تجسر على النظر الى الملكة

أما الملكة فانها أشارت بيدها الى الباب وقالت لها : إذهبي !

فنهضت الجاسوسة ومشت الى الباب وهي تتعثر بأذيالها ، ففتحت الباب بيد تضطرب . وما كادت تخرج منه حتى جعلت تركض كالمجانين وهي لا تعلم أين تسير .

أما الملكة فانها عادت الى الغرفة التي كان يقيم فيها الرجلان وقالت لهما : هلموا بنا فاننا مسافرون .

وذهبت وإياهم فنظرت الى ما حواليها قبل ان تركب المركبة كأنها تبحث

عن اليس لتعلم في أية وجهة ذهبت .

وأما اليس فإنها خرجت من المنزل ومشت وهي لا تعلم أين تسير .

ثم وقفت مضطربة حائرة وجعلت تحدث نفسها فتقول :

إلى أين أذهب ؟.. وأين أختبىء ؟.. وماذا يحيق بي متى عرف بما جرى ؟..

رباه !.. ماذا أصنع ؟.. أأذهب الى باريس ؟.. أأسير الى الملكة كاترين الهائلة ؟..

كلا .. كلا .. رباه ماذا صنعت ؟.. وأي إثم اردت ارتكابه فقد حاولت قتل ملكة النافار .

اني أرى الأرض تميد بي من الخجل والعار، وأي إثم أفظع من هذه الجريمة .. ان الظلام مدلهم الآن فلا يراني أحد ..

ولكن النهار على وشك الطلوع ، ومن يراني ولا يقرأ بين عيني ما كتب من العار .

ثم جلست على حجر ، وحملت رأسها بين يديها ، وتاهت في مهامه التفكير .

كانت هذه الفتاة من أبدع ما تراه العيون جمالاً ، ولكن من رآها في هذه الساعة وقد جحظت عيناها واصفرت وجنتاها ينكر فيها ذاك الجمال الفضاح الذي كانت تضرب به الأمثال في بلاد النافار .

وقد جلست على الحجر وجعلت تقول : مـاذا أصنع ؟.. أأهرب من الملكة كاترين ؟..

ويح لنفسي وأين أختبىء منها الا في ظلمة القبر ... ولكني يعز علي الموت فلا أزال في نضارة العمر .. كلا .. لا أريد الموت . فسيري أيتها الشقية الى أقصى ما رسمته لك الخيانة من المهاوي .. اذهبي أيتها الجاسوسة السافلة الى تلك الملكة الهائلة فانها تنتظر قدومك .

وهكذا كانت هذه المنكودة تؤنب نفسها وهي لا تدري ما تصنع في موقفها الحرج

على اننا قد نكون تسرعنا في الاشفاق عليها فستظهر لنا حوادث هذه الرواية حقيقة حالة هذه الصبية فيحكم عليها القراء بما يرون .

وبعد ان استقر رأيها على الذهاب الى الملكة وقفت وجعلت تسير متجهة في طريق باريس كأنما قوة خفية تجذبها اليها .

وهي تسير مسرعة ، كأنها تريد الإسراع بالبعد عن ملكة النافار فراراً من الخجل .

وكانت المسافة بينها وبين باريس ساعة ، وأبواب العاصمة مقفلة في الليل . فجعلت تسير بين الأشجار وهي خائفة وجلة حتى انتهت الى منزل كان ينبعث منه النور فأسرعت اليه وقد وهت رجلاها من السير .

حتى اذا وصلت اليه علمت انه فندق للمسافرين فدخلته وأسنانها تصطك من البرد ، فدخل بها صاحبه في البدء الى محل الاستدفاء ، وذهب ليعد لها غرفة لمبيتها .

فلما دخلت اليس رأت رجلاً جالساً في ذاك المكان يستدفىء بناره وظهره الى الباب .

وخرج بارق من النار أضاء المكان لحظة ، فعرفت الرجل ، وصاحت صيحة دهش .

- ٢٢ -

الفندق

كان هذا الرجل ديودات وقد سمع صيحة الفتاة فالتفت فرأى أليس دي ليكس واقفة في تلك الغرفة تنظر اليه .

فاصفر وجهه ، ووثب من مكانه وثباً فسار اليها وأخذ يدها بين يديه وهو يقول :

من أرى ؟ أليس . كيف أتيت وما هذا الاتفاق السعيد فقد رأيتك وأنا افتكر بك وقلبي يكاد ينفطر لفراقنا الطويل ..

إذاً ، لست شقياً إلى الحد الذي كنت أتصوره ولا يزال للعناية رفق بي إذ قد رأيتك .

وقد أخذ بيدها وسار بها إلى حيث كان جالساً عند المستوقد وقال لها :

أدني من النار يا أليس . ماذا أرى ، أهذا أنت ؟ اني أكاد أكذب عيني . ما هذا الأصفرار ؟

فقالت أليس في نفسها ويلاه ماذا اجيبه ؟

فذهل ديودات لسكوتها وقال لها :

ماذا اصابك يا أليس وما هذا السكوت ؟

فلم تجب أيضاً .

وكان كل من الاثنين يحب الآخر حباً مبرحاً صادقاً فذعر ديودات لما رآه من

اضطرابها فأخذ يدها بين يديه وقال :

أليس ، لماذا لا تجيبين ؟

فاغمضت الفتاة عينيها وقالت في نفسها : رباه ما أشد ويل هذه الساعة ، اني اؤثر الموت الف مرة على أن أقول الحقيقة وأعرض نفسي لاحتقاره .

أما ديودات فقد انقلبت دهشته إلى رعب فقال لها بصوت حنون .

اراك مريضة أيتها الحبيبة ، وسأعود بك إلى ملكة النـافار ، فانها لم تسافر بعد .

فاهتزت اهتزازاً عنيفاً ولكنها أيضاً لم تجب .

فقال لها يا ملاكي المحبوب ويا كل ما ارجوه في هذه الحيـاة اني لا أجد لساناً يفصح عن امتناني لما اراه من اخلاصك وصدق حبك وكفى دليلاً على طهارة قلبك وصدق غرامك انك ما أطقت فراقي فسافرت ساعة سفري ، وانعمت علي بهذا اللقاء بل بهذا النعيم .

ولكن أمر قدومك إلي يجب أن يبقى مكتوماً ، إذ لم تحن الساعة بعد لإظهار غرامنا ..

تدفأي أيتها الحبيبة وسنعود بعد ساعة إلى سانت جرمين فاعترف للملكة النافار بغرامنا وأعود إلى السفر فتنتظرين عودتي آمنة مطمئنة .

وعند ذلك عولت أليس على الكلام إذ وجدت ما تقوله فنظرت إلى حبيبها وقالت له بصوت مضطرب : أن الملكة سافرت .

فذهل ديودات وقال : سافرت ؟

قالت نعم ، منذ ساعة وقـد اغتنمت فرصة صعود الملكة إلى المركبة وهربت .. وسمعت صوتها يناديني ، فلم أجب ، فسارت المركبة بالملكة وجئت أنا اليك .

– لقد أخطأت خطأ عظيماً يا أليس فان هربك للحاق بي يدلني على صدق اخلاصك في حبي بل قد يزيدني غراماً بك إذا بقي في قلبي متسع للمزيد

أيتها الخطيبة الحبيبة ، ولكن الملكة لا تعلم شيئاً من أمر خطبتنا وغرامنا فما عساها تفتكر وما عساها تقول :

فنظرت أليس اليه نظرة ملؤها الحب وقالت له : لتقل ما تشاء فلا ابالي بما يقولون .

اني لم أطق احتمال فراقك الطويل .. ولما رأيتك ذاهباً في طريق باريس شعرت بقوة لا تغلب تدفعني إلى السير في أثرك .. فابقني معك أيها الحبيب ولا ترجعني من حيث أتيت .

وكانت أليس تقول هذا القول وهي تضطرب غير أن اضطرابها لم يكن اضطراب غرام ولا حياء أو أنس ، بـل كان لاندفاعها في الكذب مكرهة أمام من تحب .

غير أن ديودات لم يفهم من هـذا الاضطراب غير معنى الغرام فهاجت عوامل الحب في قلبه الشريف ، واغرورقت عيناه بالدموع فركع أمام الفتاة وجعل يقبل يديها ويغسلها بدموعه ويقول :

أسألك العفو يا اليس ، فإنك أطهر مني قلباً وأعظم نفساً ، فلا أستحق أن أفوز بنعمة حبك .

نعم أيتها الحبيبة أنت لي وأنا لك يحملني إلى الأبد ، ونحن كذلك منذ أول يوم رأيتك فيه .

أتذكرين يا اليس يوم جئت من باريس .. حين كنت وحيدة ، وقد تحطمت مركبتك على الجبـال ، وتخلى عنـك المرشدون فجعلت تسيرين شريدة وحيدة إلى أن لقيتك على شاطىء ذلك النهر الذي لم تستطيعي اجتيازه ؟

أتذكرين يا اليس كيف رويت لي حكايتك ، وكيف كنت أصغي اليك معجباً مفتوناً بذلك الحديث .

اننا لبثنا ذلك اليوم حيناً طويلاً تحت شجرة الجوز إلى ان ظهر

الشفق ، فحملتك بين ذراعي واجتزت بك ذلك النهر وذهبت بك إلى ملكة النافار .

وعنـد ذلك وقف بعد أن كان راكماً ، وقـد اتقدت عيناه بأشعة الحب الخالص ، وبقيت الفتاة تنظر اليه باعجاب وافتتان ، وقد نسي كلا العاشقين انهما مقيمان في فندق عام .

[redacted] لهما الناس في بال [redacted] .

ويا [redacted] أي امتزاج ، حتى لا تبرح ذكرى تلك الساعـة أذهان العاشقين ولو كرت عليهما الأدهار .

فقد كان يخـال لهما أن السماء قد فتحت أبوابها لتظهر لهما كيف يكون النعيم .

وقد بلغت تلك الجاسوسة من الجمال مبلغاً تقف عنده الأبصار حائرة ، وهو جمال نادر فضاح يشبه جمـال ملائكة الشر ، كما كان يمثلها الأقدمون فـلا تزرع حيث تمر غير الشر ، ولا يحصد العالق باشراكها غير المصائب

ومع ذلك فقد كانت صادقة في غرامها مخلصة في حبها لابن الملكة كاترين ، فلا يتسرع القارىء في الاشفاق عليها ، ولا يندفع في كرهها وليصبر إلى أن يقف على كل أمرها ويعرفها حق العرفان .

وعاد ديودات إلى الحديث فقال :

منذ ذلك اليوم بـدأ حبنا يا اليس ، واني لو عشت عشرين مرة في عشرين وجود لما نسيت تلك الساعة التي حملتك فيها بين ذراعي .

نعم ان حبك نفذ إلى قلبي منذ تلك الساعة كما تنفذ أشعة الشمس إلى الأناء فتملأه نوراً .

نعم اني كنت في ذلك العهد مظلم النفس تثور الهموم في قلبي ثورة العواصف

ويملك اليأس عناني فتظلم الدنيا في وجهي ، وتضيق بي على رحبها ، فجعلت ظلامي ضياء ، ويأسي رجاء وشقائي سعادة وهناء .

اليس انك غبطتي ونعيمي في هذه الحياة ، فلنعش سعيدين ولننسى كل ما في هذا الوجود .

فوقفت اليس عند ذلك [redacted] ، ثم أسندت رأسها المصفر على [redacted] وقالت :

أواه انك لو استطعت الثبات على ما تقول ، وقدرت على نسيان كل ما في هذا الكون ، لما أعوزنا من أسباب السعادة شيء .

واصغ إلي أيها الحبيب ، فأنا أيضاً كنت مثلك حليفة اليأس ، فما ظهر لي الرجاء إلا من بارق عينيك ، وكلانا أنقذ صاحبه من مهاوي الشقاء .

وأنت لي يحملتك وأنا لك يحملتي ، وكلانا لا يرى النعيم إلا بقرب حبيبه فلنهرب أيها الحبيب ولنبرح فرنسا إلى بـلاد ساكنة آمنة ندفن فيهـا شقاءنا القديم ، ونحيي سعيدين بغرامنا الخالد .

قل ، أتريد أيها الحبيب . مر بيَ إلى حيث تشاء أكن لك أتبع من ظلك وأطوع من بنانك بشرط أن نكون بعيدين عن باريس وعن فرنسا

هلم بنا أيها الحبيب ولنهرب من هذه البلاد إلى حيث يطيب لك المسير ، أكن لك زوجة بل أمة ، فإنك بذلك تنقذني من نفسي .

وكانت تلفظ هـذه الكلمات بلسان يتلعثم ، وقد بدت عليها دلائل الرعب ، فذعر ديودات لذعرهـا وقال لها : اليس . مـاذا أصابك وما هذا الخوف ؟

قالت : أرضيت بالفرار أيهـا الحبيب .. هلم بنا ولنذهب قبـل طلوع النهار

وكأنها خشيت أن يسيء الظن بها لمـا رآه من خوفهـا ولالحاحها عليه بالفرار ، فبذلت جهداً عنيفاً بحيث أعادت اليهـا السكينة ، ونظرت إلى

ديودات فابتسمت له وقالت :

لا تنكر علي تكرير لفظة الفرار ، فما أردت بهذا التعبير غير السفر ، وما أردت بالسفر واياك إلا الابتعاد عن هذه البلاد ، فلا يكون لك ما يشغلك عني ولا تضطر مكرهاً إلى فراقي حتى دون وداع كما اتفق لك هـذه الليلة . الا أكون بذلك نجوت من الأحزان .

— هو ذاك أيتها الحبيبة ، ولكنك شديدة الاضطراب .

— لقد زال اضطرابي وها انا الآن في اتم حالات السكون ، اعيد عليك ما قلته ، واسألك موافقتي على السفر .

هلم بنا إلى اسبانيا إذا اردت او إلى ايطاليا إذا احببت ، فان من كان باسلاً مثلك لا يعدم ملكاً او اميراً يحتاج إلى سيفه .

فأجلسها ديودات على كرسي بجانبه ، واطرق هنيهة مفكراً ، ثم نظر اليها وقال :

اصغي إلي يا اليس فاني اقسم بك وبغرامك ، وهو اجل قسم عندي ، إني لو كنت مطلق الإرادة لأجبتك لفوري ، هلمي بنا إلى حيث تشائين ، فان كل بلد من بلاد الله احسبه فردوساً إذا كنت معي فيه .

— كيف ذلك : الست مطلق الارادة ؟

— بل انت كيف تسألينني هـذا السؤال ؟ ألا تعلمين من امري مـا اعلم ؟ وسيأتي يوم اخبرك فيه بسر مولدي بجملته حتى اني سأخبرك باسم امي .

فارتعشت اليس لأنها كانت قد علمت هذا السر الذي يكتمه عنهـا ، بما سمعته من محادثته مـع ملكة النافار حين كانت مختبئة في الغرفـة المجاورة كما تقدم .

ومضى ديودات في حديثه فقـال : نعم سأخبرك بكل امري ، ولكن اعلمي الآن انه يوجد امرأة اضحي حياتي في سبيل افتدائها وهي ملكتنا اي ملكة النافار .

ان هذه الملكة كستني من عري واشبعتني من جوع ، وكفلتني فصيرتني رجلاً بعد ان كنت من اشقى الأشقياء ، فأنا مدين لها بحياتي وشرفي وهنائي .

فاذا عرفت ذلك فاعلمي ان هذه الملكة التي تناديني ولدها وادعوها امي محتاجة إلي ، وقد اقسمت لها ان انفذ اوامرها ، فاذا سافرت الآن فلا اكون قد فررت فقط فرار الجبناء ، بل اكون نذلاً خسيساً خائناً ، بل اكون أخس من اولئك الجواسيس الذين تستخدمهم الملكة كاترين في سبيـل اغراضها .

افهمت الآن السبب يا اليس ؟

فامتقع وجه الفتاة لعبارة عشيقها الأخيرة وقالت له بصوت خافت : نعم فهمت ولا سبيل إلى السفر .

— دون ريب فان حياة الملكة معرضة للخطر إذا لم اذهب إلى باريس .

— هو ذاك فان الأخطار تتهددها ولا بد من نجدتها .

— وسأكون في خدمتها مـا حييت ، فلا تحسبي ان خلوصي في خدمة الملكة يؤثر في شيء على خلوصي في حبـك ، فكلا كما ملاكي وكلا كما حارسي .

اما وقد سافرت الملكة فلم يبق بد من الذهاب معي إلى باريس ، وهناك تقيمين في منزل اعرفه فتكونين آمنة كل ريب .

— منزل من ؟

— منزل الاميرال كوليني .

فهزت الفتاة رأسها ولم تجب .

فقال لها ديودات ، الا تحبين الاقامة في منزل الأميرال ؟

فأطبقت عينيها كأنما النعاس والتعب قـد انهكاها فهي تطلب الرقاد ، والحقيقة انها كانت متعبة غير انها لم تكن تريد النوم كما تظاهرت بغية الراحة بل كانت تبغي الاختلاء كي ينطلق لها العنان في التفكير والتدبير ، واختلاق اكذوبة جديدة تنقذها من موقفها الحرج الشديد .

فقالت له وهي مغمضة العينين : اني محتاجة الى النوم ، واود ان انام قرب هذه النار فان تعبي شديد .

فأسرع ديودات فنادى صاحب الفندق وامره ان يحضر فراشاً وغطاء ، ففعل ونامت اليس : وديودات ساهر بقربها ينظر اليها معجباً مفتوناً بذلك الجمال .

اما اليس فانها كانت تفكر في ما صارت اليه وفي موقفها الحرج ، فان هذه الجاسوسة كانت تعبد ديودات عبادة .

ولكن الفرق في غايتهما وسعيهما كان شديد التناقض ، فان ديودات ابن الملكة كاترين كان يحملته لملكة النافار .

واليس كانت جاسوسة الملكة كاترين ، ولا تسعى إلا لقتل ملكة النافار ، والعداء بين الملكتين عظيم .

فكان ديودات واليس خصمين في السياسة ، عدوين لدودين يقضي الواجب على كل منهما ان يقتل الآخر .

غير ان ديودات لم يكن يعلم شيئاً من امر اليس ، في حين ان اليس كانت تعلم كل خفاياه .

وقد طال تفكير الفتاة الى ان حصرت افكارها في امرين ، وجعلت تنظر فيهما وتمحصهما ، وهما الانتحار او الحياة .

فبدأت تفحص فكرة الانتحار فاستسهلته في البدء حتى أوشكت ان ترجحه كي تنجو من العار أمام حبيبها .

ولكنها كانت تحبه حباً مبرحاً ، فتمثلت لها السعادة بقربه حتى انتصر الغرام ونبذت فكرة الانتحار .

ثم عادت إلى الافتكار بالحياة فخطر لها انها تستطيع ابعاده من باريس والتخلص من الملكة كاترين .

ولكنها لا بد لها قبل كل ذلك ان تفترق مدة عن حبيبها .

وهنا خطر لها خاطر مخيف وهو ان ديودات قد يجتمع خلال هذه المدة بملكة النافار ، وان الملكة قد تخبره بما كان من أمرها .

ثم قالت : ولكن الملكة لا تعلم شيئاً من حبنا ، وهي قد طردتني من خدمتها طرد المشفقة علي ، فاذا لم يباحثها ديودات بشأني فلا سبيل إلى ان تفاتحه به .

ولذلك فقد وجب ان أجد حيلة تمنعه من محادثة الملكة بشأني .

ولم يبق عليها بعد ذلك إلا ان تجد حيلة للفراق الموقت كي تتمكن من مقابلة الملكة كاترين والتخلص من خدمتها .

وعند الفجر نهضت من مضجعها ، فوجدت خطيبها لا يزال ساهراً عليها فابتسمت له ابتساماً سحره .

وبعد مناولة الطعام عادا إلى الحديث ، فعرض عليها ديودات أن تقيم في قصر الأميرال كوليني ، فابت واقترحت أن تكون اقامتها في منزل قريبة لها على زعمها ، على ان يزورها في ذلك المنزل مرتين في الاسبوع .

فوافقها ديودات وخرجا من ذلك الفندق ، فامتطى جواده واردفها وراءه حسب العادة في ذلك العهد ، وسار بها حتى وصلا إلى باريس ، فاوصلها إلى المنزل الذي ذكرته له وهناك ودعها وانصرف .

- ٢٣ -

اليس دي ليكس

وطرقت اليس ذلك الباب ففتح لها ودخلت منه رواق طويل . ثم صعدت سلماً إلى دور هذا المنزل الأعلى ، فاستقبلتها امرأة كهلة بالترحاب ، وسارت بها الى قاعة فاجلستها وقالت لها . كيف انت يا اليس ؟

فتنهدت الفتاة وقالت : على اسوأ حال يا لورا ، فقد انهكت الدسائس عقلي واضعفت جسمي وأنفت لكثرة خياناتي فسئمت العيش .

فضحكت لورا وقالت : ما هذا الانقلاب يا اليس وماذا حدث ؟

— لم يحدث شيء ، ولكني متعبة منهكة القوى ، فاعطني شيئاً من ذلك الاكسير الذي عودتني شربه عساي ارتاح مما انا فيه .

— ألا تريدين أن تأكلي ؟

— لا أجد شهية للطعام .

فاحضرت لورا ما طلبته وسقتها جرعة من ذلك الشراب، فانتعشت لفورها وتبدل اصفرارها بالاحمرار ، فأخذت تفحص كل ما كانت تراه في تلك القاعة كأنها لم تعرفه من قبل ، ولورا تراقبها وهي مندهلة مما تراه .

حتى وقفت اليس عند رسم معلق على الجدار ، فاهتزت حين رأته ووقفت تتأمله ملياً .

ثم التفتت فجأة إلى لورا وقالت لها : يجب نزع هذا الرسم من مكانه .

— لماذا ؟ أتريدين نقله إلى غرفة النوم ؟

فاحمر وجه اليس وقالت : كلا بل اريد اتلافه امامي .

فصعدت لورا فوق كرسي لنزع الرسم وهي تقول : مسكين انت ايها المارشال .

ثم انزلت الرسم فقطعته ارباً والقته في النار .

وبقيت اليس تراقب تمزيقها حتى انتهى ، فجلست على كرسي وقالت للكهلة : سيحضر شاب إلى هنا يا لورا يوم الجمعة في المساء .

فابتسمت لورا ثم نظرت إلى الفتاة نظرة حاولت ان يكون لها معنى الاشفاق .

فقالت لها اليس : لماذا تنظرين إلي هذه النظرات ، العلك مشفقة علي ...

نعم اني محتاجة إلى الشفقة . فاصغي إلي الآن .

ان هذا الشاب يأتي يوم الجمعة والاثنين من كل اسبوع .

— كما كان يأتي الآخر .

— هو ذاك ، فاني لا اكون مطلقة الحرية إلا في هذين اليومين . أفهمت ما اقوله لك يا لورا ؟

— دون ريب وسأعود إلى تمثيل دور القرابة ، فانا ابنة عمك ، اليس كذلك ؟

— كلا ، فقد قلت له انك عمتي .

— العل هذا العاشق الجديد خير من المارشال هنري دي مونمورانسي الذي مزقت رسمه .

— لا تذكري هذا الرجل امامي ، فانه لم يكن غير عشيقي .

— وهذا الجديد .

— هو الرجل الوحيد الذي احببته واحبه في هذا الوجود

— والمارشال ، لم تحببه ، والذي كان قبل المارشال ؟

فاصفر وجه اليس وقالت : أتريدين به المركيز دي باني جارولا .

– نعم هو نفسه اتعلمين ماذا جرى له

– كيف تريدين ان أعلم .

– انه انخرط في زمرة رجال الدين ، وبات من الكهنة الوعاظ واشدهم تحمساً وغيرة على الدين ومن كان يدور في خلده ان هذا الفتى الذي كان من ابسل رجال السيف ينقلب هذا الانقلاب . فقد خطب أمس خطبة بليغة حث فيها الناس على الفتك بالهوكينوت .

فذهلت اليس وقالت : المركيز باني جارولا من الرهبان ؟

– قالت هذا حال الانسان في تقلبه ، فبينما هو من أهل الشر والفساد يتوب توبة صالحة ويستحيل فجأة ميله إلى الخير .. فلندعه في شأنه فقد طوي تاريخه عندنا ، ولنبحث في هذا العاشق الجديد ، فماذا يدعى ؟

فلم تسمع اليس سؤال لورا لاسترسالها في التفكير ، وقد تقطب وجهها ثم عاد اليه اشراقه تباعاً .

فنظرت إلى لورا وقالت لها : إذا كان ذلك فقد اصبحت مطلقة السراح كما أريد ، ولكنك لم تقولي لي في أي دير يقيم

– في دير جبل القديسة جنفياف

– وهو يتولى الوعظ والارشاد كما تقولين

– نعم وأكثر من يسمع عظاته من النساء الجميلات ، وهن يعترفن له بخطاياهن ايضاً . وقد اتصل بي انه كثير التسامح ، يغفر كثيراً لانه اخطأ كثيراً .

– إذاً بوسعك يا لورا ان تنقذي حياتي .

– كيف ذلك وماذا يجب أن اصنع ؟

– يجب أن تذهبي إلى هذا المركيز أو هذا الراهب ، وتحمليه على القبول بسماع اعترافي .

فنظرت لورا اليها نظرة الفاحص ، فلم تجد غير وجه مضطرب بحزن شديد ، وعينين تدلان على الطمع بالرجاء ، فقالت في نفسها : لا بد ان يكون لها سر خفي يجب ان اعرفه

ثم اجابتها قائلة : ان الأمر سهل يا اليس فانه تخصص معظم اوقاته لهذه الاغراض

– ولكن احذري ان تذكري له اسمي ، وأنت تعلمين يا لورا إني أحبك حباً أكيداً ، فقد انقذتني مرة إذا كنت تذكرين .

– نعم ولا شك عندي انك تثقين بي ثقة شديدة ، ولكنك لم تذكري لي بعد اسم هذا الشاب الذي سيزورك يوم الجمعة ويوم الاثنين .

– لم يحن الوقت بعد يا لورا للاباحة باسمه فان هذا الاسم سر هائل لا أجسر الى الآن أن أردد ذكره في ضميري وانا اناجي به نفسي .

انما يجب أن تعلمي إني أحبه حباً مبرحاً تقصر عن وصفه الأقلام ، واني أضحي حياتي في سبيل هنائه ، فقد شقي كثيراً ولا أدري ما خبأت له الأقدار أيضاً من الشقاء .

ومـا راعني إلا اني لست من اكفائه ، فهو يعتقد اني طاهرة نقية وأنا على ما تعلمين

نعم لا استطيع أن أبوح لك باسمه يا لورا لأني أحبه واني اوثر الموت على ان اخاطر بذكر اسمه الحقيقي .

ولكن اصغي إلي يا لورا .. انك تعرفين ما اكابده من العناء في خدمة هذه الملكة المشؤومة كاترين ، واني تلبست بجميع أنواع الاثام في سبيلها ، حتى صغرت نفسي وانفت الدنيا وبت اشتهي الموت . ولولا ما أجده في قربك من العزاء ، وما اسمعه من فمك من النصح والارشاد لما بقيت الى الآن في قيد الحياة .

وقد عزمت اليوم عزماً اكيداً على التخلص من قيود هذه الملكة الجائرة

التي لا يعرف قلبها معنى الرحمة والاشفاق فقد كرهت الدسائس وأنفت ان اكون آلة في يدها تديرني كما تشاء أغراضها السافلة .

وحسبك انها جعلت عواطفي العوبة وجعلتني اتخذ الغرام فخاً انصبه لمن تريده من أعدائها ، واحتال به على اسرارهم فأنقلها اليها ولا يكـون حظهم بعد ذلك غير الموت أو السجون الأبدية .

نعم اني أحب الآن ، وقد فتح الحب عيني وانار قلبي بنور الفضيلة فتمثلت لي جرائمي الماضية بأفظع تمثيل ولم يبق لي مطمع إلا بكسر هـــذه الأصفاد والخلاص من أسر الملكة والنجاة من هذه المعيشة الشائنة .

وهنا استرسلت في البكاء ، تبكي بكاء النـادمين ، فجعلت لورا تطيب خاطرها وتقول لها لم يثر هذه الأفكار المظلمـــة في نفسك غير التعب الذي أصابك .

فمسحت اليس عينيها وقالت : نعم اني متعبة يا لورا ولكن تعبي أعظم من أن يحيط به تصورك .

ثم قالت بصوت أجش : بقي لي رجاء وحيـد إذا لم يتحقق لا يبقى لي غير راحة واحدة وهي الموت .

— أنت تموتين في نضارة شبابك وربيع جمالك . أطردي هذه الأفكار السوداء ، فما خلقت لمثلك ، ام تريدين أن تقلدي ذلك المركيز عشيقك القديم فيما فعل ، فإن الرهبنة نوع من الموت .

فوضعت اليس يدها على جبينها وقالت .. الراهب ؟

— اطمئني فستعترفين له بخطاياك ويغفر لك تلك الذنوب .

— متى يكون ذلك ؟

— في مساء السبت . ولكن قولي لي متى عزمت على الذهاب إلى اللوفر، فأنت تعلمين انهم ينتظرونك فيه .

— تقولين اني أستطيع الاعتراف للمركيز يوم السبت مساء ؟

— نعم ...

— إذاً سأذهب إلى اللوفر في صباح ذلك اليوم . والآن دعيني وحـــدي يا لورا فإني محتاجة إلى الراحة .

فتركتها لورا ودخلت اليس إلى مضجعها فنامت وقد انهكها التعب .

وفي تلك الليلة نفسها بينما كانت اليس نائمة خرجت إمرأة عنـد منتصف الليل من ذلك المنزل ، فذهبت مسرعة إلى ذلك القصر الذي بنته الملكـة كاترين لمشيقها الفلكي .

وصعدت هذه المرأة إلى برج ذلك القصر وهناك مصباح ينفـذ من جدار البرج وهو مرتفع بقدر قامة الانسان عن البرج وله كوة من فوقه نافذة اليه .

فأخذت المرأة رسالة من جيبها والقتها من تلك الكوة فسقطت في البرج .

ثم عادت إلى المنزل ودخلت تواً إلى مخدعها .

أما هذه المرأة فقد كانت لورا .

- ٢٤ -

بيبو كلب بارداليان

إن هذا الفصل سيكون موجزاً قصيراً وعلى كونه مصدراً باسم كلب لا يعدم فائدة ، وفوق ذلك ، فكيف لا يحق لهذا الكلب ان يكون له مقـالة خاصة في هذه الرواية وهو من أبطالها ، بل منقذ أبطالها ويفضل الكثيرين من رجالها .

في ذلك اليوم الذي قبض فيه الجنود على بارداليان وباغتوه في غرفته كما يذكر القراء ، إندفع « بيبو » بعاطفة الود الأكيد فدافع عن سيده وصديقه أجمل دفاع .

فإذا دميت رجل جندي في ذلك اليوم ، أو تمزقت جلود آخر فقد كان مرجع الفضل في ذلك لهذا الكلب .

ولكنه غلب كما غلب سيده فسار في أثر الجنود الذين كانوا يحملون بارداليان وقد لقوا من غضبه ونهشه ما لا يلقونه في الحروب ، حتى اضطروا الى مقاتلته بالسيوف فقطعوا إحدى أذنيه .

ولما خرجوا من الفندق وحملوا بارداليان في المركبة سار في أثر المركبة إلى الباستيل .

حتى إذا ما وصلوا اليه وأدخلوا بارداليان رأى « بيبو » وهو يجهل نظام السجون ، إن من حقه أن يدخل أيضاً كما دخل صاحبه .

غير ان الحراس لم يوافقوه على هذا الحق ، فاحتدم الخلاف بينهم وبينه حتى أفضى الى العراك وانتصار الجنود عليه وطرده بالحجارة .

ولكن « بيبو » لم يكن ممن يرضون بالهزيمة ، فلما ابتعد عن مرامي الجنود ولم تعد تصل اليه الحجارة عاود الكرة على باب السجن فوجده مقفلاً ولا سبيل الي فتحه .

فوقف عند ذلك الباب وجعل ينبح نباحاً مستطيلاً كانت تختلف لهجته بين الحزن والحدة .

أما نباح الحزن فقد كان يدعو به بارداليان ، وأما نباح الحدة فقد كان يتوعد به الحراس .

ثم لما رأى ان صاحبه لا يجيب نداءه ، وان الجنود لا يحفلون بوعيده جعل يطوف حول السجن ويدور دوران حجر الرحى ثم يرجع الى المركز الذي بدأ منه بالدوران دون أن يجد منفذاً الى السجن .

وبعد أن طوف ما طوف ، ويئس من الدخول ، ذهب الى قمة تبعد عشرين خطوة عن السجن وجلس فوقها . فكان الغلمان يرشقونه بالحجارة فلا يجيبهم بمثل اعتدائهم ، بل يكتفي بالابتعاد عن مراميهم والانتقال إلى مركز آخر .

وانقضى النهار ، وفرغت معدة « بيبو » ، وبدأ الجوع يعض أحشائه ، فصبر عليه صبر الكرام ولبث في موقفه ينتظر خروج صاحبه من السجن .

إلى أن هجم الظلام ولم يعد له طاقة على الجوع فانقلب راجعاً إلى الفندق على رجاء ان يأكل حسب عادته ويعود .

فعاد في الطريق الذي جاء منه حتى وصل إلى الفندق فكان اول ما صنعه أنه صعد الى غرفة صاحبه .

ولما لم يجده فيها نزل الى قاعة الطعام ودخل منها إلى المطبخ حيث كان صاحب الفندق ينظف طيوراً يطبخها .

وقد عرف القراء حادثة صاحب هذا الفندق مع بارداليان حين هم أن يلقيه من النافذة ، وكيف ان بارداليان كان يقيم في أحسن غرفة من غرفه ، ويأكل خير طعام دون ان يدفع شيئاً ، فكان صاحب الفندق يكرهه كما كان يكره كلبه وجواده ، ولكنه لا يجسر أن يبدي أقل اعتراض لخوفه من بارداليان .

فلما قبض الجنود على بارداليان ، كان ذلك اليوم من أسعد أيام صاحب الفندق .

فليتأمل القراء جسارة « بيبو » حين دخل آمناً مطمئناً لغاية المطبخ ، أما صاحب الفندق ، فإنه حين رأى الكلب ترك الطير الذي كان ينظفه وهاج غضبه ، فهجم على الكلب ورفسه برجله ، وهو يشتمه أقبح شتم .

ولكن بيبو مرق من بين رجليه ، فلم تصبه رجل صاحب الفندق ، الذي سقط على قفاه ، وأسرع الى الإناء واختطف طيراً وهرب به لا يلوي على احد .

فلما نهض صاحب الفندق من سقطته كانت نكبته مزدوجة بألمه لسقوطه وبسرقة الطير .

وأما بيبو فإنه بعد شبعه ذهب إلى جوار الباستيل ، وبات ليلته فوق تلك القمة .

ومضى على ذلك بضعة أيام وهو يسرق طعـامه في الليـل ، ويراقب في النهـار باب السجن ونوافذه ، وعليـه علائم الحيرة ، كأنـه يعجب كيف ان صاحبه يطيل الاقامة في ذاك المكان الذي دخل اليـه إلى هذا الحد

إلى ان اتفق يوماً انه رأى ، وهو يدور حول السجن ، وجهاً من خلال النافذة فوقف وجعل يحرك ذنبه كأنه عرف صاحب هـذا الوجه ولكنه لم يكن واثقاً بعد .

ثم برز هذا الوجه بجملته من النافذة فجعل بيبو ينبح نباحاً قوياً إذ لم يعد لديه شك ان هذا الوجه وجه صاحبه بارداليان .

أما بارداليان فانه أخذ يناديه باسمه والكلب يجيبه متودداً بالنباح .

وقد سمع الحراس صوت بارداليـان ونباح الكلب ، فأسرعوا كي يستطلعوا الخبر .

فرمى عندها بارداليان لكلبه كتلة من الورق الأبيض ، فانقض الكلب عليها وعضها بانيابه .

ورأى الحراس ما رماه السجين إلى كلبه ، فحسبوا ذلك رسالة وأسرعوا في أثر الكلب كي يأخذوا منه الرسالة ولكنه مرق أمامهم مروق السهم ، فلم يستطيعوا إدراكه .

أما بيبو فإنه لما ابتعد عنهم ، وأمن شرهم ، وقف وجعـل يلعب بتلك الورقة ، حتى إذا وجد أنه لا يوجد فيها ما يؤكل تركها وعاد مسرعاً الى الباستيل .

وبعد هنيهة عثر أحد المارة بهذه الورقة ففتحها ووجدها بيضاء ، لا أثر للكتابة فيها فألقاها على الأرض وانصرف .

- ٢٥ -

الباستيل

ولنعد الآن الى بارداليان فإنهم بعد ان أدخلوه إلى تلك الغرفة فكوا قيوده ثم تركوه وخرجوا وأقفلوا الباب .

وكان الباب قوياً متيناً ، فكان أول ما خطر لبارداليان ان يكسر ذاك الباب فانقلب عنه عاجزاً خامراً بعد ان أعياه الجهد .

ولما رأى أن لا حيلة له إلا بكسر الباب جعـل يتلهى بفحص تلك الغرفة فوجدها متسعة ولكنها خاوية خالية مظلمة ينفذ اليها نور ضعيف من السقف وهي باردة رطبة .

وقد وجد فراشاً من القش ومائدة صغيرة من الخشب تحت نافذة عالية وعلى هذه المائدة قطعة خبز وابريق ماء

وهذا كل ما كان موجوداً في الغرفة ، فوقف بارداليان مكتئباً حزيناً لا يسمع غير خطوات الحارس في الرواق، وهو واثق ان من يدخل إلى الباستيل

لا يخرج منه حياً .

وعندها اتجهت أفكاره بجملتها إلى لويزا ، فكاد ينفجر قلبه يأساً حين افتكر انهم قبضوا عليه حين كانت تناديه نداء المستغيث ، ويقول في نفسه : إنها استغاثت بي قبل سواي وافتكرت بي دون سواي حين الخطر ، وانا الآن في هذا السجن بل في هذا القبر . فما عساها تقول وأنا لم أجب نداءها ولم أسفك دمي في سبيلها .

وقد عض اليأس قلبه ونفر الدمع من عينيه وعاد إلى ذلك الباب يريد كسره فارتد عنه كما ارتد من قبل بعد القنوط .

ولم يكن يشك في ان لويزا لم تستغث به إلا من الدوق انجو فكان حين يفتكر أنه في السجن وان من يحبها في قبضة الدوق تطير نفسه شعاعاً ثم يسقط على الفراش قانطاً منهد الحيل .

ومضى على ذلك أربعة أيام ، وهو إذا أراد العزاء بالافتكار بلويزا زاده تذكارها يأساً وعذاباً .

وينصرف على ذلك إلى التفكير بالسبب الذي قبض عليه من أجله ومن الذي نكبه هذه النكبة .

وقد كان خطر له في البدء ان الملكة كاترين الآمرة بسجنه ولكنه قال في نفسه : إنها كانت راضية عني وانها عينتني في خدمتها وأمرتني ان أحضر إلى اللوفر فلا سبيل الى هذا الظن .

ولكن إذا لم تكن هي الآمرة فمن عساه يكون .

أيكون الدوق دي كيز صاحب هذه الفعلة ، وقد عرف اني علمت بسر المؤامرة ؟

ولكن كيف علم اني علمت ؟

وقد كانت هذه الأفكار تعذبه عذاباً شديداً ، حتى رق جسمه ونحل ، فعول على ان يعرف السبب في سجنه ، بكل ما استطاعه من

الوسائل .

وفي اليوم السادس جاءه السجان بالخبز والماء كعادته في كل يوم ، فقال له بارداليان : أود أيها الصديق ان أسألك سؤالاً ، وأتوسل اليك أن تجيبني عليه فهل تفعل ؟

فأجابه السجان قائلاً : لا يحق لي محادثة المسجونين

ـ ولكن كلمة ... كلمة واحدة ... بربك لا تذهب ، وقل لي لماذا أنا مسجون .

ـ لقد قلت لك انه لا يحق لي مباحثتك فاذا عدت إلى سؤالي اضطررت إلى تقديم تقرير عنك الى مدير السجن .

ـ وماذا يحدث بعد هذا التقرير ؟

ـ يحدث انهم ينقلونك من هذه الغرفة إلى سجن مظلم ضيق .

ـ وأنا رضيت ايها الشقي ان أزج في أعماق السجون بشرط ان أعلم السبب في هذا السجن فتكلم او أقتلك شر قتل .

ثم وثب يريد القبض عليه وإكراهه على الكلام .

ولكن السجان كان متأهباً متوقعاً منه هذا الوثوب فأسرع وثباً إلى الرواق وأقفل الباب قبل ان يتمكن بارداليان من إدراكه .

وعاد بارداليان الى محاولة كسر الباب كما فعل في الأيام الأولى فكانت النتيجة واحدة هي الفشل .

وبعد حين أقبل حاكم السجن يصحبه عشرة جنود مدججين بالسلاح حتى إذا وصلوا إلى غرفة بارداليان ناداه السجان من الخارج قائلاً: هوذا حاكم السجن يريد ان يكلمك

فهدأ ثائر بارداليان وقال : ليكلمني من يشاء ، بشرط ان أعلم السبب في سجني .

ففتح الباب عندها ودخلت الجنود .

وعاد بارداليان إلى الهياج ، وهم ان ينقض عليهم ، غير انه رأى بينهم حاكم السجن فتوقف عن عزمه ، لأنه عرف هذا الحاكم إذ رآه في جملة المتآمرين في الفندق .

أما الحاكم فانه بدأ الحديث معه فقال له بلهجة المؤنب النصوح : إنك فعلت ما لا يفعله سواك بتهجمك ، ورجائي ان لا تعود إلى مثل ذلك ، فلا تعرض نفسك للعقاب الذي يقضي به قانون السجن ... أتعرف هذا النظام ؟

إنه صارم شديد ... فاعلم انك في اول مرة تسيء الى الحراس تنقل من سجنك هذا الى سجن عميق مظلم ... وفي المرة الثانية تعاقب بصب المياه الباردة عليك ... وفي المرة الثالثة تعاقب بالجلد ، وغيره من أنواع التعذيب .

وقد أنذرتك الآن ويجب ان تعلم انه إذا كان السجن حرمك الرقاد فما ذنب حراسك لتحرمهم النوم ؟

وكان بارداليان قد تراجع خطوتين وجعل يصغي الى كلام حاكم السجن بالظاهر ، ولكنه كان يفكر في سره بأمر هذا الرجل فبدت عليه علائم الهدوء خلال التفكير .

وحسب الحاكم انه ثاب الى الهدوء واتعظ بوصاياه فقال له يسرني انك اهتديت فأمنت العقاب .

فأجابه بارداليان بملء الهدوء . ثق يا سيدي الحاكم اني لا ارتكب ما يخالف نظام السجن بعدما سمعته من إرشادك ، ولكني التمس منك أن تأذن لي بسؤال .

لقد عرفت سؤالك ، أنت تريد ان تعرف السبب في سجنك ، إعلم إني لا أبالي بمعرفة الأسباب ولا يسعني معرفتها لانهم يدفعون إلي السجين ويقولون لي يجب ان تحتفظ به ، ولكن الذي أرجحه انك لا تخرج من هذا السجن ،

فاجتهد ان تكون عاقلا صبوراً .

ـ سأمتثل يا سيدي الحاكم لنصائحك مع الشكر لك ، ولكن ليس هذا الذي أردت التماسه منك .

ـ إذاً ماذا تريد ؟

ـ ورقاً وقلماً وحبراً .

ـ ولكن الكتابة ممنوعة في السجن .

ـ إني لا أريد ان أكتب مذكراتي ، بل أريد الاباحة بسر عظيم . .

ـ أتقول سراً عظيماً ؟

ـ نعم يا سيدي الحاكم واني أريد ان أبوح لك به كتابة ، فقد اكتشفت مؤامرة بالصدفة .

فاصفر وجه الحاكم وقال : مؤامرة !

ـ نعم يا سيدي وهي مؤامرة الهوكينوت على قتل الدوق دي كيز وغيره من كبار المخلصين لكنيستنا .

ـ وانت اكتشفت هذه المؤامرة ؟

ـ نعم يا سيدي فإذا أذنت لي ان أكتب لك مهدت لك السبل للقبض على المتآمرين وأثبت التهمة بالبراهين المقنعة ورجائي بعد هذا الاكتشاف أن أكافأ بالعفو عني .

ومتى كتبت ما أريد كتابته ، واقتنعت ببراهيني ، لا أعود الى الكتابة بل أنتظر بملء الصبر صدور الأمر بالعفو عني لأن هذه الخدمة تستحق هذا الجزاء .

ـ هو ذاك يا بني ، فإذا صدقت براهينك كان العفو مضموناً ، لأن الأمر خطير .

ـ بل هو أشد خطورة مما تتوهم .

- إذاً سأنيلك ما تريد .

وكان الحاكم قد قرر خطته ، فقال في نفسه : إني أدع هذا الرجل يخط إقراره حتى اذا علمت سره أنزلته الى أحد السجون العميقة ، فلا يعيش فيها شهراً .

وإذا عرفت مثل هذا السر أنقذت الدوق دي كيز ، بل كنت منقذ ملكي القادم .

ثم تركه وانصرف بجنوده .

وبعد هنيهة ، جاء السجان بأدوات الكتابة ، ودفعها الى بارداليان . فأخذها بسرور لا يوصف ، وقال لذلك السجان : سأكون حراً طليقاً بعد بضعة أيام .

فارتعش السجان لاعتقاده ان من يدخل الى الباستيل لا يخرج منه حياً ، وقال له : كيف ذاك ؟

- لا تخف لأني لا أهرب من سجنكم ، ولكن الحاكم نفسه سيفتح لي أبواب السجن .

فقال السجان في نفسه : لقد عاد اليه الجنون ، غير ان جنونه هذه المرة محتمل لطيف لا خطر منه علينا .

وفي صباح اليوم التالي جاء السجان باكراً وقال له : هل كتبت إقرارك ؟ وهل تريد ان يحضر الحاكم لأخذه ؟

- لم أكتبه بعد لأن مثل هذا التقرير يحتاج الى إعمال الروية كي لا يفوتني شيء من مفصلاته .

- إذاً عجل به لأن الحاكم يلح في طلبه .

- قل له لا بأس من الانتظار ، لأني اذا أبطأت في كتابته ، كان أوفى وأتم .

فانصرف السجان ، وبقي بارداليان وحده فصعد على تلك المائدة

الموضوعة تحت النافذة ، وجعل ينظر من خلال حديدها ، ويعمل الفكرة

وقد طالما وقف تلك الوقفة وفكر ملياً ، حتى انه كان يرتعش احياناً وهو ينظر الى العلو الشاهق كأنما كان يخطر له الفرار من تلك النافذة ، والهبوط من ذاك العلو .

وفيما هو يراقب نظر كلبه يرود حول السجن ففرح وبرقت عيناه بخاطر سريع فنزل عن المائدة وأخذ ورقة من الورق الذي أحضره له السجان وكتب عليها بضعة أسطر وخبأها في قبعته .

ثم أخذ ورقة ثانية ووضع فيها قطعة صغيرة من الحجر ولفها عليها بحيث باتت تشبه كرة .

وعاد الى النافذة ورأى كلبه ، فناداه باسمه ، ورمى له تلك الورقة ، وهو يقول في نفسه : اذا أدركه الحراس ، وأخذوا منه الورقة ، فاني من الهالكين .

وبعد ان رمى الورقة ورأى الكلب قد التقطها وفر بها والحراس جدوا في أثره فلم يدركوه عاد الى الغرفة وعليه علائم الاطمئنان .

غير انه لم يلبث ان سمع ضجة في الرواق ثم فتح باب سجنه بعنف ودخل الحاكم فقال له : أريد ان تقول لي ماذا كتبت في تلك الورقة التي رميتها الى الكلب من النافذة .

فتنهد بارداليان تنهد سرور وقال في نفسه لقد نجوت بحمد الله

وعاد الحاكم الى التهديد فقال : لا تحاول الانكار لقد سمعك الحراس تنادي الكلب ورأوا ما رميت له .

فأجابه بارداليان قائلاً : إني مستعد للاجابة فسل ما تشاء .

- أهذا الكلب كلبك ؟

- نعم ..

- انك رميت اليه بورقة فأخذها وفر بها ، قل الحقيقة ولا تنكر .

- لا انكر شيئاً ولا اقتصر على الاعتراف بما رأيتموه بل ازيدكم ان كلبي يمرن على نقل الرسائل منذ عهد بعيد .

- إذاً فهو يعلم الى اين يتوجه بالرسالة .

- دون شك ، فقد ذهب بمثلها الى المكان نفسه ، مائة مرة على الأقل .

- لأجل هذه الخيانة طلبت ان نعطيك ورقاً للكتابة .. انت ستعذب عذاباً لا يخطر في بال إنسان الا اذا اعترفت بكل شيء .

- بماذا تريد ان اعترف ؟

- انك كتبت رسالة .

- دون ريب .

- إحترس ايها الوقح .

- انت تسألني وانا اجيب ، فأين الوقاحة ؟

- الى من كتبت ؟

- الى رجل لا اذكر اسمه الا لك وحدك .

- ايتوجه الكلب بالرسالة الى ذاك الرجل ؟

- كلا ، بل الى صديق وفي امين سيصبر الى المساء ويتوجه بالرسالة الى الذي يجب ان يقرأها وازيدك على ذاك ان صديقي يدخل الى اللوفر حين يشاء وله فيه كلمة مسموعة .

فارتعش الحاكم وقال له : وهذا الرجل ، الذي سيقرأ الرسالة ، أيقيم في اللوفر ؟

- نعم ..

- ماذا يدعى ؟

- ستعرفه قريباً .

فتمعن الحاكم هنيهة ، وقد قلق لما سمعه من حرية بارداليان في إجابته ، ثم قال له : والآن أريد ان تقول لي مضمون الرسالة ؟

- حباً وكرامة ، ولكن الأفضل ان تسمع كل ذلك وحدك .

- ولكني لا أريد بل أأمرك ان تتكلم في الحال

- ليكن ما تريد ، فاعلم اني كتبت إلى رجل كانوا يبحثون في شأنه في أحد فنادق باريس ، منذ عهد قريب ، وكان ذلك في الساعة العاشرة من المساء ، فقد كنت موجوداً في ذاك الفندق ، وهو في شارع سانت دينيس .

فقاطعه الحاكم قائلاً : اصمت !

وقد اصفر وجهه اصفراراً شديداً .

ولكن بارداليان لم يمتثل له فقال : وكان في هذا الفندق جماعة من الشعراء... وغيرهم من كبار النبلاء ...

وأدرك الحاكم خطورة الأمر ، وشر العاقبة ، فقال له بصوت مضطرب : أتضمن لي أيها السجين ان الرسالة التي كتبتها خطيرة ، فأأذن لك بالخلوة بي .

- إنها سر مملكة يا سيدي الحاكم .

- إذاً لا بد من ان أسمعك وحدي .

- ثم أشار الى الجنود ان يخرجوا .

فاعترضه أحدهم قائلاً : ألا يخشى ، سيدي الحاكم ، أن يريد به هذا الرجل شراً .

- كلا وفوق ذاك إن السر خطير كما يظهر ، ولا بد من الوقوف عليه فاذهبوا وإذا دنا أحد منكم من الباب عاقبته بالسجن

فابتعد الجنود مسرعين .

أما الحاكم فإنه أقفل الباب ، ودنا من بارداليان ، وهو يرتجف

من الخوف .

فقال له بارداليان لا أظنك تندهش كثيراً يا سيدي حين أخبرك باسم الرجل الذي بعثت اليه الرسالة .

– أخفض صوتك .

– إنه يا سيدي ملك فرنسا .

– الملك ..

– الملك نفسه ، والآن إذا أحببت ان تعلم ما كتبته إلى جلالته أعطيتك نسخة من تلك الرسالة فقد كتبت منها نسختين وهذه هي فاقرأها .

ثم أخرج من تحت قبعته تلك الورقة التي كتبها ودفعها اليه ، فقرأ الحاكم ما يأتي :

« أتشرف باخبار جلالة الملك انهم يأتمرون على قتله وان المؤتمرين على جلالته هم الدوق دي كيز وهنري دي مونمورانسي ودي تافان رئيس حرس اللوفر وحاكم الباستيل .

« وإذا أراد جلالته الوثوق فليأمر باستنطاق حاكم الباستيل لأنه كان أشدهم تحمساً في هذه المؤامرة .

« وقد كان آخر اجتماع عقده المؤتمرون في فندق دفنيير ، في شارع سانت دينيس » .

فوهت عزائم الحاكم وقال : ويلاه لقد بت من الهالكين .

وقد أوشك ان يسقط لاضطرابه .

فقال له بارداليان تشجع يا سيدي فلكل داء دواء .

– ويحك كيف أتشجع وقد قضي الأمر .

– نعم تشجع ، فقد يمكن إنقاذك . ولكن أراك تضطرب كالأطفال في حين حاجتك الى الصبر والتخلق باخلاق الرجال .

– أتزعجني أيها الشقي بهذه الهاوية ثم تهينني وتهزأ بي ؟. والله لأعذبنك

فتذوق الموت أشكالاً قبل ان أموت .

فقاطعه بارداليان قائلاً : إحترس مما تقوله أو تفعله ، ولا تتهمني لأني بريء لا أدري أية مكيدة دفعتني إلى هذا السجن الأبدي بل إلى هذا القبر ، وأنا أسعى في سبيل الخلاص من الموت فلا حرج علي ، ولكنني سأنقذك أيضاً .

– أنت تنقذني وكيف ذاك ؟ كلا ، فقد قطع الرجاء وسيعلم الملك قريباً الحقيقة الهائلة ويقبضون علي .

– وكيف عرفت ان الملك سيقف على الحقيقة في وقت قريب .

– من هذه الرسالة .

– ولكنه لا يطلع عليها إلا في المساء ، فقد عهدت إلى صديقي ان يسلمها الى جلالته في الساعة الثامنة من المساء ولا يزال لدينا اليوم بطوله .

– ماذا تريد بذلك أتريد به الهرب . والى أين المفر ؟

– لا أشير عليك بالفرار ، بل بالتفكير بطريقة تمنع وصول الرسالة الى جلالته .

– وما هي هذه الطريقة ؟ إني لا أجدها .

– أما انا فقد وجدتها ، وهي ان هذه الرسالة لا يوقف إرسالها غير رجل واحد .

– وهذا الرجل ؟

– هو انا ، فأطلق سراحي وبعد ساعة أرى صديقي ، فآخذ منه الرسالة وأمزقها .

فنظر الحاكم الى بارداليان نظرة تشف عن الرعب وقال له : من يضمن لي انك تفعل ما تقول ؟

– اقسم لك يا سيدي الحاكم بكل عزيز في الأرض ومقدس في السماء اني أفي بما وعدت به واني لست من أهل الخيانة والغدر .

وبعد ، إني لا أجد لك مطمعاً في سلامة إلا بهذه الطريقة .

أما انا فاني خارج من السجن لا محالة ، فاذا لم تطلق سراحي انت أطلقه الملك بعد وقوفه على الحقيقة . وكل ما في الأمر سأقيم في السجن يوماً أو اثنين ، وأما انت فلا حياة لك إلا باطلاق سراحي فاصنع ما انت صانع وهذا آخر ما اقول .

ثم تراجع حتى وصل إلى فراشه فجلس عليه غير مكترث للحاكم .

أما الحاكم فقد رأى انه لم يبق بينه وبين القضاء المبرم غير بضع خطوات وتمثلت له بسرعة التصور فظائع الباستيل وعذابه الذي كان يزداد كل يوم فهلع قلبه خوفاً ولعن الساعة التي دفعته فيها المطامع الى الدخول في سلك المتآمرين وود لو كان سجاناً بسيطاً او كان احد اولئك المسجونين الذين لم يقضي عليهم بالتعذيب .

ومع ذلك فانه كان لا يزال متردداً في عزمه ، لا يعلم على ماذا يستقر .

وكان باردليان يتظاهر بعدم الاكتراث ويراقبه بطرف خفي فيقول في نفسه : إما ان يحمل الخوف هذا الرجل على إطلاق سراحي او يخاف عاقبة تسريحي فلا يفعل وفي هذه الحالة أكون من الهالكين .

فاذا لم يقتنع في الحال انه لا يستطيع انقاذ نفسه إلا بانقاذي يعود الى غرفته وينتظر الحوادث .

وهنا يضطرب ويقلق اسبوعاً او اسبوعين او شهراً ، فاذا مضى هذا الزمن ورأى انهم لم يقبضوا عليه علم اني من الكاذبين او ان الكلب اضاع الرسالة ، فيعود الى الانتقام مني أفظع انتقام .

أما الحاكم فانه جعل يسير في تلك الغرفة ذهاباً وإياباً ، إلى أن وقف فجأة وبدت عليه علائم العزم ، فالتفت إلى باردليان وقال له : أأنت مسيحي ؟

ـ دون ريب .

ـ أتقسم لي بالمسيح والانجيل اني اذا أطلقت سراحك تصل الى صديقك قبل وصول الرسالة إلى الملك ؟

ـ اني اقسم بالمسيح والانجيل الطاهر انك إذا أطلقت سراحي ، لا تصل الرسالة إلى جلالة الملك ، ولكن لا بد لي من الملاحظة ان الوقت يمر سريعاً وهو ثمين كما تعلم .

فمسح الحاكم العرق المنصب من جبينه وقال : لقد صدقت .

ـ إذاً على ماذا عولت .. أسرع يا سيدي الحاكم فإني سأنجو في الحالين كما قلت لك ، لأن الملك متى وقف على الحقيقة لا بد له من إطلاق سراحي وسؤالي فتدور الدائرة عليك .

فأجابه الحاكم بصوت أجش قائلاً : ستكون ، بعد نصف ساعة ، خارج السجن .

فبذل باردليان جهداً عنيفاً كي يخفي ظواهر فرحه وقال له : كما تريد يا سيدي .

فرفع الحاكم يده الى السماء كأنه يلتمس عون الله في موقفه الحرج ثم تنهد تنهد الارتياح كأنه قد اطمأن بادخال الله في امره .

وبعدها فتح باب الغرفة ونادى الحراس والتفت الى باردليان وقال له ، على مسمع منهم :

ـ ان سرك خطير يا سيدي يستحق ان يصل الى مسامع جلالة الملك وانا واثق من ان جلالته سيتلقى إقرارك بالشكر ، وانا أفتح لك بيدي أبواب الباستيل .

فانذهل سجان باردليان ورأى باردليان دهشته فقال له مبتسماً : ألم اقل لك اني سأخرج من السجن ؟

ـ نعم ولكني كنت احسبك من المجانين .

- والآن ؟

- أظنك من السحرة .

أما الحاكم فانه امر باعداد مركبة فركبها ، وقد قال امام اولئك الجنود انه ذاهب لمقابلة الملك .

فغاب نصف ساعة وهو الوقت اللازم للذهاب الى اللوفر والعودة منه كي يوهم الجنود انه كان فيه .

ولما عاد الى السجن قال للضباط والجنود : إن هذا السجين ، قد خدم جلالة الملك أجل خدمة ، ولكن يجب عليكم كتمان كل ما رأيتموه وسمعتموه ، ومن باح منكم بحرف ، خسر منصبه . لأن السر من اسرار المملكة .

ثم ذهب الى غرفة بارداليان وقال له امام الجنود : ابشرك يا سيدي ان جلالة الملك قد عفا عنك .

فانحنى بارداليان وقال : لقد كنت واثقاً من عفو جلالته .

وبعد هنيهة كان بارداليان خارج السجن وقد شيعه الحاكم الى الباب الخارجي فصافحه مودعاً وهو ينظر اليه نظر المتوسل .

فقال له بارداليان بلهجة الممازح : اريد ان اطمنك يا سيدي الحاكم بشأن الرسالة ؟

- نعم ..

- وبشأن ذاك الصديق الذي يحملها الى الملك ؟

- نعم نعم .

- إذاً إعلم ان الورقة التي حملها الكلب كانت بيضاء لا كتابة فيها والصديق الذي سيحملها غير موجود .

فحار الحاكم في امره ولم يعلم اذا كان بارداليان يقول الحق او يمازحه ،

ولكنه كان واثقاً انه مطلع على سر المؤامرة ، فقال له انك رجل كريم الأخلاق وغاية ما التمسه منك إذا خطر لك ان ترجع عن عزمك وتبلغ الملك خبر المؤامرة لا تذكر اسمي بين المتآمرين .

- ٢٦ -

رسالة حنة والدة لويزا

ولنعد الآن الى ذلك المنزل الذي كانت تقيم فيه حنة وابنتها لويزا ، فقد تركنا الخادمة التي عهدت اليها حنة بإيصال الرسالة الى بارداليان حائرة في أمر تلك الرسالة ، خائفة أن تتهم بالمؤامرة ، وان يقبض عليها كما قبض على الآخرين .

وكان أول ما خطر لها أن تحرق تلك الرسالة فإن الرعب قد استولى عليها حتى هون عليها احراقها

ولكن الفضول دفعها الى استبقائها كي تعلم ما فيها .

وما زال حب الفضول يتنازعها حتى عولت على فتحها ، فأقفلت باب الغرفة وجميع النوافذ ، ثم فضت الغلاف فرأت في طيه رسالتين احداهما من السيدة حنة الى الشفالييه بارداليان ترجوه ان يوصل الرسالة التي في طي رسالتها الى صاحبها .

وكانت الثانية مختومة ومعنونة باسم فرنسوا مارشال دي مونمورانسي .

فوبخها ضميرها حين قرأت الرسالة المرسلة الى بارداليان وعلمت ان لا علاقة

بين حنة وبينه ، ولم تستفد شيئاً من فضولها ، لأنها لم تعلم شيئــاً من رسالة باردليان ورسالة المارشال مختومة .

غير ان الرسالة هاجت فضولها هياجاً لا يوصف وجعلت تقول : ترى أية علاقة بين هذه المرأة الفقيرة الخاملة ، وبين هذا المارشال العظيم ، أعظم رجل في فرنسا بعد الملك .

وجعلت منذ ذاك اليوم تغالب فضولها الى ان غلبها .

فأخذت تلك الرسالة فوضعتها على المائدة وفضت ختمهــا بيد ترتجف من الخوف .

وفي اللحظة نفسها قرع الباب فارتعشت حتى أوشكت ان تسقط ، وقبل أن تضبط نفسها وتخفي الرسالة فتح ذاك الباب ودخل منه الشفاليه دي باردليان .

فغطت الخادمة الرسالة بيدها وقالت له : أهذا أنت يا سيدي ؟

فقال باردليان في نفسه : يظهر انها تعرفني ..

ثم قال لها : اطمئني ، فلا أريد بك شراً ، واعــذريني لدخولي دون استئذان ، فقد دعاني الى الحضور شأن خطير .

فقالت الخادمة بلسان يتلجلج من الرعب : الملك قــادم في شأن الرسالة ؟

فذهل باردليان وقال : أية رسالة تعنين ؟

فعضت الخادمة شفتها لأنها فضحت نفسها . وحاولت اخفاء الرسالة ، لكن باردليان كان يراها .

فقالت له : أخرجت من السجن يا سيدي ؟

— انك تريني مطلق السراح ، لقد سجنت خطأ ، وبقيت في السجن الى أن ظهر الخطــأ ، فكانت زيارتي الأولى لكم ، ورجــائي ان اطمئن منك بكلمة .

فاطمأنت الخادمة لأنه لم يسألها عن الرسالة وقالت له : سل يا سيدي مـا تشاء أجبك في الحال .

— إنهم قبضوا علي منذ عشرة أيام وذهبوا بي إلى الباستيل بخطأ ظهر لهم كما ترين من إطلاق سراحي .

ففي تلك الساعة التي قبضوا علي فيها كانت امرأتان تقيمان في هذا المنزل مهددتين بخطر عظيم ، لأنهما استعانتا بي ، وقد علمت انهما اختطفتا عنوة في نفس الساعة التي قبض علي فيها .

— هو ذاك ، يا سيدي .

— أتريدين إخباري بتفصيل ما حدث ؟

— إني أخبرك بكل ما أعلمه يا سيدي ، فقد قبضوا على السيدة وابنتهــا لويزا بتهمة المؤامرة معك .

— معي أنا ؟

— ولكن لا شك انهما بريئتان ، بدليل براءتك ، ولا بد من ان يطلق سراحها كما أطلق سراحك .

— من الذي قبض عليهما ؟

— عشرة جنود بزعامة قائد .

— أهم من جنود الملك ؟

— لا أعلم .

— أكان الدوق دانجو بين هؤلاء الجنود ؟

— كلا ...

فسكت باردليان هنيهة لاعتقــاده انه لا سبيل إلى معرفة شيء من هذه المرأة .

ثم قال لها : الا تعلمين شيئاً عن المكان الذي ارسلتا اليه ؟

— كيف أستطيع أن أعلم ، لاسيما وقد كنت تلك الساعة في أشد حالات

الاضطراب ..

وكانت يدها تضغط على الرسالة وهي ترتجف ، حتى انتهى الأمر بسقوطها من يدها .

فسألها بارداليان : ما هذه الرسالة التي سقطت من يدك .

فتلعثم لسانها وقالت : ثق يا سيدي اني لست أنا التي فتحتها .

ثم التقطت الرسالة ودفعتها اليه ، فأخذها بارداليان وقرأ رسالته مسرعاً .

وقالت له الخادمة : إن السيدة حنة كلفتني بايصال هذه الرسالة اليك ، واقسم لك اني ذهبت في الحال إلى الفندق الذي تقيم فيـه فعلمت انهم قبضوا عليك فحفظتها عندي .

فقال لها بارداليان بصوت يضطرب : ألم يطلع عليها أحد ؟

– كلا .. كلا يا سيدي ، وأقسم بالعذراء على صدق ما أقول .

– إذاً من الذي فض الغلاف ؟

– انه انفض بنفسه يا سيدي لأنه لم يكن محكم الختم .

– ولكنك قرأت الرسالتين .

– كلا يا سيدي بل قرأت واحدة وهي رسالتك .

– والأخرى ؟

– تريد بها رسالة المارشال مونمورانسي ؟

– نعم .

– كنت عازمة على قراءتها ، ولكن حضورك حال بيني وبينها .

فنهض بارداليان وقال : إني آخذ معي هـذه الرسالة ، وقد عهد إلي بايصالها إلى صاحبها كما ترين ، ولا توجد قوة في الوجود ، تحول دون انفاذي هذه المهمة . .

أما أنت فقد ارتكبت خطأ لا يغتفر ، ولكني أغفره لك بشرط واحد .

– ما هو هذا الشرط يا سيدي ؟

– هو ان لا تذكري أمر هاتين الرسالتين لأحد .

– كن واثقاً يا سيدي فساكتم أمرهما كل الكتمان ، إذ لا أود أن اتهم بما اتهمتم به .

فقال بارداليان في نفسه : ان خوفهـا اعظم ضمين لسكوتها وهو خير من اليمين .

ثم تركها وانصرف ، فوجـد « بيبو » ينتظره فذهب بـه إلى الفندق ، والكلب يمشي أمامه مشية الأسود ، غير مكترث لصاحب الفندق مـا زال صاحبه يحميه .

ولما دخل بارداليان إلى قاعة الطعام كان لاندري صاحب الفندق قادماً بزجاجة خمر لاحد الزبائن .

فاجفل حين رأى بارداليان ، حتى سقطت الزجاجة من يـده ، ووقف وقفة البلهاء .

فقال له بارداليان : أسعدت صباحاً يا لاندري .

– أهذا أنت يا سيدي الشفاليه .

– نعم اطمئن فاني عارف بقدر سرورك لعودتي بعد أن يئست من لقائي ، ولكن ذلك لا يمنعك من اعداد الطعام لي ، فاني أكاد أموت جوعاً .

فلم يجب لاندري بل تنهد تنهداً يشبه الانين ، وجعل ينظر إلى بارداليان وقد جلس إلى المائدة وإلى كلبه المكشر عن انيابه

ثم دخل إلى المطبخ . وجلس على كرسي جلوس القانطين ، فرأته امرأته وعلمت ان بارداليان قد عاد ، فأدركت السبب في يأس ذلك الزوج .

ولم تكن زوجـة لاندري تكره بارداليان ، فاسرعت اليـه واستقبلته أحسن استقبال

وقالت له : ان قلقي عليك كان عظيماً ، فاني لم اذق طعم الرقاد في مدة سجنك خوفاً عليك .

فقال في نفسه : مسكينة هذه المرأة فإنها من أهل الاخلاص والولاء ، ولو لم تكن علمت بحبي للويزا لكنت في فندقها من السعداء .

وبعد ان اعدت له المائدة عادت إلى زوجها فقالت له : مسكين هذا الشفاليه ان السجن انحله .

فذعر لاندري وقال : اتشفقين عليه أيضاً وهو سيكون علة خرابي بكلبه وجواده .

– لا تحقد عليه أيها الصديق ، فقد دفع لك مقدماً .

– ماذا تعنين بذلك ؟

– ألم تأخذ جميع النقود التي تركها في غرفته ، فإذا طالبك بها فماذا تجيب ، والذي أراه انه يجدر بك ان تلاطفه وتلاينه ، فتشغله بالملاطفة عن مناقشتك الحساب .

فاقتنع لاندري ببرهان زوجته السديد ، وقام يتولى خدمة باردليان بنفسه ويبالغ في إرضائه .

وبعد ان فرغ باردليان من طعامه ذهب إلى الاصطبل ، فتفقد جواده وصعد إلى غرفته فجعل يفكر في تلك الرسالة ، رسالة حنة إلى زوجها .

ولم يكن قرأ رسالة المارشال ، ولكنه قال في نفسه : ان حنة لم تكتب إلى المارشال إلا بغية التماس حمايته .

فكبر عليه ذلك وقال : ان حماية المارشال صالحة فانه من أشد أهل النفوذ ولكني لا أريد أن يحمي لويزا سواي .

وقد جعل يتردد في أمر قراءة الرسالة حتى أقر على وجوب قراءتها .

وقد دفعه إلى ذلك عاملان ، عامل الغيرة على من يحب ، وعامل الحكمة .

فقد كان يرجو ان يجد في الرسالة دلائل تعينه على انقاذ الفتاة وأمها .

وعند ذلك فتح الرسالة وجعل يقرأها بعناية بالغة ، فلما فرغ من تلاوتها وضعها على الطاولة ، وقد اصفر وجهه وتاه في مهامه التفكير .

وكان كلما أمعن في التفكير زاد جبينه تقطباً ووجهه تجهماً .

ثم تنهد تنهداً طويلاً وعاد إلى تلاوة الرسالة ، فكان يقف عند بعض عباراتها ، ويلفظها لفظاً كأنما قراءتها بضميره لم تكن كافية لاقناعه على صحة ما يقرأ .

ولما أتم القراءة الثانية سقطت الرسالة من يده ، وجعل يبكي بكاء الأطفال .

* * *

كانت رسالة حنة دي بيانس زوجة المارشال هنري مونمورانسي مؤرخة في ٢٠ أغسطس سنة ١٥٥٨ ، أي نفس ذلك اليوم الذي تزوج فيه هنري دي مونمورانسي ديانا دي فرانس ابنة هنري الثاني .

فتكون الرسالة مكتوبة منذ أربعة عشر عاماً .

وهي مودعة في خزائنها منذ هذا العهد البعيد تنتظر فرصة مناسبة لارسالها إلى زوجها ، وهذا ما قرأه باردليان .

« لقيت اليوم من الشقاء ما لم تلقه امرأة قبلي .

« ان قلبي ينفطر واشعر ان صدري قد ضاق به ، ولكني مع ذلك لم أمت، ولا أزال لنكد طالعي في قيد الحياة .

« وقد يكون ذلك لأن ساعتي لم تأتي بعد .

« ولكني متعلقة بهذه الحياة الشقيه حرصاً على حياة ذلك الطفل ، ومن عسى يعول طفلتي إذا قضيت نحبي ؟

« إذاً يجب علي ان أعيش .

« إني حين أشعر بأن اليأس أنهك قواي ، وان قلبي سيجنح إلى السكون، وان الشقاء سيفتح لي هوة الأبد .

« إني حين أشعر بذلك أذهب إلى مهد تلك الطفلة ، فانظر اليها نظرة تزيل

ذلك اليأس ، وتبدد ذاك الشقاء وتجدد قواي المنهوكة .

« لقد بلغت الآن من العمر خمسة أعوام .. أواه يا فرنسوا كم أود أن تراها .. انها الآن نائمة في مهدها نوم الملائكة ، هادئة مطمئنة واثقة ان أمها ساهرة عليها .

« ان شعرها الجميل قد حدق بوجهها ، وتدلى على صدغيها وشفتاها تبتسمان وصدرها يخفق خفوقاً منتظماً .. إنها سعيدة يا فرنسوا ولم تقع العيون على ابدع منها . إنها من ملائكة الله وهي ابنتك أيها الزوج الحبيب

« لقد احتفلوا بزواجك اليوم يا فرنسوا ، ولا يلهج الناس إلا بهذا الزواج الفخم ، ويقولون ان مدام دياتا جديرة بهذا الزوج العظيم وأاسفاه ألم أكن أنا جديرة بك وبأسعادك .

« لقد انتهى اليوم كل شيء وانطفأ آخر شعاع رجاء من نفسي .

« ان ذلك اليوم الذي طردني فيه أبوك وسحق قلبي سحق الزجاج ذلك اليوم الذي خرجت فيه من قصره خروج آدم من الجنة .. ذلك اليوم الذي وقعت فيه على صك الطلاق بغية انقاذك ، وسرت هائمة في باريس وطفلتنا على يدي .. ان ذلك اليوم يا فرنسوا قد تجاوزت فيه حدود الشقاء الانساني .

« وكنت على استحكام يأسي ، لا أزال أرى في ذاك الجو المقتم لمعاناً يشبه ضياء الشفق ... أما اليوم فقد انطفأ هذا النور ، وأصبحت في حالك من الظلام

« قضي الأمر يا فرنسوا .. ولكن لا يزال بيني وبينك صلة ، وهي ذاك الطفل .

« ان بنتك لا تزال في قيد الحياة وهي ستعيش بإذن الله .. فإن من أجلها رضيت الجريمة ، ولم أدفع تهمات أخيك .. ومن أجلها رضيت أن أكون شهيدة مضطهدة ، فهي كما قلت لك ستعيش باذن الله .

« ان ابنتنا يا فرنسوا تدعى لويزا ، ولا بد ان تراها فترى ملائكة السماء قد هبطت إلى الأرض

« إني رضيت بسقوطي إلى مهاوي اليأس .. رضيت أن أكون زوجة مطلقة دون ان استحق هذه الاهانة .. رضيت ان اتحمل من ضروب الشقاء ما لا يتحمله بشر .. ولكني لا أرضى أن تكون ابنتنا منكودة شقية كامها ، وأن تظلم كما ظلمت بل أريد ان تكون سعيدة هنيئة ، فإنها ابنتك يا فرنسوا .

« ولذلك يجب ان تفتح لها قلبك فتحل فيه .. يجب ان تدخل إلى منزلك مرتفعة الرأس .. يجب ان تحل منك محل البنين من الاباء فإنها ابنتك يا فرنسوا .

« ولنيل هذه الامنية أيها الزوج العزيز ، يجب ان تعرف الحقيقة الهائلة بتفاصيلها .

« إني لا أزال أدعوك زوجي وسأناديك هذا النداء إلى ان ينقطع صوتي .

« انك تزوجت بي بمطلق ارادتك في كنيسة ماجيني ، فاذكر تلك الليلة التي بارك زواجنا فيها ، ذلك الشيخ المحتضر واذكر ما وعدت به أمام والدي وهو يردد النفس الأخير ، بل ما اقسمت عليه وهو انك تحبني ما حييت .

« إني لا أزال أراك أيها الزوج الحبيب كما رأيتك في تلك الليلة ، ولا عبرة عندي باوامر أبيك والحبر الأعظم ، فإن ما بناه الله لا ينقضه غير الله وأنت زوجي باحكام الله .

« إذاً ، يجب ان تعرف تلك الجريمة الهائلة التي فرقت بيننا ، بل يجب أن تعرف أن أباك كان ظالماً عاتياً ، وان أخاك كان مجرماً سفاكاً ، وان امرأتك كانت شريفة طاهرة ، وان ابنتك يحق لها ان تكون في بيت مونمورانسي .

« ولا تحسب أيها الحبيب إني اريد تكدير صفو حياتك ، فانما كتبت اليك كي تتضح الحقيقة .

« ولكني امتنعت عن ارسالها إذ كنت انظر ثلاثة أمور .

« أولها وفاة أبيك لأنه إذا علم انك وقفت على هذا السر الهائل يهيج حقده ويحل سخطه عليك .

« والثاني بلوغ ابنتي إلى سن تستطيع به الدفاع عن أمها كما تدافع فتاة من أسرة مونمورانسي وبيانس .

« والثالث حين أشعر بدنو الأجل أو حين أجد نفسي في خطر شديد لأني لا اعبأ بالحياة بل بسعادة بنتنا .

« وعندما يصل اليك كتابي هذا تكون لويزا قادرة على محادثتك ، ويكون أبوك قد مات فلا أخاف عليها شراً .

« وفي هذه الحالة أما أن أكون مريضة لا رجاء بحياتي أو نكون في خطر، وفي الحالتين فكل ما أرجوك به ان تسرع إلى اغاثة لويزا أو ان تمنحها اسم اسرتك ، وهو حقها لانها حين ولدت كنت لا أزال امرأتك فهي وريثتك لانها ابنتك الشرعية .

« والآن أيها الزوج العزيز فاسمع ذلك السر الرهيب .

« ان أخاك هنري كان يهواني .

« وجميع شقائنا ورد من هذه اللفظة .

« وما خشي بل ما خجل ان يبوح لي بهذا الغرام ، ولكني كنت أرجو أن يثوب إلى رشده ويرجع عن غروره ، بل كنت أرجو أن يستر شرف حبي لك اهانة حبه لي ، فلزمت الصمت حذراً من القاء الشقاء والنفرة في اسرتكم .

« ففي الليلة التي سافرت فيها إلى الحرب كنت أحاول أن أبوح لك بسر فحال دون ذلك تلك الحادثة التي قضت بزواجنا تلك الليلة .

« ثم ذهبت على أن تعود بعد ساعة ، فرجوت أن أخبرك بذلك السر ولكنك لم تعد وا أسفاه .

« أما هذا السر يا فرنسوا فهو إني كنت أصبحت أماً ، وكان ذاك الجنين الذي يتحرك في أحشائي بنتك لويزا ، وقد ولدت وأنت تخوض غمرات المنون دفاعاً عن الوطن .

« وقد قضيت تلك الشهور الطويلة الهائلة في غيابك وأنا أحسبك ميتاً .

« وقد غاب أخوك فكنت أحسب انه لا يعود .

« ففي ذات يوم خطفت بنتي ، وفيما أنا أبحث عنها وقد ضاع رشدي جاءني أخوك فأخبرني بعودتك وقال لي في الوقت نفسه : انه يعرف الرجل الذي اختطف بنتي .

« واسمع يا فرنسوا ماذا جرى بينما كنت قادماً إلي .

« أن لويزا كانت في قبضة رجل من اتباع أخيك ، وهو رجل سافل يدعى بارداليان استأجره أخوك لغرضه الدنيء .

« وقد كان الاتفاق بين أخيك وبين هذا الوحش الكاسر أن يقتل لويزا لأول إشارة تبدو من أخيك .

« أما أخوك فقد أخبرني بما اتفق عليه مع ذاك الرجل وقال لي : انه إذا كذبتني بشيء مما أقوله أمام أخي عنك أشرت هذه الإشارة إلى الرجل فقتل ابنتك .

« وعقب ذلك حديث هائل سمعته يا فرنسوا ، وهذا هو السبب في سكوتي عن وشايات أخوك .

« نعم إني لزمت الصمت صيانة لحياة ابنتي ، ورضيت العار غير انه لم يكن بيني وبين الجنون في هذه الساعة الرهيبة غير لحظة ، ولكن الله أعانني بالاغماء ، فلما صحوت لم أجدك .

« نعم حكم علي في ذاك الحين بالعار ، ولكن لويزا نجت من قبضة المفترس .

ان نكبتنا يا فرنسوا لم تكن إلا من أخاك ، فلتنصب عليه نقمة الله جزاء ما اقترف ، ولينتقم الله من شريكه في الجريمة ، باردليان .

« ولكن يجب أن تعرف بقية الحديث ، فاعلم أن ابنتي ردت إلي بعد ذهابك ، فاسرعت إلى حصن مونمورانسي كي أقول لك الحقيقة ، فقيل لي انك سافرت إلى باريس .

« فهرولت إلى العاصمة ورأيت أباك وأخبرته بكل أمري ، فخيرني بين أمرين ، سجنك السجن المؤبد أو افتداؤك بالطلاق .

« فاخترت فديتك وأمضيت صك الطلاق وعشت من أجل ابنتي ، ولولاها لما بقيت في قيد الحياة .

« إني كتبت هذا السر يا فرنسوا ، وستعرفه حين أشرف على الموت ، فأموت مطمئنة على ابنتنا ، فاسرع أيها الزوج العزيز اليها حين يصلك هذا فإني أريد قبل الموت أن أضع ابنتي بين ذراعي أبيها .

حنة دي بيانس

دوقة مونمورانسي

هذا هو الكتاب الذي قرأه باردليان .

وقد كانت الرسالة سقطت من يد باردليان كما قدمنا لاضطرابه ، وجعلت دموعه تتساقط على خديه وهو لا يفتكر بمسحها .

ثم التقط الرسالة ونظر أيضاً إلى التوقيع ، فأن أنين الموجع وقال في نفسه : قبح نكد الطالع فان قلبي لم يعلق إلا بمثل هذه النبيلة ، وهي ابنة أعظم عظماء البلاد ، فكيف أطمع بزواجها وأنا لا نسب لي غير هذا السيف ؟

ثم أطرق برأسه وقال السلام على هذه الأماني ، ويا ضيعة الرجاء بل يا ويح هذا القلب كيف يخفق بعد الآن بلا رجاء .

غير انه بعد التفكير وبعد ان خفت وطأة تأثير الكتاب عليه ، عاوده شيء من الرجاء فقال في نفسه .

ان لويزا قد استغاثت بي وكنت أقرأ في عينيها سور الحب ، فاذا كانت تحبني وكان هذا الحب صادقاً لا يحول بيننا تباين المقام ، بل يكون الحكم لسلطان الغرام .

ولكن أباها وهو صاحب هذه المكانة ، أيرضى أن يزوج ابنته من مثلي ، وأنا من المتشردين .

ثم هز رأسه وقد عاوده اليأس فقال : وأي برهان يثبت حبها أياي ، فإني ما كلمتها كلمة بعد .

وغاية ما في الأمر أنها كانت إذا نظرت اليها نظرت إلي غير مغضبة ، انها استغاثت بي في ساعة خطر شديد ، أيعد هذا حباً .. إني أبله لا محالة فلاطرح هذا الفكر أنه من العبث .

ثم قام وجعل يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً ، إلى ان وقف فجأة وقال : وقد أطبق يديه مغضباً ، ويح لنفسي ان بيني وبين هذه الفتاة مهامه فهي ليس فقط لا تحبني ، بل إنها لا بد أن تكرهني حين تعلم ان أبي اختطفها وهي طفلة تنفيذاً لاغراض عمها السافلة ... أبي ماذا فعلت ، وكيف حلت بيني وبين مستقبلي .

ثم عاد إلى الكتاب فقرأ فيه الفقرة الخاصة بأبيه وهو يرجوا ان يكون غلطاً فيما قرأ .

غير ان التهمة كانت جلية واضحة هائلة .

انه يحب لويزا وأبوه اختطفها حين كانت طفلة لغرض سافل دنيء ، فلا يسع هذه الفتاة إلا ان تكره وتحتقر هذا الأب والأبن .

وعند ذلك اشتد غضبه وقال : إذا كان ما جرى يقضي علينا بالفراق ، وإذا كان قضي عليها بأن تكرهني وتحتقرني فلماذا أهتم بها .. وأي شأن لي بايصال هذا الكتاب إلى صاحبه ... وماذا عسى تفيدني دوقة مونمورانسي ، وهي قد لعنت أبي وستلعنني أيضاً .. وماذا تفيدني ابنتها

وقد عرفت الحقيقة .

انهما شقيتان محتاجتان إلى المدد ، فلتستغيثا بغيري وليبادر إلى نجدتها سواي من الأغنياء الذين يحق لهم مصاهرة بيت مونمورانسي .

والآن كفى يا قلبي ضعفاً وقنوطاً .. وأين انت يا ابي فتعينني في هذا الموقف الحرج ؟

على انك إذا غبت عني فان نصائحك لا تزال عالقة في ذهني واقسم هذا قسماً صادقاً اني سأعمل بها هذه المرة .

كن رجلا يا بارداليان ، وانت يا أيها القلب الخفوق بجانبي اشتد وكن قوياً ، فما ظفر بالسعادة غير الأقوياء ، دع الضعف والاشفاق والبس درعاً من الفولاذ كي لا تصل اليك سهام المراحم ، واذهب فالتمس السعادة بالحسام فقد عز نيلها بالغرام .

وهنا جعل يسير في الغرفة حائراً مضطرباً قانطاً ، وقد نظر في حالته فاستنتج منها أن الملكة كاترين ضده ، وهي أعظم قادر في ذلك العهد .

وان الدوق دانجو وأتباعه من أعدائه وهم يبذلون الجهد للتنكيل به .

وان الدوق دي كيز سيكون أيضاً من ألد أعدائه ، فان حاكم السجن لا بد ان يخبره بكل ما جرى ، وانه واقف على سر المؤامرة .

ثم ينظر إلى حالته ويقارن بين نفسه وبين أولئك الأعداء ، وبعضهم من أصحاب التيجان ، وان في وسع كل منهم ان يسحقه سحق الزجاج ، فتهون عليه نفسه ، وتهيج عوامل كبريائه فيثور فيه ثائر يشبه الجنون ، ويجرد حسامه ، كأنما أعدائه قد تمثلوا له ، وتظهر عليه علائم الارتياح ، فيقول في نفسه : إني وحيد أقاوم ملكة ودوقين .. فإذا مت ، مت موت الأشراف .

ثم ضحك ضحكاً عصبياً وقال : لقد نسيت مونمورانسي ، وانه سيكون ألد هؤلاء الأعداء متى علم ان أبي كان السبب في نكبة إمرأته فيبحث عني

للانتقام مني إذا أبقى عليّ أولئك الأعداء .

ويح لأولئك الأعداء ، لأني لا أموت موت الجبان المنخلع القلب .

وعند ذلك اتقدت عيناه باللهب وتدفق العرق من جبينه وظهر الابتسام على شفتيه ، وجال الدمع في عينيه ، وانقض على الحائط بحسامه ، فكان منظره في ذلك الحين عجيباً وهائلاً في حين واحد .

وقد هم أن يعيد الكرة على الجدار وهو يحسب ان أعداءه تمثلوا له .

ولكن الباب فتح في ذاك الحين ودخلت منه امرأة صاحب الفندق وقالت له : رباه ماذا تصنع العلك جننت .

- كلا ايتها العزيزة ، ولكني اتمرن فقد كدت انسى فنون القتال خلال إقامتي في السجن .

- أسألك العفو لقدومي اليك ، فإني ما جئت إلا لأرد لك هذا الكيس فقد نسيت نقودك هنا حين قبضوا عليك فأعدتها اليك

فلبث بارداليان هنيهة مفكراً ثم قال لها : انك لا تقولين الحقيقة ، ايتها العزيزة .

- كيف ذلك اني ، اقسم لك ..

- لا تقسمي بشيء .. فإن زوجك سرق هذه النقود من غرفتي وانت أرجعتها ..

- انت مخطىء يا سيدي ..

- لكن ما تريدين ، وفي كل حال فاني ارجوك ان تردي هذا المال إلى زوجك فإني مدين له بأكثر منه .

- ولكن الا تبقي لك شيئاً ، فلنقتسم على الأقل .

- لقد فاتك امر يا سيدي لم تعلميه مني وهو اني لا اشعر بنفسي غنياً إلا حين يكون في جيبي فلس ، وفوق ذاك فلا يزال معي هذه الياقوتة .

وقد اشار إلى الياقوتة التي اهدته إياها ملكة النافار فزين بها قبعته .

فتنهدت امرأة صاحب الفندق واسترجعت الكيس وانصرفت .

اما بارداليان فقد قال في نفسه بعد ذهابها :

لقد قطع الأمل ولم يبق لي رجاء بحبها ، فالسلام على تلك الأماني ورحم الله احلام الغرام .

والآن فلم يبق لي إلا ان ابحث عن ابي حتى اجده ويفعل الله ما يشاء ، واما هذا الكتاب فسأرسله الى صاحبه بالطريقة التي اجدها .

ثم اعاد ختم الكتاب فوضعه في جيبه وخرج من غرفته وهو عازم على ان يتم بلويزا وامها .

* * *

وكانت الساعة الثانية بعد الظهر حين خروجه فسار وهو لا يعلم اين يسير فيزور الحانات التي تعود ان يزورها غير محاول ان يختبيء وهو هائج واليأس مستحكم منه .

وفي الساعة الخامسة عادت اليه السكينة فنظر إلى ما حواليه فوجد نفسه قرب نهر السين بازاء اللوفر ، وبجانب قصر عظيم .

وقد علم لفوره ان هذا القصر لأسرة مونمورانسي ، فذعر لما رآه ، وحاول الابتعاد عنه ، ولكنه شعر ان قوة خفية تدفعه اليه فذهب إلى ذلك القصر وطرق بابه .

- ٢٧ -

الراهب المعروف

في مساء ذلك اليوم الذي خرج فيه بارداليان من الباستيل بفضل تلك الحيلة الغريبة ، وذهب فيه بالرغم عنه إلى قصر مونمورانسي حدث حادث خطير في كنيسة سانت جرمين .

ففي الساعة التاسعة من تلك الليلة كان الراهب بانيكارولا وهو من أجمل الفتيان يعظ في تلك الكنيسة بحرية لم يكن يجسر عليها سواه .

فانه كان يحض سامعيه على قتل الهوكينوت بعبارات جلية ، ويدعوهم الى قتل ملكة النافار والبرنس دي كونديه والأميرال كوليني وكل من ينتصر للهوكينوت او يقتدي بالملك فيرأف بهم .

وكان الجميع يصغون اليه معجبين بفصاحة لسانه وجرأة جنانه ، ولا سيما النساء فانهن كن يعتقدن ان هذا الراهب قديس جاءت به الملكة كاترين من ايطاليا لانقاذ فرنسا وغفران خطاياها .

هذا ما كان يقوله نساء العوام ، وأما نساء الخواص فلم يعترفن بقداسته ، بل كن يقلن انه رجل أخطأ كثيراً فهو يغفر كثيراً كما جاء في الانجيل .

ذلك أنهن عرفنه من قبل ، حين كان يدعى المركيز دي بانيكارولا ، وحين كانت تزدان به القاعات لجمال وجهه ، وأدب لسانه ،

وحسن تأنقه .

ثم احتجب فجأة ، إلى ان رأينه يلبس الملابس السوداء ، وقد تقمص بشكل راهب ، بعد ان كان يضرب به المثل في الغواية ، وغرور الصبى .

وبعد ان فرغ من خطبته تلك الليلة ، ركع مصلياً ، فركع الحضور مقتدين به .

ثم نهضوا وجعلوا يخرجون أفواجاً من الكنيسة وهم يصيحون : ليمت الهوكينوت .. ليمت أعداء الدين !

ولم يبق غير بضع نساء كن راكعات حول كرسي الاعتراف .

غير ان أحد الشمامسة جاءهن فقال لهن : إن الراهب متعب هذه الليلة ، لا يستطيع سماع الاعتراف .

فذهلن وقد بدت عليهن علائم الاستياء ، ما خلا اثنتين منهن ، بقيتا في مكانهن راكعتين .

وبعد هنيهة أقبل الراهب والمرأتان لا تزالان راكعتين ، ومر بهما ودخل إلى كرسي الاعتراف .

وكانت إحدى المرأتين كهلة والثانية فتاة بلغت مبلغاً وافراً من الجمال، وهما اليس دي ليكس جاسوسة الملكة كاترين وعشيقة ديودات ، والكهلة لورا التي أقامت عندها اليس .

فلما مر بهما الراهب قالت لورا : هوذا الراهب يا اليس .

فرفعت اليس عينيها وارتعشت ثم التفتت الى لورا وقالت لها :إني لا أجسر أن أقول شيئاً .

– تشجعي يا ابنتي لقد أطلق جميع النساء كي يسمع اعترافك .

– أرجو ان لا تكوني ذكرت اسمي أمامه .

– كلا إذهبي ، إنه ينتظرك في كرسي الاعتراف .

فذهبت اليس إلى المكان المعد للمعترفين وجلست أمام الراهب حتى أتم صلاته فقال لها : تكلمي يا ابنتي إني مصغ اليك .

فقالت اليس في نفسها : يظهر انه لم يعرفني فلأباغته بذكر اسمي .

ثم قالت له : أيها المركيز دي بانيكارولا إني اليس دي ليكس تلك المرأة التي طالما أحببتها ، والتي ربما كانت تحبك أيضاً ، وهذه المرأة جاءتك تتوسل اليك .

فأجابها المركيز بلهجة دلت على عدم الاكتراث قائلا : إني مصغ اليك أيتها السيدة فتكلمي .

فارتعشت اليس لما رأته من عدم اهتمامه وقالت له : ألم تعرفني من صوتي يا كلمانت ؟

– لا يوجد أمامك يا سيدتي كلمانت ولا مركيز ، بل رجل من رجال الله يسمع اعترافك ويسأل الله غفران ذنوبك إذا استحقيت الغفران .. تكلمي يا سيدتي فإني مصغ اليك ؟

فأجابته اليس بلهجة القنوط قائلة : يستحيل ان تكون نسيت غرامنا ولا يزال اثر قبلاتي على شفتيك .

– أيتها السيدة ، إنك إذا استمريت على هذا الكلام ، أضطر إلى مفارقتك .

– كلا كلا . إبق لا بد لي ان أكلمك .

– إذاً تكلمي كما تكلمين رجلا من رجال الله ، لان ذاك العاشق الذي تعرفينه قد مات .

– ليكن ما تريد ، والآن فاصغ إلي أيها الأب واسمع اعترافي ، لترى إذا كنت قد لقيت من الشقاء ما يكفي لرحمة الله ورأفته بي .

– قولي يا ابنتي ما تشائين ؟

– إني أبدأ باخبارك عن ذنوبي ، ثم أخبرك عن توبتي ، كي تستطيع

الحكم ، فاسمع ..

كنت في السادسة عشرة من عمري فاستلفت جمالي أنظار ملكة عظيمة وجعلتني من نساء بلاطها .

وكنت يتيمة لا أب لي ولا أم ولا أسرة ، فضمنت لي هذه الملكة العظيمة أن تكون بمثابة أمي وأسرتي .

وكان الفتيان يتسابقون إلى رضاي في ذلك العهد ، وكلهم يتدلهون بحبي ولكني لم أكن أحب احداً منهم ، بل كنت أعشق الملابس الجميلة ، والحلى النفيسة .

وكنت على يتمي شديدة الفقر ، فلم تقتصر الملكة على وعدي بما كنت أتوق اليه من الزينة والجوهرات ، بل وعدتني ان تجعلني من أهل الثروة إذا عملت بآرائها .

فوعدتها ان أطيعها طاعة لا حد لها .

وكان ذلك أول ذنب ارتكبته ، ولكنه لم يكن في الحقيقة ذنبي ، فقد بهرت عيني بما عرضته علي من الجوهرات ، فعقدت معها اتفاقاً ، وكأني تعاقدت مع إبليس .

وأسفاه إني كنت أمضيت ذلك الاتفاق .

وذلك ان الملكة دعتني اليها ذات يوم ففتحت أمامي درجاً كانت تتوهج فيه حجارة الماس والياقوت واللؤلؤ والزمرد فقالت لي : إني أمنحك جميع هذه الجواهر إذا امتثلت لي فيما أريد .

فاغتررت بهذه الدراري ، وقلت لها : ماذا يجب ان أصنع ، يا صاحبة الجلالة ؟

فابتسمت الملكة وأخذت بيدي فسارت بي الى غرفة مجاورة لغرفة كتابتها فأزاحت ستاراً فانجلى عن الرواق الخاص بالملك .

وكان رجال البلاط وقوفاً في هذا الرواق وأنا أعرفهم بجملتهم ، فدلتني على

واحد منهم وقالت : أريد ان يحبك هذا الرجل ؟

فلم يمض شهر على ذلك حتى كنت خليلة هذا الرجل .

فقال لها الراهب : ماذا كان يدعى هذا الرجل ؟

فارتعشت اليس وقالت له : تريد ان تقول لي انه كان لي كثير من العشاق وانه يجب تعيين اسم هذا العاشق ... نعم فهو كما تقول .

أما هذا الرجل فقد كان يدعى كليمانت جاك دي بانيكارولا وكان مركيزاً وقد جاء من ايطاليا ، فهل عرفته يا أبي ؟

فأجابها الراهب بسكينة قائلاً : أتمي حديثك يا ابنتي .. إنك كنت تحبين هذا الرجل دون شك ، فاذا كان هذا كل ذنبك فأنا الضمين لك بنيل عفو الله .

— إنك تهزأ بي يا أبي ، فاهزأ كما تشاء ولكن إصغ إلي ، فإني لم أكن أحب هذا الرجل .

فارتعش الراهب ارتعاشاً خفي على اليس فمضت في حديثها فقالت :

— نعم اني لم أكن أحبه في حين إني لم أكن أرى أجمل منه بين فتيان البلاط ولا أشد بسالة وأكمل عقلاً ، فهو قد خلق ليكون محبوباً ولكني لم أكن أحبه .

— وهو أكان يحبك ؟

— بل كان يعبدني ، وقد أكون مخطئة ، ولكني أقول الذي كنت أعتقده فيه .

ومهما يكن من أمره ، فاني ولدت بعد هذا الحب بعام ، مولوداً في منزل وهبتني إياه الملكة ، فولدت سراً فيه ، أما الأب فإنه أخذ المولود .

— أرى ان قلبك قد سرت اليه عواطف الحنو ، فصرت تشبهين الأمهات وانك تحبين ان تعلمي ماذا جرى لهذا المولود ، فاذا كان ذاك مرادك أخبرتك

بما تشائين لأني أرى المولود كل يوم .

فأجفلت اليس وقالت : ألم يمت هذا المولود .. أكنت كاذباً حين أخبرتني بموته ... قل أين هو وأين أراه ... قل أو أملأ المكان صياحاً وأذيع أمرنا لجميع الناس .

– أسكتي او أفارقك فلا تريني بعد الآن .

– رحماك لا تذهب ... بربك إصفح عني وقل أين المولود ؟

– لقد أراد الله ان يبقى حياً ، ولعله أراد أن يجعله ذريعة لانتقامه العادل .

إن هذا المركيز والد الغلام قد عهد به إلى مرضعة ودعاه باسم كي لا يكون من اللقطاء .

– بماذا دعاه ؟

– دعاه باسمه ، وسماه جاك كليمانت .

– وأين هو الآن ؟

– إنه يتربى في أحد أديرة باريس ، وقد رأيت إني لا أزال أشفق عليك إذ أخبرتك الحقيقة ، فعرفت ان الجريمة لم تتم ، وان الولد لا يزال في قيد الحياة .

فسكتت اليس سكوتاً هائلاً ، ولبث الراهب هنيهة يتأملها ، ثم قال لها :

– اليس ، إنك أردت ان تكلميني فوجب عليك ان تصغي إلي لأني أنا أيضاً أريد ان أكلمك

اليس ، إنك أتيت تعكرين صفو حياتي بعد انقطاعي الى خدمة الله وحاولت إشعال تلك الجذوة التي بدأت تنطفىء في قلبي .

اليس ، إنك حسبت ان الغلام قد مات وإنك ربما تكونين قد ندمت وتبت فأتيت تسألين الغفران والصفح عن ذنب لم يرتكب .

إني يا اليس بعد ان أخذت الطفل ، ذهبت به ولم أعد إلى الأم . ألعلك بحثت عن السبب في ذلك ، بل هل عرفت السبب الذي قذفت بنفسي من أجله الى تلك الهاوية التي لا حد لعمقها والتي يدعونها الدير ؟

فقاطعته اليس قائلة : كليمانت إني بحثت عن السبب وعرفته ولذلك جئت كي أنطرح على قدميك وأتوسل اليك ان لا تنفذ انتقامك فقد لقيت من الشقاء ما يغني عن كل انتقام .

فارتعش الراهب وقال لها : تكلمي وأخبريني ماذا عرفت وابسطي لي أساس الجريمة إذا أردت ان أوازن بينها وبين الغفران .

– إذاً إسمع ، إن الملكة كانت تحسب ان حزب مونمورانسي كان يبحث عن حلفاء له في ايطاليا .

وكانت تعلم انك حين جئت إلى باريس مررت بمدن فيروم ومانتو وبارج وفينيسيا .

وقد رأوك مع فرنسوا دي مونمورانسي ، فأرادت الملكة ان تجد برهاناً على هذه المؤامرة ، ولأجل ذلك أكرهتني على ان أستغويك . وهذا هو أساس الجريمة .

– حسناً أذكري الجريمة نفسها الآن .

– انك كنت نائماً عندي نوماً عميقاً ... أواه يا كليمانت... رحماك ولا تكرهني على قول ما يخجلني .

– إن الخجل من لوازم التوبة .. تكلمي .

– إني اغتنمت فرصة رقادك ...

ثم توقفت مضطربة فقال لها :

– أرى انك لا تجسرين على تتمة الحديث ولكنني أتمه عنك . انك اغتنمت فرصة رقادي فسرقت أوراقي وفي صباح اليوم التالي كانت تلك الأوراق عند الملكة كاترين دي مدسيس

نعم عرفت في اليوم التالي بسرقة هذه الأوراق واتهمتك تهمة لم تكن ثابتة عندي ، ولكنني وثقت بعد بضعة أيام ان هذه المرأة التي كنت أعبدها لم تكن غير جاسوسة سافلة .

– رحماك اعف عني لقد تبت توبة صادقة وان ندمي لشديد .

– ولكن لحسن طالعي ان هذه الأوراق لم يكن لها أهمية ولم يقض علي بسببها بالموت .

– رحماك كفى .

– وبعد شهر من ذلك ولدت غلاماً ، أما أنا فاني كنت في خلال ذاك أعد وسائل الانتقام .

– إنه انتقام هائل .. لقد خدعتني وانا ضعيفة أثر الولادة فاستكتبتني كتاباً أمليته علي وجملتني اعترف اعترافاً جليـــاً بهذا الكتاب إني أنا قتلت ولدي .

وهز الراهب كتفيه وقـــال : كيف ذاك ؟ ألم نتفق على أن آخذ الولد لقتله ؟

ألم يكن ذاك بأمرك ورضاك أيتها الخليلة الخائنة والأم المجردة عن الرحمة فكيف تتهمينني بعد هذه الجناية .

– كلا .. كلا . إني لا أتهمك ولكني أتوسل اليك .. ان انتقامك عادل ولكنه هائل . إن هذا الكتـــاب الذي استكتبتني إياه يدفع بي إلى المشنقة .

وقد أعطيته الى الملكة كاترين اليس كذلك

– نعم أعطيتها إياه ولا أنكر

– ولكنك أتعلم ماذا كانت نتيجة هذا الكتاب . إني أصبحت بعده عبدة الملكة وآلة لتنفيذ جرائمها ، ولا يسعني مخالفة أوامرها ، وهذا الكتاب تسلمني به الى الجلاد حين تريد .

نعم إنها باتت تكرهني بسبب هذا الكتاب الذي أردت ان تنتقم مني بتسليمها إياه ان أستغوي بجمالي كل عدو لها .. وقد كانت عهدت إلي باغواء فرنسوا دي مونمورانسي فلم أتمكن منه لأن هذا الرجل يعيش عيشة الزهـــاد الناسكين او انه بدون قلب .

ولما عجزت عنه واعترفت لها بالقصور ، عهدت إلي باغواء اخيه هنري وكثير غيره .

فانت ترى اني لا أعيش إلا لتنفيذ أغراض هذه الملكة الهائلة فأبيع قلبي بيع السلع وأسرق أسرار الفتيان وأدفع بهم إلى البلاء .

.. كفاك يا كليمانت انتقاماً لأن ما أحتمله فوق طاقة البشر ولم أعد أطيق العمل بهذه المهنة الشائنة .

فابتسم الراهب وقال لها : ما يمنعك من الخلاص وقد علمت ان الجريمة لم تحدث وان الغلام في قيد الحياة ؟

– هو ذاك ، ولكنني كيف أستطيع إثبات هذه الحقيقة ؟

فابتسم الراهب ايضاً ، ابتسامـــة شفت عن غايته ، وكانت أبلغ جواب . فاضطربت اليس ، وقالت له : إن انتقامك هائل ... أنزعت الرحمة من قلبك .

– كلا ولكنك امتهنت التجسس والاغواء ، وكل ما أريد هو ان أكرهك على مواصلة هذه المهنة .

– رباه لقد ماتت المروءة وخلت القلوب من الاشفاق .

– كيـف عرفت اني تجـردت من الرحـمة ؟ . أسألتني أمـراً لم أجيبك اليه ؟

فاهتزت اليس وقد عاود قلبها شيء من الرجـاء فقالت : أيمكن ذاك أن يكون ؟

إني أقف امامك كما يقف الخاشعون امام الله .

إني أقبل موطىء قدميك . كليمانت كليمانت ... قل لي انك تنقذني من هذا الجحيم .. قل انك قد تعفو عني .

فامتنع الراهب عن الابتسام ومسح العرق عن جبينه وقال لها ببطء : قولي ماذا تريدين ان أفعل ؟

فصاحت اليس صيحة فرح قائلة : لقد نجوت . .

ثم نظرت إلى الراهب نظرة المتوسل ، وقالت له : انت تستطيع إنقاذي يا كليمانت من الخجل والعار واليأس والموت ، بكلمة تخرج من فمك .

كليمانت اني ما أتيت الا من اجل هذا ، وقد علمت انك انقطعت الى خدمة الله ، فأيقنت ان الرحمة قد حلت من قلبك محل ذاك الحقد القديم

كليمانت اني أسأت اليك كثيراً فليكن عفوك اكبر من ذنبي واصفح عن هذه الأثيمة التي تتوسل اليك .

— ماذا يجب ان اعمل لإنقاذك ؟

— انت تستطيع كل شيء ، فلا تنس يا كليمانت انك احببتني ... اني لا اعلم شيئاً الآن من علاقتك بكاترين . ولكني اعرف هذه الملكة حق العرفان ، واعرف الكثير من اسرارها واعلم انها تعجب بك الآن بقدر ما كانت ترتاب بك من قبل ، فهي لا ترفض لك ملتمساً يا كليمانت .. قل كلمة ، ترجع اليك ذاك الكتاب الهائل ، الذي استكتبتني إياه .

فقال لها الراهب برفق اهذا الذي اتيت تسألينني إياه ؟

— نعم وهو كل ما التمسه منك .

— انت لم تخطئي فيما زعمته من اتصالي بالملكة وتأثيري عليها،واني استطيع استرجاع هذا الكتاب بكلمة كما تقولين ، فيكون عندك بعد بضع ساعات

فتحرقينه وتأمنين شر تلك الملكة الجائرة .

— بارك الله بمروءتك فما أخطأ ظني فيك .

— إذاً تريدين ان استرجع هذا الكتاب ؟

— ومتى فعلت يباركك الله وتكون انقذتني من شر المهن .

— ولكني لا استرجعه الا بشرط .

— قل فاني أمتثل لكل شروطك .

— اريد ان تبرهني ان استرجاع الكتاب يفيدك .

— كيف ذاك ، الم اخبرك بكل ما اعانيه

— ليس ذاك بالبرهان الناصع فقد الفت المشاق حتى تعودت عدم المبالاة بزيادتهم ونقصانهم ، فاذكري لي السبب الصحيح الذي تريدين من أجله استرجاع الكتاب .

— اقسم لك .

— لا تقسمي بل قولي الحقيقة ، فأنت قد جئت الي للاعتراف ، وليس علي ان انتزعه منك انتزاعاً ، بل عليك ان تعترفي بكل ما يجول في ضميرك .

وعندي انك لم تأنفي العار والخجل والتجسس الا لأن شعاع الحب الأكيد الخالص قد نفذ الى قلبك . فهل اخطأت فراستي يا اليس ؟ . قولي الحبين .. ام تريدين ان اذكر لك ايضاً اسم الذي تعشقينه ، فاذا كان ذاك فاعلمي انه يدعى الكونت دي ماريلياك ، واذا شئت ، فهو يدعى ايضا ديودات .

ووضعت الفتاة يدها فوق قلبها وقالت : نعم احبه ، وهي اول مرة تسلط الحب فيها على قلبي . نعم اني احبه حب عبادة فدعني احبه يا كليمانت فقد رويت غلك من الانتقام ، واني تبت توبة صادقة عما أسأت به اليك والى سواك ...

كلما انت اذكر انك احببتني .. كلما انت انقذتني ودعني اعيش عيشة طاهرة نقية بعد ذاك العيش الذميم .

ووجم الراهب هنيهة ولبث مفكراً مطرقاً كأنما ذكر هذا الحب قد هاج في قلبه مكامنه القديمة وانه يحاول تهدئة هذا الهياج .

فقالت له اليس : الا تجيب ؟

— بل اجيب يا اليس،انت تسألينني ان اذهب إلى الملكة كاترين واسترجع منها ذاك الكتاب الذي اعطيتها إياه ..

اليس هذا الذي تريدينه ... نعم ان هذا كل مرادك ولكنه محال يا اليس فلست على صفاء مع الملكة كما تظنين ، ولم اخدعك بما قلته لك من حسن اتصالي بها الا كي ادفعك الى الحديث ، والحقيقة اني لم ارها من عهد بعيد وقد لا اراها الى الأبد ويسوءني عجزي عن قضاء هذه المهمة .

فصعقت اليس لهذا الرفض الصريح ، وقــالت له : أترفض إذاً ، انقاذي .

فضاق ذرع الراهب ولم يعد يطيق المواربة والتهكم فقال لها : اتطمعين ان اتولى بنفسي انقاذك ، وان أسـاعدك على حب ذاك الرجـل ؟ انت اذاً من المجانين .

فجمد الدم في عروق اليس ورأت انها لا تكلم ذاك الراهب الذي اعتزل الدنيا وانقطع الى الدين ، بل تخاطب ذاك المركيز الذي كان بها من الهائمين وقد خدعته شر خداع .

ثم رعبت رعباً شديداً وقالت في نفسها . كيف عرف اني احب ديودات ؟ ومن الذي باح له بهذا الغرام ؟ و كيف اتصل به هذا الاسم ؟

و كأنما الراهب قد عرف ما كان يجول في خاطرها فقال لها اصغي الي فاني موضح لك ما تجهلين .

أتحسبين يا اليس اني غفلت عنك لحظة خلال هذا الفراق . اني كنت

أراقبك من صومعتي ، واقتفي آثار خطواتـك ، وأرى إشـاراتك ، وأسمع كلماتك ، فلم يفتني شيء من أعمالك ، أي من خياناتك ، فـإن كل أعمالك خيانات وآثام .

وإذا شئت ذكرت لك أسماء عشاقك واحداً واحداً ، فلا تحسبي اني كنت غيوراً من اولئك العشاق ..

بل أنا الذي كنت أدفعك إلى الآثام فتنزلين في سلم الخيانة إلى هاوية العار درجة درجة بتسليمي إياك لتلك الملكة .

وقد كنت أريد بذلك الانتقام ، وهو ما تستحقينه فإن جرائمك تجاوزت كل حد .

اني كنت أول ضحية من ضحايا خيانتك فقضيت عليك ان تعيشي العمر منغمسة بحمأة الخيانة .

وعندما ارسلتك الملكة جاسوسة إلى بلاط النافار كنت أعرف كل مـا تعملين وكل ما تكيدين .

وقد عرفت إنك تعشقين ديودات فكان سروري بغرامك لا يوصف لأنه شديد دعائم انتقامي .

ثم ضحك ضحكاً هائلاً وقال أتأتين إلي بعد ذلك وتريدين أن أكون واسطة سعادتك في هذا الحب؟ أثير منك عاطفة الأمومة وأخبرك ببقاء ولدك حياً ، ثم لا تبالين به لانشغالك عنه بهذا الغرام ؟

إنك تطلبين عفو الله عن آثامك ، ولو عقلت لما طلبت غـير المزيد من نقمة الله ..

فإن هذا الاله ، الذي أتقرب اليه كل يوم بالصلاة والابتهال ، إذا أصغى إلى صلاتي وابتهالي ، أجاب توسلي وزادك على مـا أنت فيه من الشقـاء واليأس والعار .

وهناك وقف الراهب وخرج من غرفة الاعتراف بملء العظمة والجـلال

تاركاً اليس فيها مغمياً عليها لا تعي .

وبعد هنيهة دخلت لورا وأعانت اليس حتى استفاقت فانتبهت اليس من إغمائها مرعوبة مذعورة وقالت لها لنهرب من هذا المكان فليس فيه غير الشقاء والعقاب .

- ٢٨ -

سياسة كاترين

وقضت اليس ليلة هائلة فقد شعرت انها مقضي عليها ولكنها لم تجزع ، بل جعلت تفكر في وسيلة تنقذها من ذاك الموقف الرهيب وتقول في نفسها : سأدافع إلى اقصى حدود الدفاع .

على انها اعترفت بأنها مغلوبة ، وأن رجاءها قد حبط ، ولو رأف بها عاشقها القديم ورضي ان يرجع اليها ذاك الكتاب القاضي باعدامها من الملكة كاترين لما أقامت لحظة في اللوفر ولاعتزلت خدمة هذه الملكة الهائلة .

ولكن جميع أمانيها بنيل الحرية ذهبت أدراج الرياح ، ولم يبق بد لها من أن ترسف بالقيد ، ومن أن تذهب إلى اللوفر تلبية لأوامر الملكة .

نعم انها كانت تستطيع أن تقول للملكة أن الرسالة التي أرسلتها اليها وصلت إلى ملكة النافار قبل أن تصل اليها ولكنها كانت عارفة بطباع الملكة وما يثير سخطها .

وفي صباح اليوم التالي ضبطت نفسها وحاولت نسيان ما جرى لها بالأمس

ثم ذهبت إلى اللوفر والتمست مقابلة الملكة .

فأمرتها الملكة أن تنتظر ، وان لا تبرح اللوفر إلى ان تفرغ من مهماتها فقد كانت مختلية مع الفلكي وكانت تنتظر زيارة ابنها الملك .

وكان الفلكي في ذلك الحين يودعها وهو يحاول الانصراف فقال لها :

- إذاً لقد اتفقنا على السلم .

- هو ذاك يا رينيه ، فإن سلاح السلم أمضى من سلاح الحرب في بعض الأحيان .

- أتظنين ان ملكة النافار تعود إلى باريس ؟

- نعم انها تعود .

- وكوليني

- وكوليني ايضاً وكذلك كونديه وهنري دي بيرات ، فأعمل بما أوصيتك به .

- أن أشيع بأن ملكة النافار مريضة ؟

- هو ذاك ، واني أؤكد لك انها مريضة جداً ، ولكن ليس هذا كل ما أريده فقد نسيت الأساس .

فاصفر وجه الفلكي وقال تريدين ان أشيع أيضاً ان لملكة النافار ولداً آخر غير ولدها هنري .

- نعم ، وأن هذا الولد أكبر من ابنها هنري ، وانه يحق له الملك إذا اختفى هنري .

فأطرق رينيه برأسه متنهداً وهو يقول ولدي ، ثم قال لها : إنها نميمة يا كاترين .

- نعم إنها نميمة .

- ولكن لا يصدقها أحد .

فهزت كتفيها وقالت : لقد عرفت رجلاً يا رينيه كان من بطانة الملك

فرنسوا الأول ، وهو ذكي الفؤاد لم أجد أكمل منه عقلا .

كان هذا الرجل يا رينيه شديد المطامع يريد ان يمتلك العالم بأسره ، ولكن مطامعه لم تكن قاصرة على تملك العالم في الحياة ، بل كان يريد أن ينتقل هذا الملك بعد موته إلى تلاميذه ، أما هذا الرجل فكان يدعى لويولا .

وصمتت كاترين هنيهة مفكرة ، وربما كانت تقول في نفسها إنها هي أعظم تلامذة هذا الرجل العظيم ، ثم عادت إلى محادثة رينيه فقالت :

أن لويولا هذا رآني يوماً وحيدة منفردة لا يكترث بي أحد في هذا البلاط فمد يده إلى نصرتي ولا أعلم أكان ذلك اشفاقاً منه علي أم انه رأى نفسي أرضاً صالحة لزرع بزور تعاليمه ، فلزمني مدة وعرف كل امري فما برح بلاط فرنسوا الأول حتى وهبني سلاحاً ماضياً استخدمه للدفاع والهجوم .

– وما هذا السلاح يا كاترين ؟

– سلاح الكذب

– الكذب ؟

– نعم الكذب ، فهو سلاح الأقوياء .. سلاح اولئك الذين حذقوا بالحياة فعلموا ان اطايبها لا تلين إلا به .. سلاح اولئك الذين فحصوا ضمائرهم فحص الخبير فعرفوا أن الذمة وهم ، وشرف الصدق خرافة .. أولئك الذين خبروا الحياة الدنيا فعلموا انها انشئت من العدم .

ان هؤلاء العوام ، بل هذه القطعان التي نسوسها ونرعاها ، يجب أن تكره الكذب وتعلم انه من أفظع الآثام فانهم إذا عرفوا من قوته ما نعرف ، حاربونا به وكان لهم علينا الفوز .

أما نحن يا رينيه فيجب علينا ان نكون من الكاذبين كي نؤسس ملكنا على اساس متين .

– لا انكر يا ملكتي أن الكذب سلاح قوي ولكنه شديد الخطر على من

يستعمله ، فاحذري منه .

– لقد أجبت لويولا ، بمثل ما اجبتني به الآن يا رينيه .. أتدري ما اجابني ؟

قال لي أن هذا السلاح يكون خطراً علينا إذا لم نحسن استعماله او اضطربت ايدينا حين الطعن به .

انك إذا لقيت نمراً هائجاً وطعنته بخنجرك فاضطربت يدك حين الطعن تجرح ذلك النمر ولكنك تبقي له قوة يهجم بها عليك ويصيبك باكثر مما اصبته ، أما اذا أحكمت الطعن وابلغت الخنجر إلى القلب أجهزت عليه وأمنت انتقامه .

ثم ابتسمت الملكة وقالت ان هذا الرجل العظيم بعد ان اجابني هذا الجواب بسط لي افكاره وقال :

انك اذا كذبت كذب الجبان الوجل ينذعر الشعب او يتظاهر بالذعر واما إذا كذبت كذب الواثق المطمئن وأكدت الأكذوبة بما ينبغي من اسناد ، وجعلت الاشاعة تلو الاشاعة وثق الشعب انك تقولين الحقيقة او تظاهر بتصديق كذبك وهذا كل ما ينبغي .

ان من يخاف عدم تصديق كذبه ، يكون ضعيفاً منخلع القلب ، فليس في الوجود كذب لا يصدقه الناس ، بل يوجد كاذبون يعرفون ان يكذبوا .

ولأضرب لك مثلاً على ذلك فافترض اني أشعت هذا القول وهو ان مدام اتامب حاولت تسميم الملك فرنسوا الأول .

فافتكر قبل كل شيء بعدد اولئك البلهاء الذين يقولون حين انتشار الاشاعة (لا دخان من غير نار) وأضف اليهم اعداء تلك السيدة الذين يطوفون في كل مكان فيقولون (لا نصدق هذه الاشاعة المتناقلة ولكنهم يؤكدون ان مدام اتامب ارادت تسميم الملك فرنسوا الأول) .

وأضف اليهم أيضاً اولئك الذين يتمنون اشاعة مثل هذه الأراجيف لمجرد ميلهم إلى الأراجيف والفضائح او لمآربهم الخاصة .

فاذا تم كل ذلك تجد انه لا يمر زمن وجيز حتى تعم تلك الاشاعة الكاذبة ، وتصبح حقيقة ثابتة يسجلها التاريخ .

أما مدام اتامب فانها تقدم على واحد من امرين فهي اما ان تحتقر هذه الاشاعة ولا تدفعها او انها تحاول الدفاع .

فاذا لم تدافع عن نفسها جرت الاشاعة في مجراها فلا تزال تنتقل من فم إلى أذن حتى تعم ، ثم يقول الناس ان هذه الاشاعة لم تنقض فهي صادقة لا محالة .

واذا أرادت الدفاع وحاولت نقض الاشاعة ، أشفع الاشاعة الأولى باشاعة أخرى تعززها وأذكرها مفصلة ، فأقول مثلاً إنها قتلته بالسم ، وكان هذا السم رشاشاً أخضر اللون ، فتبرهن المتهمة انها لم يكن عندها في حياتها رشاش أخضر ، وتحصر دفاعها بالإشاعة الثانية فتثبت الأولى ، ويجعل الناس يتراهنون على أن يكون هذا الرشاش أخضر اللون ، أو أبيضه ، ولكنهم بينما يتناقشون في لون السم تكون الجريمة الأساسية وهي التسمم قد رسخت في الأذهان .

هذا ما تلقنته يا رينيه من لويولا ذاك الفيلسوف العظيم .

فقال لها رينيه : الملك اتبعت يا سيدتي هذه التعاليم .

ـ نعم وقد طالما جريت عليها فنفعتني .

فقاطعته قائلة : إن من يستخدمه ويحسن استعماله يسود العالم .. وإذا وجد زعيم حاذق وكان له تلامذة مدربون خاضعون فجرى على هذا المبدأ بلغ به وبهم من السيادة ما يشاء .

وهذا الذي يسعى لويولا ان يصل اليه ، ولا بد أن يأتي يوم تعلم فيه الأحزاب السياسية فائدة الكذب وتتخذه رائداً لها في الأعمال .

كن كاذباً يا رينيه فإن الكذب مقدس ، بدأنا به وبه نختتم ، فلنكذب يا رينيه بوثوق واطمئنان إذا أردنا ان تبقى لنا هذه السيادة .

ـ إذاً ، سأكون يا ملكتي الجميلة من الكاذبين .

ـ إن ملكة النافار ستعود إلى باريس ، كما قلت لك فيجب إشاعة مرضها أن تسبقها ، فاذكر الآن ما يجب ان تشيعه وهو : أولاً انها مريضة وثانياً ان لها ولداً اكبر من ولدها هنري . ما بالي اراك مضطرباً ، ومن انبأك اني لا أهتم لهذا الولد وأصيره ملك النافار بدلاً من هنري .

فقبل رينيه يد كاترين وقال لها وهو لا يستطيع إخفاء ظواهر سروره وإعجابه : انك عظيمة في صدقك ، عظيمة في كذبك ، عظيمة في كل ما يوحيه ضميرك .

فابتسمت وقالت له : إذهب الآن وكن من الطائعين .

فخرج الفلكي من عندها وخرجت في أثره فذهبت إلى حيث كان الملك .

* * *

ولما دخلت إلى قاعته الكبرى أسرع الملك إلى استقبالها فقبل يدها وأجلسها بجانبه .

فقالت له الملكة وقد تلبست بملامح القلق : اني قادمة اليك يا بني كما أجيئك كل يوم لأطمئن على صحتك ، فكيف أنت .. اني أرى عليك ملامح العافية والحمدلله على تعافيك . فاني لم أذق طعم الرقاد منذ أكد لي طبيبك الخاص ..

فقال لها الملك : ماذا قال لك الطبيب يا أماه ؟

ـ يقول هذا الطبيب الحاذق يا بني ، إن هذه النوبات تقضي عليك ، ولكني لا أصدق شيئاً من هذه الأقوال ، فإنك بحمد الله على أحسن حال ،

وقد أمرت بإقامة الصلوات السرية من أجلك في ثلاث كنائس .

– اني لو كنت يا أماه في حاجة إلى الاطمئنان لاطمأنيت لكلامك ، ولكني مثلك لا أثق بقول هذا الطبيب .

وفوق ذاك ، فإني أشعر من نفسي انني في خير وعافية ، وان الذين ينتظرون موتي لا بد لهم ان يصبروا .

– حقق الله ما تقول يا بني ، وبعد فهل تظن انه يوجد في فرنسا من يسره موت الملك .

إنه حين مات ابوك كان يوماً مشهوداً في باريس ، وفي فرنسا ، فإن جميع الناس كانوا يبكونه ، فلماذا تريد أن يسروا إذا قدر الله وفاتك بعد عمر طويل .

فاصفر وجه الملك من الخوف والغضب ، وربما كان اصفراره من كليهما ، ثم حدق بأمه وقال : كيف يتفق هذا يا أماه ، فإنك لم تحدثيني مرة الا وذكرت في حديثك أمر موتي .

– لأن قلوب الأمهات ضعيفة يا بني ..

– ولكن .. أقول لك ، انني في أتم عافية فلا تباحثيني بشأن صحتي بعد الان ..

أما أولئك الذين يسرهم موتي ويستبشرون اذا أصبت بأقل عارض فهم في كل مكان حتى في نفس هذا القصر .

– الملك تريد الإشارة الى الهوكينوت ، يا بني ، فإن كان هذا فإني أحب ان أحادثك في شأنهم .

وبدت علائم الجزع على الملك فهز كتفيه وقال لمن حوله : ان أمي تريد الاختلاء بي أيها السادة .

فانصرف الجميع وبقي مع أمه فقال لها : إني مصغ اليك يا اماه .

– ألا ترى يا شارل إن حالة المملكة سيئة .. ألا ترى ان هذا النزاع

الدائم بين الأحزاب يفضي إلى انقاص ذاك الارث الذي ورثته عن أبيك ، وهو وديعة عندك لخلفائك من بعدك .

– بلا ريب ، فانه يسوءني ، بل يؤلمني أن أرى رؤوس أولئك البواسل تتساقط من أجل الخلاف على أمور تافهة .

– وانا يسرني أن أرى منك هذه العزائم .

– ومتى رأيتني على غير هذا يا أماه ، ألم أكن دائماً ميالاً إلى السلم والتوفيق بين المذهبين . ألم أذعر لمنظر الدماء وأنشر الأمر تلو الأمر في منع الخصام . الست أنا الذي أراد التوقيع على معاهدة السلم في سانت جرمين ؟ فكيف تظهرين الآن سرورك لأميالي السلمية ، وأنا أول المجاهرين بها ، وطالما خالفتك فيما كنت تريدينه من الحروب والمذابح .

– إنك تجهلني أتم الجهل يا شارل .

– ولا أحب إلي من ان اعرفك حق العرفان يا أماه .

– لا يسوءني ان يعرفني اولادي فقد جهلني أبوهم قبلهم ، ولكن إعلم يا بني إني إذا كنت اردت الحرب فلم اقصد بها غير الوصول إلى السلم .

– لقد عرفت مرادك فانك تريدين إبادة الهوكينوت بغية الراحة ، ولكني رأيت نتائج الحروب ، فاننا لم نضعف الهوكينوت في جهة إلا زادوا قوة في جهة أخرى

وقد كفى ما جرى يا أماه ، واحب ان تنفذ ارادتي ، فليكف اعوانك عن التحرش بالهوكينوت وينقطع رهبانك مثل بانيكارولا وسواه عن تحريض الشعب على العدوان

ثم وقف مضطرباً حانقاً وقال سوف نرى من الحاكم في هذه البلاد فاني سأرسل جميع اولئك الأعوان الى الباستيل وكذلك رهبانك فأبدأ منهم ببانيكارولا .

فضحكت الملكة ضحكا مغتصبا وقالت لو سمعك الناس يا شارل لقالوا

انك مغضب على امك .

فوقف شارل فجأة وقد احمر وجهه فقال : اسألك المعذرة فقد احرجني هؤلاء الناس حتى لقد بت مهدداً في نفس قصري .

– انك مخطىء يا بني وعندي انه لا يجب ان نقبض على احد ولا سيا ذاك الراهب ومن دعوتهم بأعواني .

– بل اقبض عليهم ان استحسنت هذا ، بل اقبض على أعظم منهم ان راق لي بل اقبض على هنري نفسه ، فليحذروا فان للصبر حداً .

– عجبت لأمرك يا بني كيف تتكلم عن السلام وتريد ان تبدأ هذا السلم بالقبض على الناس حتى على اعضاء اسرتك .. كلا اني لا ادعك تحتاج الى القبض على احد فاني سأرشدك الى طريقة تضمن السلم العام .

– وهذه الطريقة ؟

– قد وجدتها .

– بشرط ان لا تكون فيها مذبحة او حرب جديدة ، او دفع مال .

فابتسمت كاترين وقالت له : اطمئن يا ابني ، فليس فيها شيء من ذاك .

– اذاً تكلمي فاني مصغ .

– لست يا ولدي ، كما تظنني من اولئك الأبطال الذين لا يلهجون الا بذكر الحروب ، فما انا غير ام حنونة لا يشغلها في هذا الوجود غير هناء أولادها .

وقد فكرت ملياً في طريقة الوصول الى هذه الراحة فوجدت ان الهوكينوت ، وهم سبب شقائنا لم يعودوا شيئاً مذكوراً الا انهم خفت وطأة خطرهم لولا هنري دي بيران و كوليني .

– اذاً انت تريدين ..

فقاطعته امه قائلة: تمهل يا ولدي ، فان الذي اريد قوله هو ان الهوكينوت

اذا لم يكن لهم هذان الزعيمان لا يستطيعان اثارة الحرب علينا .

– ولكنهم لا يثيرون الحرب علي يا أماه .

– هو ذاك ، ولكنهم يثيرونها ، فلنفترض الآن ان هذين الزعيمين قد خضعا .

– هذا محال فانهما لا يخضعان .

فقالت كاترين بلهجة المنتصر :

– اني وجدت طريقة تفصل طريقة خضوعهما وهي ان اجعلهما من خير اصدقاء الملك ومحالفيه .

– انك ان وجدت هذا يا اماه اعترف انك من اذكى النساء .

– اذاً فاسمع ، ماذا تقول بكوليني اذا عقدت له راية الإمارة على جيش وارسلته الى هولندا لحماية اهل مذهبه من الدوق دي الب .

– اقول انه يقابل هذه النعمة بملء الشكر ، ولكننا نكون بهذا قد اشهرنا الحرب على الاسبانيين .

– سنعقد مجلساً يا بني للنظر في هذا الشأن فاني أعرف طريقة تمكننا من اجتناب محاربة اسبانيا فتبقى صديقتنا الوفية فاذا وجدت هذه الطريقة اتوافق على ما اقترحته عليك بشأن كوليني ؟

– أوافق بملء الرضى حتى ولو اضطررنا إلى محاربة الإسبان ، فإن الحرب على الحدود خير من الحرب الداخلية .

– وإذا تم ذلك فقد قضي القضاء المبرم على حزب الهوكينوت لبعد زعيمه

– هو ذاك ، ولكن يبقى هنري دي بيران .

– إن هنري ألد أعدائك الآن ، وقد خطر لي أن أجعله من خير أصحابك بل أجعله أخاً لك .

– ليس هنري من أعدائي يا أماه ، بل نحن دفعناه إلى هذا العداء ، ولكني أحب أن أعلم كيف تجعلينه من إخواني .

– بتزويجه اختك مرغريت .

– أختي ؟

نعم أختك ، أتظنه يأبى هذا الزواج ، أم تحسب ان أمه على كبريائها لا تجد نفسها أسعد النساء بهذه المصاهرة .

– ان الفكر حسن صالح ، ولكن هل ترضاه أختي .

– ان أختك ترضى بكل ما ترضاه ، فإن ذكاءها يضمن لنا اخلاصها .

فوقف الملك وقد سر لهذا الخاطر سروراً عظيماً وقال : ان هذا الزواج يضمن لنا السلم خير ضمان ، فإن هنري دي نافار إذا انتظم في سلك عائلتي ، وإذا شغل الأميرال كوليني بهولندا ، تبدد شمل الهوكينوت لا محالة ولا يبقى لهم حزب .

– انك أنعشتني يا أماه فإني لا أطيق سفك الدماء ، فاعقدي المجلس غداً لننظر في هذه الشؤون الخطيرة .

ثم وضع يده على جبينه وقد أصفر وجهه وفاجأته النوبة العصبية لتأثير الفرح عليه ولكن أعراضها لم تطل .

فالتفت إلى أمه وقال لها : أرأيت يا أماه ما يفعل بي التأثير .. ألا نكون أسعد الناس إذا لم يكن حول عرشنا دسائس وحروب وتمتعنا بالسلم .

فوقفت كاترين وقالت له : اطمئن يا بني فسيكون مـا تريد أن يكون ، واعتمد على أمك فإنهـا ساهرة عليـك ، والآن فإني معتمدة على موافقتك ، وسأبدأ المداولة بشأن هذا الزواج .

– نعم نعم يا أماه فاذهبي في شأنك ، وأنا ذاهب إلى أختي فاقنعها بالرضى .

وعلى هذا افترق الاثنان ، بعد أن اتفقا على هـذا الزواج السياسي الذي أريد عقده لضمانة السلم ، فأفضى إلى أعظم مذبحة دموية سجلها التاريخ .

* * *

ولقد بسطنا في هذا الفصل سياسة كاترين دي مدسيس مع كاتم أسرارها ، ومع ولدها ونحن قادمون على بسط سياستها مع جواسيسها فنقول :

انهـا حين تركت ولدها وقد بلغت منه مـا أرادت ، عادت إلى غرفتها فنادت خادمة ايطالية ، وأمرتها ان تدخل اليها اليس دي ليكس .

وبعد هنيهة دخلت اليس فاستقبلتها كاترين باسمة وقالت لها : متى عدت يا ابنتي انك جئت أمس دون ريب .

– كلا يا سيدتي ، فقد عدت منذ أحد عشر يوماً .

– كيف هذا أتكونين في باريس منذ هـذا العهد البعيد ، ثم لا أراك غير اليوم .

– أسأل جلالتك العفو ، فقد كنت متعبة .

– نعم نعم ، فقـد كنت محتاجة إلى الراحة ، وربما كنت محتاجة إلى التفكير أيضاً ، فلندع البحث في هذه الأمور الآن ، فإني راضية عنك يا اليس فقد فهمت مهمتك خير فهم ، وقمت بمـا انتدبتك له خير قيام ، وخدمت مصلحتي وهي مصلحة الملك ، بل المملكة فوجبت مكافأتك .

– لقد غمرتني جلالتك باحسانها .

– إني لا أقول غير الحقيقة يا اليس ، فقد عرفت بفضلك خطـة ملكة النافار عدوتي الهائلة ، واحبطت مساعيها وبهـذه المناسبة اثني عليك لحسن اختيارك الرسل ولحسن انشائك ، فقد كانت رسائلك باتم الجلاء ..

نعم يا ابنتي انـك خدمتنا أجـل خدمة ، فاخبريني الآن يا اليس كيف خرجت ملكة النافار من باريس ، فقد علمت إنهـا جاءت اليهـا وانت كنت بمعيتها ..

حدثيني بكل ذاك يا اليس ، فقد علمت أيضاً إنه حدث خصام عند الجسر ويعز علي ان تصاب ملكة النافار بسوء فاخبريني بما اتفق

فروت لها اليس عند ذاك جميع ما اتفق مما عرفه القراء في حينه

فلما أتمت حديثها ضمت الملكة يديهـا وقالت : رباه ماذا أسمع .. القيتم مثل هـذا الخطر الشديد ..؟ إني حين أفتكر ان ملكـة النافار كادت تقتل انتفض من الرعب ، فإن هذه الملكة عدوتي والحق يقال ، ولكني لا أريد لها الموت ، بل أريد التغلب عليهـا ، فأنا معهـا في موقف المدافع عن نفسه ليس إلا ، ودليل هذا إني لا أريـد لها شراً ، بل أريد مسالمتها وسأعيدك اليهـا في مهمـة خطيرة تتعلق بهذا السلم . ولذلك يجب أن تسافري اليوم فقـد ارتحت دون ريب .

فأطرقت اليس برأسها واضطربت اضطراب العصفور الذي يرى مخالب البازي ستنشب فيه .

وكانت الملكة تراقبها من طرف خفي فقالت لها : لقـد فاتني أن أسألك عن السبب الذي حمل ملكة النافار على القدوم إلى باريس ، فما هو ؟

- إنها جاءت لبيع مجوهراتها .

- مسكينة . وبعد فهل باعتها بمقدار كبير .. لا لا . إني لا أحب أن أكون من أهل الفضول ، وفوق هـذا فقد بقي لها ما تبيعه . أمـا أنا فلم يبق لي غير القليل من الحجارة الكريمة . وهي ليست لي أيضاً ، فقد خصصتها لأمثالك من المخلصين .. هاتي هذا الصندوق الصغير الموضوع على المستوقد يا اليس .

فامتثلت اليس وأحضرت لها الصندوق .

فأخذت كاترين الصندوق وفتحته أمام اليس ، فظهر مـا فيه من جواهر تتألق فتدهش الأبصار .

غير أن اليس لم تكترث لهذه المجوهرات ، ورأت كاترين مـا كان من عدم أكتراثها فقالت في نفسها : ترى ما هذا الانقلاب ؟ فعهدي بها تفتنها الجواهر ، ثم قالت لها : ماذا ترتأين بهذه المجوهرات يا اليس ؟

- أرى إنها جميلة يا سيدتي .

- دون ريب ، فإن لآلىء هذين القرطين لا عيب فيها . ولكن ما هـذه المباحث الآن التي أنستنا ما كنا نبحث فيه ، فلقد قلت لي ان ملكة النافار باعت مجوهراتها فمن الذي اشتراها ؟

- شيخ اسرائيلي يدعى اسحاق روبين

- لقد قلت لي أيضاً ان الملكة سافرت ، فإلى أين ؟

- إلى سانت جرمين ، ثم سافرت منها إلى تيورت ، وكان في نيتها أن تذهب منها إلى روشيل ، فلا أعلم إذا كانت غيرت خطة سفرها .

- ولكن مالي أراك قلقة يا ابنتي تظهر عليك علائم التعب في حين انك استرحت عشرة أيام . ولا أنكر مـا تلاقينه من المتاعب ، ولكني محتاجة اليك ولا ثقة لي إلا بك ، والأعداء محدقون بي من كل جانب .

وسترين إني لا اكتم عنك أمراً ، فاعلمي ان الملك يريد الاتفاق السلمي مع الهوكينوت . أفهمت .. وعند هذا تصبح ملكة النافار صديقة لنا وتأتي إلى باريس .. بل إلى اللوفر . ولذلك رأيت أن أرسلك بمهمة إلى هذه الملكة وهي مهمة عظيمة تقولينها لها شفاهاً ، ثم يتلوها المخاطبات الرسمية .

فحاولت اليس ان تجيب الملكة ، ولكنها قاطعتها قائلة : اسكتي وأصغي إلي فان وقتي ثمين كما تعلمين

إنك تسافرين بعد ساعة حيث تجدين على باب منزلك مركبة تقطع بـك الأرض نهباً إلى أن تلحقي بملكة النافار .

والآن فاصغي إلي كل الاصغاء واطبعي كل ما أقوله في ذاكرتك ..

إني ساعهد اليك بمهمة مزدوجة . الأولى هي أن تعرضي على الملكة بملء اللطف والدقة ما سأخبرك عنه ، والثانية أن تنظري الحالة بعد المخابرة ، فاذا كانت صالحـة تهدين الملكة هدية . وستكون الهدية منك إذا لا يجب في البدء أن يكون لي أقل دخل في هذه الشؤون .. اطمأني يا ابنتي ان الهدية غير مكلفة فستكون زوجاً من القفاز

ولك ان تخترعي مـا تشائين وتقولي ما تريدين بشان المهمة التي ساعهد اليك بقضائها ، وأما الهدية فاحذري أن تذكري كلمة تدل على ان لي علاقة بها ، بل تقولين انك اشتريتها من باريس ورأيت ان تهديها اياها .

فقاطعتها اليس قائلة اتوسل إلى جلالتك ان لا تزعجي نفسك بالمزيد فـلا فائدة منه .

فقالت الملكة في نفسها : يظهر انها فهمت الغرض من هدية القفاز فلنضعفها بالجوهرات .

ثم أخذت صندوق الجوهرات وفتحته بسرعة ، فأخذت منه مشطاً للشعر كان مرصعاً بستة حجارة من الياقوت النفيس وقالت لها : مـاذا تقولين بهذا المشط يا اليس فإنك إذا وضعته بين شعورك يصبح كالتاج ..

وهنا غيرت الحديث فجأة فقالت لها : إنك لم تذكري لي شيئاً عن كيفية دخولك إلى بلاد النافار واتصالك بالملكة فكيف كان ذلك ؟

إني فعلت ما اتفقنا عليه فان سائق المركبة أوقعها في المكان الذي عينته فتحطمت ، وصبرت هناك إلى أن مر بي أحد رجال البلاط فسار بي إلى الملكة وانك تعرفين البقية .

وحده
فاضيه

— ماذا يدعى هذا الرجل ؟

— فارتعشت اليس وقالت : إني ما عرفت اسمه ، فقد سافر في اليوم نفسه وانت ترين يا سيدتي إني لا استطيع القيام بالمهمة التي انتدبتني اليهـا ، فكيف يصح ان أذهب إلى ملكة النافار من قبلك ، وهي تعلم كما قلت لها إني هاربة منك لأنك تضطهدينني .

— تقولين انك لا تعرفين اسمه ؟

— اسم من ؟

— اسم الرجل الذى أوصلك إلى الملكة .. ولكنك قلت لي انـه سافر في اليوم نفسه فلا نبحث به . أما خوفك من أن تسيء ملكة النافار ظنها بك

فـلا محل له ، وذلك لأنك اتيت إلى باريس وعلمت إنك متصلة بملكة النافار فأحببت أن اجعلك رسولي اليها لميلي إلى مسالمتها .

وسأزيدك ايضاحاً فلنبحث الآن في مسألة القفـاز ، فإني أوصيك بأن لا تلبسيه وان لا تفتحي الصندوق المودع فيه

— ولكن ذلك محال يا سيدتي .

فرأت الملكة من لهجتها أنهـا صادقة العزيمة فقالت لها : ماذا حدث ؟ اخبريني عن الحائل بينك وبين قضاء هذه المهمة فازيله .

— ان الحائل لا يزول ولا استطيع البحث في هذه الأمور ، فإني مـــا فكرت بها مرة حتى شعرت ان الخجل يقتلني فان ملكة النافار عرفت .

— ماذا عرفت ؟

— عرفت ماذا كنت أصنع عندها .

فاضطربت الملكة وقالت : أواثقة أنت مما تقولين ؟

— نعم .

فهاجت الملكة هياجاً عظيماً ، وجعلت تسير في الغرفة ثائرة مضطربة ، ثم وقفت وقالت لها : أخبريني بكل ما حدث

— حين كنا على الجسر رمى إلي أحدهم ورقة تتضمن أوامرك ، فلم أرها بل رأتها كاترين وأخذتها ، وكانت مرتابة بي فأزالت هـذه الورقة كل ريب ، فتركتني أعود معها إلى سانت جرمين وهناك طردتني .

وجعلت اليس تبكي وكاترين مطرقة تفكر ، ثم التفتت إلى اليس وقالت لها : سكني روعك فانك قد لقيت عنـاء شديداً ، ولكن هذا كان في سبيل ملكتك فهو يهون عليك .

ونعم ان كل الضرر عاد إلي في هذا الإهمال ، ولكني لا أؤنبك عليه وقد وجدت لك عملاً خليقاً بذكائك وجمالك فـلا نبحث بعد الآن في ملكة النافار ، ولكن ثقي لا تزال بك شديدة ، وسأبرهن لك عن هـذا وتكونين

- ولكن ألم تقولي يا سيدتي أن ملكة النافار قادمة إلى باريس .

- هذا ما أرجوه فلا تذكريه لدى أحد ، وأنت تعلمين كيف أعاقب من يخونني ، وانما أقول لك هذا من قبيل الانذار ، فان ثقتي بك شديدة وبعد ، فأي ضرر ترينه من قدوم ملكة النافار إلى هنا ؟

- إلى اللوفر يا سيدتي ؟

- نعم إلى اللوفر .

- ولكنها قد تراني فيه ، ألا ترين يا سيدتي أنها إذا لم ترني كان هـذا خيراً لي ولك على الأخص ، فإذا أذنت جلالتك تغيبت بضعة أشهر أو عاماً إلى أن يصدر أمرك لي بالرجوع .

- لقد أصبت فـلا ينبغي ان تراك ملكة النافار وفوق هذا فان المهمة التي سأعهد اليك بها لا تقتضي وجودك في اللوفر ، ولكنك لا تبرحين باريس ونتداول بالمكاتبات .

فابقي الآن في المنزل الذي تقيمين فيه ، وفي كل ليلة ترسلين إلي تقريرك .

- سأفعل يا سيدتي .

- والان فاصغي إلي فانـك خدمتني خدماً جليلـة أوجبت علي مكافأتك عنها ، فاني استخدمك منذ عشرة أعوام ، كنت فيها خير العاملات لخير الملك ومجده : نعم إنك اشتغلت كثيراً يا ابنتي فحققت لك الراحة ، وستكون هذه المهمة التي سأعهد اليك بها آخر المهمات .

فظهرت علائم الفرح على محيا الفتاة وقالت : أحق يا سيدتي ما تقولين ؟

- دون ريب فإني بعد قضاء هذه المهمة أطلق لك الحرية .

ولا اقتصر على أطلاق حريتك يا اليس ، بل أغنيك وأعين راتباً ضخماً تقبضينه من خزينة الملك .

وفوق ذلك فان لي سبعة قصور في باريس أمنحك واحداً منهـا بأثاثه

وهو كباته ، فيكون مهراً لك عند زواجك لأني أريد تزويجك يا اليس .

فجعلت اليس تقول في نفسها إنها مهمة وتنقضي ، فأصبح غنية وأعيش مع من أحب كما أشاء .

أما الملكة فانها استأنفت حديثها فقالت : والان فاعلمي المهمة التي سأعهد اليك بها وانتبهي جيداً يا اليس فان المهمة خطيرة .. اني غفرت لك فشلك مع فرنسوا مونمورانسي ، ولكني لا اغتفره لك في هـذه المهمة مع هذا الرجل . نعم إني أطلب اليك إغواء رجل ، وأريد ان يكون لك بـه ملء الثقة فيهبك قلبه وتخترقين حجاب ضميره وتنظرين إلى خفايا نفسه كما تنظرين من خلال زجاج شفاف .

ان هذا الرجل في باريس وهو من ألد أعدائي ، بل هو خطر دائم يتهددني وسأخبرك كيف وأين تجدينه فانه دائم الاختبـاء ، ولكنك ستهتدين اليه بارشادي ، فافعلي ما شئت بشرط ان تظفري به .

- ماذا يدعى يا سيدتي هذا الرجل ؟

- يدعى الكونت دي ماريلياك .

فدوى هذا الاسم في اذني اليس دوي الرعد القاصف ، فانه اسم حبيبها ديودات واصفر وجهها اصفراراً شديداً وبذلت أشد ما يمكن بذله من التجلد كي تخفي تأثرها ، فلا تصيح ولا يغمى عليها ، ولا يظهر من ملامحها ما يثير الريب في نفس الملكة .

غير ان الملكة ما خفي عليها هذا الاضطراب ، وربما كانت أدركت سر الفتاة ، فانها مشت إلى اليس فاخذت يدها وضغطت عليها ضغطاً شديداً وهي تقول : أتعرفين هذا الرجل ؟

فضعفت اليس حتى همت أن تجثو أمام الملكة وتبوح لها بامرها ، ولكنها أجهدت نفسها جهداً عنيفاً فتجلدت وقالت : لا .

فقالت لها الملكة : وأنا أقول إنك تعرفينه .

وكانت ساعة هائلة بين المرأتين ، فان كاترين كانت تنظر إلى اليس نظر النسر إلى الفريسة ، وكانت اليس تضطرب أمامها اضطراب الحمامة بين مخالب ذاك النسر وهي لا تجسر أن تنظر اليها .

فقالت لها كاترين : نعم أنت تعرفينه وتحبينه .

فتمتمت اليس قائلة إني لا أعرفه .

ثم سقطت مغمياً عليها .

فأسرعت كاترين عند ذلك إلى خزانة فاخرجت منها زجاجة ففتحتها ووضعتها على أنف اليس فاستفاقت في الحال وقالت لها كاترين : قفي .

فوقفت اليس وجلست كاترين في كرسيها ، وقد ضبطت نفسها بسرعة غريبة وتلبست بملابس الدعة واللطف فقالت :

ماذا أصابك يا ابنتي ، ابلغ منك التعب إلى هذا الحد ، أم فقدت تلك الهمة وتلك البسالة النادرة التي كنت أعهدها فيك .

اعترفي لي بكل دخائلك يا اليس فانت تعلمين إني أحبك وأغفر لك بعض زلاتك .

فوقفت اليس موقف الحائرة بين الخوف من عقاب كاترين إذا باحت لها بأمرها ، والرجاء بأن تحملها الشفقة أو السياسة على اعفائها من تلك المهمة .

وعادت كاترين إلى اغوائها فقالت لها بلهجة المشفق الحنون : اعترفي لي بكل شيء يا اليس ، فاني أرى التعب بادياً عليك ، وانما عهدت اليك بهذه المهمة وأنا أنوي نية صادقة أن تكون آخر أعمالك فتعيشين بعدها عيشة هنيئة راضية مغمورة بنعم الملكة والملك .

على إنك إذا كنت لا تستطيعين قضاءها وأردت الراحة منذ الآن فلا أخل بشيء من وعودي وأمنحك كل ما وعدتك به من قصر ومال ومهر وراتب فإني أقدر غيرتك حق قدرها ولا أريد لك إلا الخير .

وكانت اليس تتمعن في كلام الملكة ولهجتها فلا تستشف منه غير الصدق ،

فخدعت بزخارف كلامها وقالت لها بلهجة المتوسل : التمس من جلالتك أن تأذن لي .

— بماذا تريدين ان أأذن لك يا ابنتي ؟ تكلمي بجلاء .

فأجابتها بصوت يرتجف : إن تعبي فوق ما تتصورين يا سيدتي ، وقد وددت إرضاء جلالتك حين أمرتني باغواء ذاك الرجل، لاسيما وقد كنت واثقة إنها آخر أعمالي ، ولكنك حين عينت الرجل ورأيت ان المهمة قد تقررت شعرت بأن تعبي قد استفحل وكان ما رأيته من ضعفي .

— إذاً لم يكن الرجل الذي أثر بك هذا التأثير ؟

— ولكني لا أعرف هذا الرجل بل اني نسيت اسمه .

وقد قالت هذا القول باضطراب ظاهر يكفي الملكة للاستدلال به على كذبها لو كانت في حاجة إلى دليل .

ثم مضت في حديثها فقالت : كلا يا سيدتي ، ليس اسم هذا الرجل الذي اثر بي ، فقد قلت اني لا أعرفه ، ولكن التعب انهك قواي وهد حيلي بحيث بت في أشد حاجة إلى الراحة .

وقد غمرتني جلالة الملكة باحسانها ، فأنا غنية بالمال والأرض والجواهر ، وقد نلت من مكارمها فوق ما أرجوه ، ولكني بت أوثر الراحة على كل غنى وأود لو كنت فقيرة معدمة على أن أكون مطلقة القياد أسافر وأعود وأضحك وأبكي كما أريد ولا سيما البكاء .

وهنا شهقت الفتاة بالبكاء فتظاهرت كاترين بالشفقة وقالت : مسكينة هذه الفتاة فقد أنهكتها تعباً وباتت في حاجة الى الراحة .

فركعت الجاسوسة أمامها وقالت : هو ذاك ايتها الملكة العظيمة ، فلا أحتاج إلا إلى الراحة .. إشفقي علي يا سيدتي ، فقد خدمتك بملء الوفاء والاخلاص .

— انهضي ، فإنه يسوءني أن أراك راكعة أمامي ، تتكلمين بلهجة

المتوسل ، أو لهجة ... المذنب ، انت تريدين الانقطاع عن العمل ، اليس كذلك ؟

ـ إذا أذنت لي جلالة الملكة بذلك قلدتني نعمة لا أنساها مدى الحياة :

فابتسمت وقالت : إذاً لا تريدين قضاء هذه المهمة وهي آخر مهمة كما قلت لك يا اليس .

ـ يظهر ان جلالة الملكة لم تعلم حقيقة عذري .

ـ إنها آخر مهمة يا اليس .

ـ سيدتي اشفقي علي .

ـ لقد قلت لك يا اليس إنها آخر مهمة .. اصغي الي ، اني أعطيك هدية لا تقدر بثمن وهي كائنة في أسفل هذا الصندوق ، وان هذه اللآلىء التي رأيتها لا تذكر بازائها .

ـ سيدتي أتوسل اليك .

ـ دعيني أظهر لك هذه الجوهرة المكنونة التي لا تعادلها عندك جواهر الأرض .

ثم أخذت الملكة الصندوق ففتحته وأخرجت كل ما فيه وأزاحت غطاء مخملياً كان في أسفله وقالت لأليس : انظري الآن .

فنظرت اليس نظرة تدل على عدم الاكتراث ولكنها ما لبثت ان رأت ما عرضته الملكة عليها حتى تقدمت خطوتين وقد امتقع لون وجهها وبسطت يديها وقالت .. الرسالة .. رسالتي .

فأسرعت الملكة إلى أخذ تلك الرسالة وخبأتها في صدرها وقالت لها :

ـ نعم إنها الرسالة التي كتبتها بيدك .. أتعلمين ما يكون عقاب الأم إذا قتلت ولدها واعترفت بالجريمة ؟

ـ إن الكتاب زور فإن ولدي حي لم يمت .

ـ وكذلك إقرارك بالقتل فإنه موجود .. إن قاتلة ولدها يا اليس يحكم

عليها بالقتل .

ـ رحماك يا سيدتي واشفقي علي فإن الولد لا يزال في قيد الحياة .

ـ ولكن امه مذنبة معترفة إنها قاتلة فهي ستدفع إلى يد الجلاد .

ـ رحماك .. رحماك !

ـ لا سبيل إلى الرحمة وأنت مخيرة بين أمرين ، فإما تمتثلين لما أريد ، أو أقضي عليك القضاء المبرم بهذا الكتاب .

ـ سيدتي .. لا أستطيع .. اقسم بالله اني لا أستطيع الامتثال .

فقرعت الملكة مغضبة جرساً أمامها فأسرعت اليها الخادمة فقالت لها : أين المسيو تانسي رئيس الحراس ؟

ـ انه عند جلالة الملك .

ـ قولي له ان يحضر الي .

فركعت اليس وجعلت تبكي وتقول : رحماك يا سيدتي ، والملكة منشغلة عن توسلها وهي تسير في الغرفة وعلائم الغضب بادية بين عينيها .

إلى أن أقبل رئيس حراسها فوقفت الملكة وقالت له : اصغ الي يا مسيو تانسي .

وفي الوقت نفسه وقفت اليس وقالت للملكة قبل ان يخرج الحكم من شفتيها : سيدتي اني امتثل .

فأتمت كاترين حديثها مع تانسي كأنها لم تسمع ما قالته اليس وقالت : أتعرف يا مسيو تانسي السيدة اليس دي ليكس ؟

ـ نعم يا سيدتي .

ـ إذاً فاعلم انها قد تحتاج في هذه الأيام اليك وإلى رجالك فامتثل لأوامرها وسر معها إلى حيث تريد واقبض على كل رجل تسألك القبض عليه ، فاذهب الآن ولا تنس هذه الأوامر .

فانحنى رئيس الحراس دون ان يظهر عليه شيء من علائم الدهشة لكثرة

تمرنه على هذه الخدع .

فلما انصرف قالت لأليس : اعزمت عزماً اكيداً على الامتثال ؟

فأجابتها تلك المنكودة بصوت خافت : نعم يا سيدتي .

– وستحتالين على الاتصال بالكونت دي ماريلياك ؟

– نعم ...

– إذاً اعلمي الآن انك إذا خدعتني او خطرت لك خيانتي في بال لا أعاقبك بتسليم هذا الكتاب الى القاضي ، بل بتسليمه إلى سواه واضيف اليه تاريخ حياتك .

– الى من تسلمينه يا سيدتي ؟

– الى الكونت دي ماريلياك .

فصاحت اليس صيحة ذعر ، وسقطت عند قدمي الملكة مغمياً عليها لا تعي .

وحده قاضيه
منتدى البلاس

مقابلة

تقدم لنا القول في بدء الفصل السابق ان تلك الحوادث التي جرت فيه ، قد حدثت في صباح اليوم الذي خرج فيه بارداليان من سجن الباستيل .

وقد عرف القراء كيف ان بارداليان كان قد عول على أن لا يكترث

للويزا وأمها .

وان لا يوصل ذلك الكتاب الى فرنسوا مونمورانسي ، وكيف انه خرج من فندقه على هذه النية ، فوجد نفسه قرب بيت مونمورانسي وشعر ان يداً خفية تدفعه الى ذلك القصر .

وقد ذهب الى بابه وطرقه مغضباً حانقاً ، وكان غضبه على نفسه وهو لا يعلم .

وبعد هنيهة فتح له جندي من جنود المارشال وهو رجل عظيم الجسم هائل الخلقة فسأل بارداليان عما يريد .

وكان بارداليان قد اشتد غضبه لتأخرهم في فتح الباب فبدأ الحديث مع الجندي بالحدة وأفضت الحدة إلى الخصام والضرب فكان الفوز لبارداليان وجرح خصمه في أنفه جرحاً أسال دمه .

وبعد هذا الخصام عقد الصلح بينهما وعرف بارداليان ان المارشال غير مقيم في القصر وانه قد يعود اليه غداً وقد يتأخر اسبوعاً .

فاستاء لهذا الاتفاق وطلب إلى الجندي أن يخبر الأميرال حين عودته انه جاءه في أمر خطير خاص به وحده وانه سيعود اليه .

ثم تركه وانصرف الى جهة نهر السين فأقام هناك فوق صخر يتأمل في حياته ويسترسل في فلسفة الحياة شأن العشاق . الى ان استقر على هذه الحقيقة ، وهي انه كان كاذباً في كل ما ظنه من عدم مبالاته بلويزا وانه يحبها حباً اكيداً لا سبيل الى الرجعة فيه ولكنه حب من غير رجاء .

ثم جعل يقول في نفسه : نعم لا رجاء لي في حبها ، ولا صبر لي في هواها فأنا شقي في الحالين .

ولا ريب عندي اني إذا أنقذتها بحيلتي أو بحسامي نال المكافأة سواي ، فان من كانت من اسرة مونمورانسي لا تحب فقيراً خاملاً مثلي .

ومع هذا فاني لا أطيق التخلي عن انقاذها فلا بد لي من البحث عنها ، وعند ذلك اقول لها .. كلا . . لا اقول لها شيئاً .. فلأجدها اولاً ثم نرى ما يكون ؟

وقد استنتج من كل هذا ، انه فقد لويزا في الحالتين ، فهو اما ان ينقذها ولا يطمع في زواجها ، واما ان ينقذها فلا يراها ، ولكنه رأى انه لا بد له من انقاذها ، اذ لا يطيب له عيش وهي في الأسر فعول على البحث عنها دون أن يطمع بمكافأة على الاطلاق ، مكتفياً بأن تكون سعيدة وان كان هو شقياً في هواها .

ولما أقر على هذا الفكر قام من مكانه ، وكان الظلام قد هجم وسار عائداً إلى الفندق الذي يقيم فيه ، فكان يسير الهوينا ، وهو مطرق مفكر حتى وصل إلى شارع سانت دينيس فشعر ان رجلاً يركض وراءه .

ولكنه لم يتدان الى الالتفات وظل سائراً غير مكترث إلى ان شعر بصدمة عنيفة

فان هذا الرجل الراكض قد ارتطم به وصدمه صدمة شديدة سقط بعدها على الأرض بعيداً عن بارداليان .

وكان بارداليان قد سقط من الصدمة ايضاً ، فنهض وجرد حسامه وهم بقتل الذي صدمه ، ولكنه جمد في مكانه مندهشاً مأخوذاً ، لأنه سمع صوت هذا الرجل يشتم شتماً خاصاً ، وقد نهض من سقطته بعد تلك الشتائم واستمر في الركض .

أما بارداليان فقد كانت دهشته من هذا الصوت عظيمة لأنه ظن انه صوت أبيه ، لاسيما وقد كان الشتم خاصاً به .

فلم يكد يثوب من دهشته حتى جعل يركض في أثر الرجل ، ولكن بعد فوات الأوان ، فان الرجل كان قد سبقه بمراحل وتوارى عنه في شارع سانت دنيس .

وعاد بارداليان الى الفندق فسأل إذا كان قد قدم اليه أحد منذ حين وجيز ، فأجابوه سلباً ، فعلم أنه كان مخطئاً إذ لو كان الرجل أباه لتقدمه الى الفندق .

وبعد ان تعشى خرج من الفندق وذهب الى قصر الأميرال كوليني فقرع الباب ثلاث مرات متوالية كما اوصاه ديودات .

ففتح الرتاج (وهو الكوة الصغيرة في وسط الباب الكبير) ، واطل منه رجل فقال له : من أنت ؟

فذكر له بارداليان كلمة المرور التي لقنه إياها ديودات .

ففتح الباب عند ذلك وقال له حارسه : من تريد ؟

— أريد أن أرى صديقي ديودات .

— اسألك المعذرة يا سيدي فهل تتفضل علي بذكر اسمك ؟

— اني أدعى الشفالييه دي بارداليان .

فهش الرجل اليه وترحب به ثم قال له : أهلاً بك من قادم فاني شديد الشوق الى التعرف بك .

— من أنت يا سيدي ؟

— انك لا تعرفني ، ولكنك تعرفني بالاسم فيما اظن ، فاني أدعى تاليني ..

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

- ٣٠ -

الهوكينوت

كان تاليني هذا صهر الأميرال كوليني وهو في الثلاثين من عمره جميل الطلعة شديد البنية حلو الحديث ، وقد كان فوق ذلك من الأبطال المجربين .

فلما دخل بارداليان أقفل الباب الكبير ودفع المفتاح الى حارسه فقال له : اننا لا ننتظر بعد الآن غير رجل واحد لا يمكن ان تنخدع به لأنك تعرفه .

ثم صعد مع بارداليان سلماً من الحجر وأدخله الى غرفة وهو يقول : اني توليت الليلة الحراسة بنفسي لأننا عاقدون اجتماعاً وقد حضر الأميرال ودي كونديه وجلالة ملك النافار .

فلم يستغرب بارداليان ما أبدوه من الثقة به ، ولكنه كان يقول في نفسه : ترى أأحضر مؤامرة الهوكينوت بعد ان حضرت مؤامرة دي كيز .

ولما أدخله تاليني الى الغرفة عانقه وضمه الى صدره بتودد عظيم وهو يقول مرحباً بالبطل الذي انقذ ملكتنا العظيمة . انك يا سيدي الشفالييه قد صنعت خير ما يصنعه انسان لاسيما وانت على غير مذهبنا ، فبات كل منا مديناً لك بما صنعت يود ان يراك فيشكرك .

فقال له بارداليان : الحق يا سيدي اني حين انقذت ملكتكم لم اكن اعلم انها من الملكات .

وإني أسألك المعذرة ، لقد أتيت لشأن خطير عندي ، ملتمساً فيه مساعدة صديقي ديودات ، فقد تفضل بوعدي بالمساعدة حين أحتاج اليه .

- بل كلنا نبذل أنفسنا في سبيل مساعدتك ، وأما الكونت دي ماريلياك ...

- الكونت دي ماريلياك ؟

- نعم ، فهذا اسم صديقك ديودات الحقيقي ، وهو منذ عرفك لا يحلف إلا باسمك .

- أهو هنا الليلة ؟

- نعم وسأخبره بقدومك .

وعندها نادى تاليني خادماً وأصدر اليه أمراً .

فامتثل الخادم ، ولاحظ بارداليان انه كان مسلحاً مثل تاليني ، كأنما هؤلاء الهوكينوت كانوا محاصرين في قلعة ، او أنهم قادمون على حرب .

وبعد هنيهة أقبل ديودات فسر سروراً عظيماً حين رأى بارداليان وقال له: أهلا بالصديق الحبيب فانك ما أتيتني إلا وأنت في حاجة إلي فقل أيها الصديق إني مستعد لسفك دمي في سبيلك .

فتأثر بارداليان لمروءة صديقه وقال : الحق إني لا أعلم كيف أشكرك أيها الصديق .

- أتشكرني أيها الحبيب وأنا أحق بشكرك بل نحن جميعنا مدينون لك بانقاذ ملكتنا .

وعندها تركهما تاليني مختليين وانصرف .

فاستأنف ديودات الحديث فقال : بل انا المدين لك خاصة ايها الصديق فقد جئت إلى باريس قانطاً كئيباً فأقمت ساعة معك أزاحت عني الكآبة وفرجت

عن نفسي الهموم .

– يسرني ان أرى ثغرك يبسم وعينيك تضحكان على نقيض ما رأيتك اول مرة ، فهل حدث ما دعى الى هذا التفريج ؟

– بل حدث لي ما أدعوه سعادة ونعيماً ، وهو ليس من الأسرار التي أحب كتمانها عن إخواني لأن ثقتي بهم عظيمة ولكنهم لا يدركون كنهه فأحببت ان أبوح لك به دون سواك .

فابتسم باردالیان وقال: أتظن إني انا أفهمه .

– لا أظن بل أثق فاعلم إذاً اني من العاشقين .

فتنهد باردالیان ولم يجب .

وأتم ديودات حديثه فقال : بليت بالحب منذ عام ، فملكني يحملني كما سيملكك يوماً من الأيام ، ولا بد للقلوب النقية كقلبك ان تنفذ اليها أشعة الغرام .

أما أنا فقد بلغ الحب مني مبلغاً لا يبلغه من قلب إنسان ، فما تمثلت لي الحياة إلا بمن أحببت ، فاذا اضطررت إلى الرجوع عنها رجعت من غير عقل ، وإذا علمت يوماً إنها خدعتني . .

– ماذا تعمل ؟

– أموت ... ولهذا قلت لك إني تفاءلت خيراً بعشرتك وارجو ان تفتح لي صحبتك أبواب السعادة لأني حين جئت إلى باريس كنت معتقداً اني مفارقها فراقاً طويلاً وربما كان فراق الأبد .

وكنت قد تلقيت أوامر تقضي علي بالذهاب الى سانت جرمين حيث كانت ملكة النافار ، فعهدت إلي بمهمات كثيرة ، أخصها ان أذهب اليك لأشكرك بالنيابة عنها .

فلما كنت قادماً اليك لقيت من أحب في فندق قرب باريس ، وهي حكاية طويلة سأقصها عليك في غير هذا المقام ، فاعلم الآن اني اتفقت وإياها

على اللقاء مرتين في الأسبوع ، إلى أن تتيسر لي العودة إلى بيران والزواج بها . فهي الآن خطيبتي وهي وحيدة في هذا الوجود وسأبقى أخاها إلى أن أغدو زوجها .

– وأنت فاعلم ايها الصديق إني عاشق مثلك ايضاً .

– ما هذا الهناء اننا سنعقد إذاً زواجنا في يوم واحد .

– إني أحب كما تحب ايها الصديق أي ان غرامي يشبه غرامك بشدته ، ولكن الفرق بيني وبينك انك ترى خطيبتك مرتين في الأسبوع ، وأنا لم أكلمها كلمة الى الآن .

وأنت واثق من انها تحبك ، وأنا أخشى ان تكون تكرهني . وأنت تعرف اين تقيم حبيبتك ، وأما التي أحبها فقد اختطفت ولا أعرف أين هي .

وهذا الذي يشغلني الآن ، فاني أريد البحث عنها ، ولو كنت واثقاً من أنها تجازيني بالكره ، ولأجل ذلك ، أتيتك ملتمساً مساعدتك .

– إذاً اعتمد علي أيها الصديق لأننا سنبحث في كل أنحاء باريس . فهل لك أن تذكر لي ما تعرفه من حوادث هذا الاختفاء .

فروى له باردالیان جميع ما اتفق له ، من بدء تولعه بلويزا إلى يوم خروجه من السجن ، وكيف ان لويزا استغاثت به في ساعة القبض عليه ، وكيف عهدت اليه أمها بايصال الكتاب الى صاحبه ، إلى غير ذلك مما عرفه القراء ، ولم يكتم عنه غير اسم مونمورانسي على ان يذكره له حين يبدأ معه بالبحث

وقد ختم حكايته بقوله : أرى انه يجب أن نبدأ تفتيشنا بضواحي سجن التامبل ، فان الذي أشكك بأنه اختطفها ، مقيم في تلك الجهات .

– ليكن ما تريد فمتى تحب ان تبدأ .

– غداً .

– وسأكون منذ الغد طوعاً لك في كل ما تريد . والآن تعال معي لأعرفك باولئك الذين يتوقون إلى معرفتك .

– من هم ؟

– ملك النافار والبرنس دي كونديه والأميرال ... تعال أيها الصديق لأنك لا تجد بينهم غير المعجب بك ، لا سيما بعد أن أخبرهم بحادثة فرارك من الباستيل .

فامتثل بارداليان وسار مع صديقه إلى القاعة الكبرى ووجد خمسة رجال مجتمعين حول مائدة ما عرف منهم غير تاليني والأميرال كوليني .

فأخذ ديودات بارداليان بيده ودنا من المائدة فقال : يا صاحب الجلالة ويا سمو البرنس ويا سيدي الأميرال أتشرف بأن أقدم لكم الشفالييه دي بارداليان منقذ ملكة النافار .

فنظر الجميع اليه نظرة إعجاب ومد الأميرال يده إلى بارداليان وقال له : أرجوك أيها الشفالييه ان تصافح هذه اليد التي تمد اليك ، فقد كنت قوياً كشمشوم وشجاعاً كداوود .

ثم مد له الملك يده قائلاً : وأنا أيضاً ، أود أن أصافح تلك اليد التي أنقذت أمي .

فركع بارداليان أمام الملك ، حسب العادة في ذاك العهد ، وقبل يد هنرى ملك النافار ، ذلك الذي صار ملكاً لفرنسا ، باسم هنري الرابع .

ثم صافحه بعد ذلك البرنس هنري دي كونديه ، وقال له : لقد روت لنا جلالة الملكة عن بسالتك ، ما دلنا انك من أبطال ذلك العهد القديم . وقد كان الأبطال ، في ذاك العهد ، يتعانقون حين يلتقون

فلنقتد بهم .

فأجابه بارداليان : إني أقبل هذا اللقب لاتصاله إلي من لويس دي بوربون ، ابن ذاك البطل الذي مات في المعركة ، فكان فخر المعارك ، وحلية التاريخ .

فسر البرنس بهذا الثناء على أبيه وقال له : أنت ذكي الفؤاد أيها الشفالييه كما انت قوي الساعد .

ثم تقدم القائد أندلوت فقال له : إذا كانت صداقة مثلي تفيدك أيها الباسل فأنا من الأصدقاء .

فأجابه بارداليان : أنت منخدع يا سيدي بعرض الصداقة وانت تريد أن تعرض علي مثال بسالتك لأنهج مناهجك .

فقال له الملك : إني شديد الاعجاب بك ايها الشفالييه ، واذا كنت ترى قائدنا أندلوت مثالاً يتبع ، فقد اتبعنا هذا المثل ، وتلقينا دروسنا من هذا البطل .

فاحمر وجه القائد الشيخ سروراً وقال : مولاي ...

فأجابه الملك قائلاً : إني أعرف ما أقول واذا كنت لم تعين مارشالاً بعد فما ذاك ذنبي ولكن ستبلغ ما تستحقه فتعين أمير الجيوش كما يعين ابن عمي دي كونديه القائد العام والأميرال رئيس الوزارة وتاليني قائد الفرسان ودي ماريلياك رئيس رجال البلاط .

نعم . اني أريد ان يجازى كل مخلص لي بما يستحق من حسن الجزاء ولا أريد ان أرى حولي غير شفاه باسمة وعيون ضاحكة .

فصبراً ايها الأبطال ، ولا يعقب المطر غير الصحو ، ودعوني أكبر ، وسوف ترون .

فضحك الجميع كأنهم يريدون بهذا الضحك إرضاء الملك

وسر الملك لضحكهم وقال : هذا الذي أتمنى أن أراه بين الذين

يحيطون بي .

ثم التفت الى بارداليان وقال له : ماذا تقول بمملكة يضحك جميع أبناؤها هذا الضحك .

فأجابه بارداليان : إن هذه المملكة يا مولاي يكون ملكها من النوابغ .

فأثنى الملك عليه لجوابه وقال له : ان ملكاً يريد أن يجعل رعيته سعداء لا يقتضي ان يكون نابغة ويكفيه ان يريد ذلك .

ثم نظر الى بارداليان نظرة رضى ، كأنه يبحث في أن يضمه الى حاشيته .

وعندها فتح الباب ودخل خادم مدجج بالسلاح فسار إلى الأميرال كوليني وكلمه همساً .

ووقف الأميرال وقال بلهجة شفت عن سروره مخاطباً الملك :

– مولاي ان المارشال دي مونمورانسي أجاب دعوتي وهو الآن في قاعة الانتظار .

فبرقت عينا الملك ببارق من الرجاء ، ولكن هذا البارق ما لبث أن انطفأ ، وعادت اليه سكينته العادية وقال : اني سعيد برؤية هذا العزيز فرنسوا فليدخل . وأنت يا ابن عمي إبق معي لأني احب ان تحضر هذه المقابلة .

فنهض الجميع عندها بغية الخروج من القاعة .

وانتبه ديودات إلى صديقه بارداليان فقال له : بماذا تفتكر أيها الصديق ؟

فارتعش بارداليان كمن صحا من حلم مزعج لأن اسم فرنسوا مونمورانسي قد كهربه فاعتذر لصديقه ثم انحنى أمام الملك .

ومد له يده مرة ثانية وقال له : لقد أخبرني الكونت دي ماريلياك أنك تؤثر الاستقلال ولكني أرجو مع ذلك أن لا يكون هذا اللقاء آخر لقاء وأود لو كنت منا .

فأجابه بارداليان قائلا : أسأل مولاي المعذرة ، فلا أجد ميلا الى الحروب الدينية ، لأن أبي أهمل تعليمي علوم الدين ، فصرت كأني من غير دين .

على أني أسفك دمي في خدمة مولاي الخاصة ، إذا كان سفك دمي يفيد مولاي الملك .

– حسناً . سنعود الى هذه الأبحاث في فرصة أخرى .

وعندها خرج بارداليان وديودات وجميع من في القاعة ، فقال ديودات لبارداليان : ماذا أصابك أيها الصديق ، وما هذا الاصفرار الذي اعتراك ؟

– أهو المارشال دي مونمورانسي الذي جاء لمقابلة الملك ؟

– هو نفسه .

– إنه فرنسوا دي مونمورانسي أليس كذلك ؟

فذهل ديودات لتكرار سؤاله ، وقال له : انه هو بعينه ، فلماذا هذا السؤال ؟

– إذاً فاعلم أيها الصديق أن هذا المارشال هو والد الفتاة التي أحبها ، ويجب أن أعطيه رسالة إمرأته التي أخبرتك بها ، وهي معي الآن تكاد تلهب صدري . فإذا لم أعطه إياها كنت خائناً سافلا ونزعت من لويزا ما تطمع به من الحماية ، وإذا أعطيته إياها كرهني وفقدت لويزا الى الأبد .

وحده قاضيه
منتدى ليلاس

- ٣١ -

فرنسوا دي مونمورانسي

ان هذا الرجل الذي جاء لمقابلة ملك النافـــار ، كان يظهر أنه في الأربعين من عمره ، وهـو فرنسوا دي مونمورانسي ، زوج حنة ، ووالد لويزا .

وكان يستغرب الناظر اليه أن يرى فيه مخائل الشباب من نضارة وجهه وخفة حركاته ، ثم يرى دلائل الهرم في شعر رأسه ، وهو يتوهج شيبـاً كشعر الشيوخ .

غير أن الحزن كان بادياً عليه ، يدل على احتقاره الحياة ، أو يأسه من هنائها ، فقد تمثل له أن الحياة قد توقفت في ذلك اليوم الهائـل الذي رجع فيه من الأسر ، وهو يحسب نفسه أسعد الناس بلقاء زوجتـه ، فأصيب بتلك النكبة الهائلة ، التي جعلت حياته الى هذا اليوم ، حملا ثقيلا عليه .

وقد كان مثله مثل ذاك المسافر يعود بعد سفر طويل فيجد بيته قد احترق وشمل عائلته قد تبدد

وكان فرنسوا مونمورانسي من أهل الوفاء والاخلاص ولكنه لا يهب قلبه غير مرة واحدة في العمر .

وقد كان وهب هذا القلب لامرأته حنة ولا يزال قلبه لها ولكن الهبة كانت

بصيغة أخرى فانه كان دائم الذكرى لها لا يفتر لحظة عن التفكير بها ولكنه لا يذكرها ولا يفكر بها إلا ليلعنها .

وقد خطر له مراراً أن يبحث عنها ويراهـــا ، ولكنه كان يغالب هذه الرغبـة حتى يغلبها ، فاذا خشي أن تغلبه شغل نفسه بالحرب او بالحملات السياسية بغية النسيان ، ولكنه لم ينس ، فان خيـال حنة كان ممثلا له في كل سبيل .

ولم يخطر أخوه هنري في باله إلا نادراً ، وليس لأنه غفر له زلتـه بل لأنه حاول أن ينساه فنسيه خلافاً لحنة ، أنه لم يستطيع نسيانها .

فهو لم يطمع بشيء من ملاذ الحياة وانما تزوج ديانا دي‌فرانس اجابة لرغائب ابيه وفراراً من ظلمه فقد كان من العتاة .

وفوق ذلك فقد كان يرجو أن يميل إلى زوجته الجديـــدة وان يتصل من الميل إلى الحب فيخلص من عناء ذلك الحب القديم ولكنه وجد أن هذا الحب لا ينقذه منه غير الموت فلم تكن ديانا زوجته إلا بالأسم .

وقد خطر له يوماً ان يعرف تفاصيل تلك الجريمة التي كدرت صفو حياته فبرح باريس إلى حصن ابيـــه وهو يقول في نفسه اني لا أعرف من تفاصيل الجريمة سوى ان أخي اتهم امرأتي وان امرأتي لم تدفع التهمـة فلا بد لي من التدقيق للوقوف على كل هذه التفاصيل .

وسار مع حراسه حتى وصل إلى قمـة أطل منها على حصن مونمورانسي ، فوجف قلبه واضطربت اعضاؤه وخشي أن يرى الحراس اضطرابه فامرهم أن يعودوا إلى باريس كي يبقى وحده في ذلك المكان .

وقد هاجت تلك المناظر تذكاراته القديمة فكان يرى حنة ممثلة في كل ما يقع نظره عليه في تلك الربوع التي أحب فيها الحب الأول .

ثم رأى البستان الكبير وهو بستان والد حنة الذي عقد فيه ذلك الغرام تحت أشجاره الغضة فلم يطق اجتيازه للبلوغ إلى الحصن ووقف مطرقاً حزيناً

والدمع يسيل من عينيه ، ثم أقفل عائداً الى باريس .

وكان ذلك آخر عهده بتلك الربوع فلم تعد تخطر زيارتها في باله .

انما كان يحاول زيارة الحصن والتحقيق في الجريمة لأن قلبه كان يحدثه ببراءة زوجته ولولا سكوتها الصريح حين كان يتهمها أخوه بالخيانة امامها لما صدق شيئاً ولكن سكوتها كان اعترافاً بيناً . وكيف يمكن أن تخطر له حيلة أخيه وهو لا يعلم أن امرأته ولدت بنتاً في غيابه .

وكأنما الأقدار كانت تساعده على تأييد براءة حنة فانه في سنة ١٥٦٧ حدثت معركة بين الهوكينوت والكاثوليك في سانت دانيس ، كان النصر فيها للهوكينوت .

وكان امير الجيوش والد فرنسوا يحارب في طليعة فرسانه فاصيب بجرح قاتل في ذلك اليوم .

وبعد المعركة حملوا الجريح إلى قصر مسيم وهو قصر ولده هنري .

وكان هنري غائباً عن باريس في ذاك اليوم ، فلما اتصل الخبر بفرنسوا اسرع ليرى اباه ولم يكن رآه منذ ثلاثة اعوام .

وانما ذهب بعد ما وثق ان اخاه مسافر ، فوجد اباه مشرفاً على الموت والكاهن يصلي والخدم راكعون يبكون .

فلما رأى الشيخ ولده البكر ظهرت عليه علائم السرور فامر الخدم بالخروج وفرغ الكاهن من صلاته وانصرف وبقي فرنسوا امام ابيه ونفسه يحشرج في صدره فلا يخرج كلامه إلا متقطعاً .

فنظر الشيخ نظرة حنو إلى ولده وقال له أن المرء متى اشرف على الموت يرى الأمور على غير ما كان يراها في حال العافية ، فاجبني الآن بجلاء ، هل أنت سعيد ؟

قال اطمئن يا ابي فاني سعيد بقدر ما أذن لي أن أسعد في هذه الحياة .

ــ وأخوك ألا تسأله .

فارتعش فرنسوا وأجاب بصوت أجش : كلا !

ــ ربما كان ذنبه يا بني أخف مما تظن .

فهز فرنسوا رأسه دون أن يجيب .

فقال له أبوه : والمرأة الصبية ماذا جرى لها ؟

ــ من تعني بها يا أبي .

ــ إبنة .. السيد دي بيانس .. اواه يا فرنسوا إني أموت ..

ــ إطمئن يا أبي علي ، لقد نسيت الماضي ..

ــ فرنسوا ... أقول لك ... إسمع ... يجب أن ترى هذه المرأة و ..

وهنا تلجلج لسان الشيخ ، فلم يستطع إتمام جملته وبدأ دور النزاع فجعل يتمتم بكلمات غير مفهومة وأسلم الروح .

وعلى هذا فقد بقي سر حنة مدفوناً بصدر الشيخ ، ولم يعلم فرنسوا السبب في إلحاحه كي يرى حنة .

* * *

بعد إنتهاء تلك المعركة وبعد دفن أمير الجيوش عرضت الملكة كاترين على فرنسوا قيادة حملة على الهوكينوت فأبى وقال : انه لا يعتبر الهوكينوت أعداء يجب قتالهم .

فارتابت كاترين في أمره وعهدت إلى اليس دي ليكس إغواءه واصطياده بحبائل غرامها بغية الوقوف على أسراره .

وقد عرف القراء كيف ان اليس حبطت باستغواء هذا القلب ، وفوق ذلك فإن فرنسوا لم يكن يكتم أسراراً ، وإنما أراد اعتزال مقاتلة الهوكينوت فإنه لم يكن يندفع فيها إلا بأوامر أبيه .

وقد كان تألف حزب من الذين أنفوا إراقة الدماء باسم الدين وجنحوا إلى السلاح ، فدعي حزب السياسة ، فعين فرنسوا رئيساً له ولم يقبل هذه

الرئاسة إلا لخدمة السلم المجردة .

ولأجل هذا ، زاره يوماً الكونت دي ماريلياك ، أي ديودات ، بدعوة من ملكة النافار ، تسأله فيها مقابلة ولدها هنري فوعده فرنسوا بتلبية الدعوة .

وكان ملك النافار قد جاء سراً إلى باريس مع البرنس دي كونديه ، وكوليني وعين يوماً لمقابلة فرنسوا .

وفي الساعة المعينة جاء فرنسوا كما رأيناه ، وقد عرف القراء ما كان من تأثير ذكر اسمه أمام باردليان .

ولندع الآن باردليان مع ديودات يباحثه بشأن فرنسوا ، ونتبع فرنسوا إلى قاعة ملك النافار .

ولما دخل استقبله الملك باسماً وقال له : السلام على المدافع الشهير عن تيرنوان .

فأثرت هذه الجملة تأثيراً عظيماً في فرنسوا ، ولا ندري أكان ذلك لأنه كان يفتخر حقيقة بحسن صبره في هذا الحصار ، أم لأنه كان يحسب نفسه في ذلك العهد أسعد إنسان بغرامه .

فانحنى أمام الملك الفتى وقال له : مولاي إنك دعوتني للمباحثة في حالة الأحزاب الدينية العمومية ،وأنا أنتظر أن توضحوا لي نياتكم فأجيب جلالتكم بملء الحرية والجلاء .

وكان الملك كثير الحيلة والدهاء فلم يجد سبيلا إلى الحيلة بعدما سمع من جواب المارشال الجلي فقد كان يتوقع منه الابهام والالتباس .

ودعاه إلى الجلوس وصمت هنيهة ثم قال له : إني لا أذكر لك شيئاً من ثقتي بك واحترامي إياك فإن وجودك هنا خير دليل على هذه الثقة لا سيما وانه لا يوجد في باريس من يعلم بقدومي اليها سواك .

ـ إنك تشرفني يا مولاي بهذه الثقة ، ولكني أتجاسر بالقول لجلالتكم انه

لا يوجد رجل شريف يخونكم بفضيحة هذا السر .

فابتسم هنري إبتسام المشكك وقال : اني لا أرى رأيك في هذا ، أيها المارشال ..

بل أقول لك ، انت الوحيد الذي وثقت به ودعوته الي وأنا واثق بأن أنام الليلة مطمئناً .

فانحنى المارشال دون أن يجيب .

ومضى هنري في حديثه فقال : ولي برهان آخر على حسن ثقتي بك وهو اني سأخبرك بحقيقة مأربي من القدوم إلى باريس .

فنظر الأميرال والبرنس دي كونديه نظرة انذهال إلى الملك . ولكنه تظاهر انه لم ير شيئاً ، فأتم حديثه وقال :

ـ إعلم يا حضرة المارشال اني قدمت إلى باريس بغية اختطاف شارل التاسع ملك فرنسا ، فماذا تقول بهذا الرأي ؟

فاصفر وجه الأميرال وقطب البرنس حاجبيه ولم يظهر فرنسوا شيئاً من علائم الانذهال ، بل أجاب بملء السكينة قائلاً .

ـ أتريد جلالتكم يا مولاي أن تسألني عن إمكان حدوث الاختطاف أم عن نتائجه في حالتي الفوز والفشل ؟

ـ سنتكلم عن هذا .. وأما الآن ، فأحب أن أعرف رأيك بشأن هذا المشروع نفسه ، الذي لم يعد بد منه ، فهل انت معنا أم علينا ، أم تلزم الحياد ؟

ـ إن كل هذا يتعلق بما عساك ان تصنعه بملك فرنسا ، فإني لا أمدحه ولا أذمه ، ولكنه ملكي ويجب علي ان أساعده في كل حال ، وأي شريف لا يمين ملكه في ساعة الخطر .. فإذا كنتم تريدون نزع العرش من الأسرة المالكة والاستئثار به أكون عليكم ، وإذا أردتم باختطاف الملك ان تجعلوه رهينة لتنالوا حرية مذهبكم الزم الحياد ، وفي الحالتين لا أساعدكم على هذا

– يسرني أيها المارشال ان أسمع هذا التصريح بهذا الجلاء ، وأنا مجيبك بمثله فاسمع ..

إننا نريد اختطاف الملك شارل لأننا واثقون من أن أمه الملكة تتأهب لحروب جديدة ، ولا قبل لنا بهذه الحروب ، فقد نفذ ما لدينا من المـال ، وقل من عندنا من الرجال فلا نلقي بعد هذه الحروب الجائرة غير الخسران والوبال ..

والذي أسعى اليه لا يلومني فيه عارف بنظام الحروب ، فلو زحف شارل الي بطليعة جيشه الا يحق لي أخذه أسيراً ؟

– هذا لا ريب فيه ، ولو كنت من اتباع جلالتكم بدلاً من أن أكون من أتباع ملك فرنسا ، لكنت من أشد المتشيعين لهذا المشروع .

– لقد بقي إذاً أن تعلم ماذا نصنع بملك فرنسا بعد القبض عليه .

– هو ذاك يا سيدي .

– إعلم ايها المارشال اني إبن انطوان دي بوربون ، حفيد روبرت سادس أبناء لويس التاسع الملقب بالقديس لويس ، فأنا أول أمير من السلالة الملكية الفرنسية ، ولذلك فقد حق لي أن أتداخل في شؤون هـذه المملكة ، وإذا خطر لي يوماً ، أن تاج تلك المملكة قد يوضع على رأسي ، فلا أكون من الطامعين ..

إن أسرة فالوا تملك الآن بفضل الله ، وأنا أنتظر فضل الله لأعلم اذا كان يحق لأسرة بوربون أن تملك بدورها وتتولى هـذا العرش ، وهو من أعظم العروش .

– مولاي اني لا أبحث في عدالة ما تقولونه بل أعيد ما قلته وهو أن شارل التاسع ملكي ولا أكون ضده .

– لقد قلت لك جلياً اني انتظر فضل الله ، ولا أسعى إلى مزاحمة ابن

عمي في عرشه فليملك هذا القريب العزيز بقدر ما يستطيع أن يملك من تكون أمه كاترين دي مدسيس .

ولكني إذا كنت لا أريد بشارل شراً فلماذا يريد الأذية لي ... ومـا هذا الاضطهاد الذي يضطهدون به الهوكينوت ، بعد أن عقـدنا الصلح في سانت جرمين .

وإذا كنت غير قادر على مقاومتهم بالقوة أينكر علي أن أقاومهم بالحيلة؟

اني أريد أن أتحدث مع ابن عمي شارل بملء السكينة ، كما أتحدث معك الآن ، ألا ترى بعد هذا أننا مصيبون بعزمنا على اختطاف الملك ..

ومما لا ريب فيه إننا لا نسيء اليه أقل إساءة بل إننا ندع له الخيـار في قبول شروطنا أو رفضها .

وعلى الجملة فإني أريد أن أحادثه في خلوة دون أن يكون لأهل بلاطـه تأثير عليه ، فإذا كان هذا كل قصدي أأستطيع الاعتماد عليك ؟

– بماذا ؟ أبالقبض على الملك ؟ اني أكلمك يا مولاي بجلاء كما كلمتني ، فاني وحدي وأنتم كثيرون ، ومع هذا فاني أكلمك بملء الحرية إذ ليس لدي مـا أخشاه غير الموت .

فتقدم الأميرال خطوة منه وقال له : أيها المارشال إنك في منزلي وأنت ضيفي .. قل ما تشاء فلا تسقط شعرة من رأسك عندي .

– اني أقول هذا القول ، وهو اني سأنسى ما تشرفت بسماعه من جلالتكم واني سأبذل كل ما أستطيعه في حماية ملكي والدفاع عنه دون أن أنبهه إلى ما عرفته منكم .

– وأنا احسد ابن عمي شارل لوجود امثالكم بين اتباعه ، وأود لو كان كل أعدائي مثلك .

– إن مولاي منخدع في الحالين فاني لست من أصدقاء الملك شارل ، بـل من خدام فرنسا ، وأما قولكم اني من أعداء جلالتكم فشهد الله اني أود مـا

تودونه من معاملة الهوكينوت بالعدل والانصاف .

– اشكرك يا حضرة المارشال ، وعلى هذا لا يمكن ان أعتمد عليك وعلى أصحابك .

– كلا يا مولاي ، ولكني اذا دعيت يوماً لحضور جلسة تعقد بينكم وبين ملك فرنسا ، انسى كيف اتفقت هذه المقابلة وأعينكم في كل مطالبكم ، وأجاهر أمام مليكي اني أنا الكاثوليكي أخجل مما يفعله الكاثوليكيون مع الهوكينوت .

فاتقدت عيناه وقال : أتعمل هذا ؟

– بل أتعهد به .

– وأنا واثق بوفائك أيها المارشال وأرجو أن تعقد هذه الجلسة قريباً وان يدعوك شارل لحضورها . اذهب ايها الدوق فقد سرني انك لست من أعدائي .

– وأنا أؤكد اني من أصدق المخلصين لجلالتكم في كل شأن ما خلا بعض المشروعات .

ثم انحنى المارشال أمام الملك وانصرف يشيعه الأميرال .

* * *

وبينما هو يسير في الرواق يتقدمه خادمان من غير نور دنا منه رجلان ، فقال له احدهما اتأذن لي يا سيدى المارشال أن أقدم لكم أحد اصدقائي .

فعرف فرنسوا ان الذي يحدثه الكونت دي ماربلياك وقال له : ان اصدقاءك أصدقائي يا كونت .

– اذاً أقدم لكم الشفالييه دي بارداليان فانه يرغب مقابلتكم في مهمة خطيرة .

فقال المارشال لبارداليان اني اكون غداً في قصري كل النهار واكون

سعيداً باستقبالك فيه

فأجابه بارداليان بصوت يضطرب التمس من سيدي المارشال ان يأذن لي بمقابلته الآن .

فأجفل فرنسوا لاضطراب صوته والحاحه بطلب المقابلة .

ودهش الأميرال ايضاً لهذا الالحاح ولكنه كان واثقاً من ان بارداليان لا يريد بالمارشال شراً .

وتداخل في الأمر وقال للمارشال : ان الشفالييه دي بارداليان يا سيدى ابسل واصدق رجل عرفته .

فقال فرنسوا لبارداليان : إن هذا الثناء وحده من فم الأميرال كاف لأن تكون من اصحابي ، فتعال ايها الصديق ما زال الأمر خطيراً لا يمكن إرجاءه إلى الغد .

فارتعش بارداليان لكلمة (صديق) فودع ديودات واسرع بالخروج مع فرنسوا ..

وسار الاثنان إلى قصر مونمورانسي، وقد عجب فرنسوا كيف ان بارداليان لم يفه بكلمة وهما على الطريق .

حتى اذا وصلا الى القصر ادخله فرنسوا الى غرفة وذهب الى غرفة ملابسه ليغير ملابسه الرسمية .

وهذه الغرفة التي كان فيها بارداليان هي نفس الغرفة التي وقعت فيها حنة على صك الطلاق .

ولكن فرنسوا لم يعلم شيئاً مما جرى فان أباه كتم عنه هذه الحادثة الفظيعة كل الكتمان فظل يعتقد ان امرأته مجرمة .

ولبث بارداليان وحده في الغرفة يمسح العرق المنصب من جبينه فقد حانت الساعة التي ينبغي فيها التصريح ، وهو التصريح الذي كان يرغب فيه بقدر ما يخشاه .

فان فرنسوا مونمورانسي سيعلم ان امرأته شريفة طـاهرة ، وسيعلم ان له فتاة ، وسيعلم ان امرأته فدته بنفسها ، وانها ظلمت ظلماً لم يظلمه انسان وهو سيعلم كل هذا بفضل بارداليان ، كما سيعلم ان كل هذه النكبة كانت من بارداليان .

وقد ذعر حين تمثل له هذا الخاطر فجعل ينظر الى ما حواليه نظراً تائهاً فاستقر نظره على صورة معلقة بالجدار .

وقد دهش حين رأى الصورة ودنا منها وهو يقول : لويزا لويزا .

ثم وقف باهتاً بعد أن تمعن بالصورة وجعـل يقول في نفسه : كيف ان المارشال لا يعلم ان له بنتاً ، وهو يضع رسم بنته في منزله ؟

وعاد الى التمعن بالصورة وهو معجب لهذا الاتفاق ، فعلم انهـا صورة الأم ، وانها كانت تشبه في حداثتها بنتها لويزا هذا الشبه العجيب .

وعندها ، عـاد فرنسوا ورأى بارداليان واقفاً أمام الصورة يتأملها بامعان ، فمرت غمامة كثيفة على تصوره ، ودنا من بارداليان فوضع يـده على كتفه .

فانتبه بارداليان كمن يصحو من رقاده وقـال له : أسألك المعذرة يا سيدي .

– انك تنظر الى صورة هذه المرأة .

– هو ذاك يا سيدي .

– وهي جميلة أليس كذلك ؟

– بلا ريب ، فهي من أجمل النساء .

– وانت تحسب نفسك سعيداً اذا التقيت بمثلها ؟

– انك يا مولاي كأنك تقرأ أفكاري ، نعم اني أحسب نفسي سعيداً اذا لقيت مثل هذه المرأة فأجعلها معبودي .

– يلوح لي أيها الفتى انك طاهر القلب شريف العـواطف ، وقـد كفتني

شهادة الأميرال كوليني فيك ، ولكني أرى قلبي ميالاً اليك حتى اني احببت ان أروي لك قصة صاحبة هذه الصورة التي أثر بك جمالها ، وان اكن لم أرو حكايتها لأحد ، فاني لا اعرفك ، ولكن لو كان لي ولد لما وددت الا ان يكون نظيرك .

فاجلس بجانبي تجاه هذه الصورة التي راعك جمالها .

فامتثل بارداليان وهو يقول في نفسه : ان لهجته تدل على مـا لقيه من أصناف العذاب .

وبدأ فرنسوا الحديث فقال : ان هذه الصورة رسم امرأة أحد أصحابي ، أو إنها كانت امرأته .

وقد كانت فقيرة ، وكان أبوها عدو أسرة صديقي .

فرآها صديقي وأحبهـا وتزوجها ، ولكنه لم يكن يستطيع زواجها إلا باغضاب أبيه ، فلم يعبأ بذلك وتزوج .

وقد اتفق لنكد طالعه انـه اضطر في يوم زواجه أن يسافر إلى الحرب ، فلما عاد من تلك المعارك ، أتعرف ماذا علم ؟

فسكت بارداليان ولم يجب .

– علم ان هذه المرأة التي كان يعبدها ، وعادى أهله من أجلها كانت خليعة متهتكة خائنة .. أيها الفتى أحذر من النساء .

فاختلج بارداليان وذكر وصية أبيه التي أوصاه بها قبل سفره .

وعاد فرنسوا إلى الحديث فقال :

ان رجاء صديقي كان مفقوداً بهذه المرأة ، وقـد وهبها قلبه وحياته فاستعاض عن الرجاء باليأس وعن الحب بالكره .

وماذا كان ذنبه في كل ذلك ؟ انـ كل ذنبه انه لقي تلك الفتاة في مساء يوم من أيام الربيع ، فأحبها وهو يحسبها من ملائكـة الله ، فكانت كما وصفتها لك

فوقف بارداليان عنـــد ذلك وقال له بلهجة خطيرة : ان صديقك مخطىء يا مولاي .

فنظر فرنسوا إلى بارداليان نظرة المنذهل ولم يفهم ما يقول .

فقال له بارداليان بل أنت المنخدع يا سيدي .

فحسب فرنسوا لأول وهلة ان بارداليان يحتج على كلامه احتجاجاً عاماً ، شأن بعض الرجال في دفاعهم عن النساء وقال له : دع الدفاع الآن يا حضرة الشفاليه ولنبحث في الشأن الذي قدمت إلي من أجله .

– ليكن مـــا تريد يا سيدي ، فاعلم إني مقيم في فندق دفينير في شارع سانت دينيس .

ويوجد تجاه هذا الفندق منزل يقيم فيه كثير من الفقراء ، وبينهم امرأتان أتيتك للمباحثة في شأنهما .

– امرأتان ؟

– نعم ، وهما أم وابنتها .

– وماذا تدعيان ؟

– لا أعلم يا سيدي . واني لا أحب أن أذكر لك اسمهما الآن قبل أن أروي لك حكاية هاتين التعيستين المظلومتين .

– إني مصغ اليك فقل ؟

– ان هاتين المرأتين على فقرهما وجمالهما يحترمهما الناس كل الاحترام ، ولا سيما الأم .

وهما تقيمان في هـــذا المنزل الحقير منذ أربعة عشر عاماً ، وكل ما يقال عنهما أنهما تنهكان جسميهما بالعمل ، وان الأم قـــد ربت البنت تربية الأميرات .

وهو كذلك يا سيدي المارشال فان هذه الفتاة تعرف جميع الفنون ، فضلاً عن ان لها جمالاً باهراً ، وأدباً ظاهراً ، يأخذان بمجامع القلوب .

– إنك تذكر من فضائلها أيهـــا الشفاليه ما حببهما إلي ، فقل ماذا يجب أن أصنع لهما .

– صبراً يا سيدي فقد فاتني أن أقول لك ان هذه الأم التي لا يعرف اسمها أحد ، تلقب بذات النقاب الأسود ، فإنها ما خلعت ملابس الحداد منذ عرفها أهل الشارع ، مما يدل على إنها نكبت نكبة شديدة .

واني أود أن أذكر لك تفاصيل أمرها ، فإن السبب في نكبتها كان واحداً من أهلي .

– نعم يا سيدي ، وهو أبي .

– كيف أبوك ؟

– ستعلم كل شيء يا سيدي حين أخبرك بتفاصيل هذه النكبة التي أصابت تلك السيدة النبيلة ، فاعلم قبل كل علم إنها كانت متزوجة ، وان زوجها غاب غياباً طويلاً ، فهي كما ترى تشبه قصتها قصة امرأة صديقك .

– أتم الحديث أيها الشفاليه .

– ان السيدة بعد سفر زوجها بستة أشهر ولدت مولوداً . ثم عاد الزوج.. وفي ذلك الحين ارتكب أبي الجريمة .

– الجريمة ؟

فسالت دمعتان على وجنتي باوداليان وقال : نعم يا مولاي الجريمة . ولو أعاد أحد هذه الكلمة التي أقولها لقتلته قبل أن يتمها .

– ان أبي اختطف المولودة الجديدة ، وكانت أمهـــا تعبدها عبادة ، فوضعوها في شر موقف بين أمرين وهما : أما أن توافق على اتهامها أمام زوجها بالخيانة أو تقتل طفلتها .

فاصفر وجه فرنسوا وقال بصوت أجش : ما اسم هذه المرأة ؟

– لا أقدر أن أقوله يا سيدي .

– فوقف فرنسوا وقد كاد يجن فقال له : كيف عرفت هذا ؟

– اسمع نهاية الحديث يا سيدي ، وهي ان الأم والبنت اختطفتا ، فتمكنتا من أن ترسلا لي كتاباً فيه كتاب باسم رجل عظيم كلفتاني أن أوصله اليه .

ثم ركع بارداليان فأخرج الكتاب من صدره ودفعه اليه قائلاً : هذا هو الكتاب يا سيدي .

فلم ينتبه فرنسوا لما عامله بارداليان من معاملة الملوك ، ولم ينظر إلى وجهه المضطرب ، بل كان كل اهتمامه بهذا الكتاب .

ولكنه لم يأخذه ، فجعل ينظر اليه شاخصاً باهتاً ويقول في نفسه : ماذا أرى ؟ إني في يقظة لا في حلم .. وهذا الفتى قد روى لي حكاية امرأتي حنة دي بيانس . وهو لم يلفظ اسمها ، ولكني أسمعه يدوي في قلبه دوي الرعد القاصف .

رباه ماذا أسمع ، ألا تزال حنة في قيد الحياة ... أهي تشتغل كالعاملات البسيطات لتربي بنتها .. بنتها .. ألها بنت ... إنها بنتي دون ريب .. وان حنة شريفة طاهرة .. نعم كل ذلك أكيد ، وإنها رضيت أن تقبل التهمة لانقاذ بنتها .. رباه ، أذلك ممكن . وهذا الكتاب . انه لا ريب بخط حنة .

ورأى بارداليان ما كان من جموده فقال له : اقرأ يا سيدي ، ومتى قرأت هذا الكتاب سلني أجبك ، فاذا لم أشاهد الجريمة فأنا ابن مرتكبها .

وقد قال لي أبي أموراً كثيرة لم أفهم شيئاً منها في البدء ، ولكنها بقيت منطبعة في ذاكرتي . اقرأ يا سيدي .

فأخذ فرنسوا عند ذلك الكتاب بيد ترتجف وقال في نفسه :

لقد عدت أحسب نفسي حالماً ، وسأستفيق من هذا الحلم ، فأرى الحقيقة الهائلة .. كن رجلا يا فرنسوا ، فانك تحملت أشد دواهي اليأس ، ألا تتحمل هذا الفرح الكاذب ؟

نعم انه فرح كاذب ، فان كل ما أراه حلم ، وهذا الفتى شبح وهذه الرسالة خيال ..

كلا إني لا أصدق شيئاً مما أسمع وأرى ، ولكن لأقرأ هذه الرسالة .

وعند ذلك فض الرسالة فعرف لفورة خط حنة ، فحاول ان يضع ذاك الخط على شفتيه ، ولكنه أجهد نفسه جهداً عنيفاً كي لا يظهر هذا الضعف أمام بارداليان وجعل يقرأ الكتاب .

فلما أتم تلاوته نظر إلى صورة حنة المعلقة على الجدار ، فركع أمامها وقال بصوت خنقته العبرات :

رحماك أيتها الحبيبة واصفحي عني !

ثم سقط مغمياً عليه لا حراك به .

فأسرع بارداليان اليه ، ورأى من الحكمة ان لا ينادي الخدم لاعانته في هذا الموقف ، فجعل يتولى بنفسه ايقاظه وينضح وجهه بالماء حتى استفاق .

وقد صحا فرنسوا وعيناه تتقدان ببارق غريب ممتزج بين الفرح والحزن والرجاء والأسف ، وغير ذاك من العواطف المتناقضة .

وأراد بارداليان ان يتكلم فقال له : اسكت أيها الصديق فسنجول في الحديث بعد حين وانتظرني هنا ، اتعدني ان تفعل ؟

– نعم يا سيدي .

فخرج فرنسوا من الغرفة ونزل إلى الاصطبل فامتطى جواداً وسار به .

وكانت الساعة الأولى بعد انتصاف الليل ، فاجتاز فرنسوا باريس حتى وصل إلى بابها الخارجي فأمر الحارس ان يفتح له بأمر الملك .

فعرفه رئيسهم وفتح له الباب ، فخرج فرنسوا يسابق الرياح بجواده وهو يصيح في ذاك السكون إنها حية . إنها بريئة .. امرأتي .. ابنتي .

وما زال على سيره حتى وصل إلى مونمورانسي ، واقترب من مرجنسي فسكن تأثره بعض السكون ، وذهب تواً إلى منزل تلك المرضعة الذي اجتمع

فيه بمحنة وبأخيه هنري يوم حدوث تلك الجريمة الهائلة وهو يقول في نفسه : ترى ألا تزال هذه المرضع في قيد الحياة ؟

ووصل إلى المنزل فطرق بابه بيد ترتجف .

فناداه صوت من الداخل قائلاً : من الطارق ؟

فأجاب فرنسوا قائلاً : افتحوا بالله فاني فرنسوا مونمورانسي .

فأسرعت تلك العجوز مرضعة حنة ، فأيقظت زوجها وقالت له : قم فهذا هو .

فانتبه زوجها مذعوراً وقال من هو ؟

قالت سيد مونمورانسي ومارجنسي ، قم وافتح له الباب فان قدومه دليل على عرفانه كل شيء .

ففتح زوجها الباب واسرعت العجوز الى فرنسوا فقالت له : ادخل يا سيدي إني انتظرك ، وما كنت اخشى إلا ان اموت قبل ان تعود .

وكان زوجها قد اثار مصباحاً ، فدخل فرنسوا وجلس على كرسي وامامه تلك العجوز واقفة .

وكأنما قد أدركت السبب في قدومه فمنعها السرور عن التقيد باحترام النبلاء وبدأت قبله الحديث وقالت :

– إنك قادم لتعلم كل شيء اليس كذلك ؟

– هو ذاك .

– إذاً لقد عرفت الحقيقة فتعال معي يا ابني .

فلم ينفر فرنسوا من ان تدعوه مثل هذه الحقيرة بابنها ومشى معها يتبع خطواتها البطيئة وزوجها يتقدمها بالمصباح .

ففتحت باب غرفة صغيرة ودخلت منه مع فرنسوا وهناك كرسي وسرير وعلى الجدار بعض رسوم منها تمثال العذراء .

وقد دنت العجوز من السرير وقالت لفرنسوا : إلى هنا جاءت حنة في

اليوم التالي لسفرك .

وفي هذا السرير أقامت أربعة أشهر وهي بين الموت والحياة ، لأنهم قالوا لها انك هجرتها وتخليت عنها ، وفي هذه الغرفة كانت تبكي وتصلي وتتوسل وتذكر إسمك في أحزانها .

فركع فرنسوا أمام ذلك السرير وبكى .

وسكتت العجوز إحتراماً لبكاء فرنسوا .

فلما نهض استأنفت حديثها فقالت :

– وهنا عادت اليها الحياة تباعاً فاتشحت منذ ذلك العهد بالسواد

فتمتم فرنسوا قائلاً : « ذات النقاب الأسود »

فقالت العجوز : وهنا يا سيدي وفي هذا السرير ولدت إبنتك لويزا ، فأنقذتها إبنتها من الموت يأساً ، لأنها رغبت في الحياة من أجل ابنتها ، وكانت كلما نمت البنت تعافت الأم .

ولم تبتسم تلك الأم المنكودة إلا يوم ظهرت أول إبتسامة على شفتي إبنتها لويزا .

أتريد أن أقول لك البقية يا سيدي ؟

– نعم .. نعم أريد أن أعرف كل ما تعرفينه .

– إذاً تعال معي ..

ثم خرجت به العجوز إلى خارج المنزل ، وذهبت به إلى قمة عالية تكتنفها الأدغال الكثيفة ..

وكان القمر يتوهج في كبد السماء ، فصعدت إلى القمة يصحبها فرنسوا وقالت له :

– أنظر يا سيدي ، ألا ترى من هذه القمة نافذة غرفة منزلي . إنه لو وقف رجل فوق هذه القمة في النهار وأشار اليه آخر من تلك النافذة ألا يرى إشارته ؟

وصاح فرنسوا قائلاً : أكان أخي هنري في تلك النافذة .

فالتفتت العجوز إلى زوجها وقالت له : قل ماذا رأيت ؟

فانحنى زوجها أمام فرنسوا وقال :

– إني لا أزال أذكر هذه الأمور كأنها حدثت بالأمس ، فقد كنت أشتغل في صباح ذلك اليوم بالحقل الكائن وراء هذه القمة التي نحن عليها .

ولما تعالى النهار ، دنوت من هذه القمة كي أستظل بظلها من الشمس وأستريح ..

فغفوت ، ثم لما صحوت رأيت رجلا مختبئا بين الأدغال وهو يحمل في ردائه ما لم أعلمه .

وكان مرتدياً بملابس ضباط حصنكم فاختبأت لخوفي منه ، فإن الضباط لا يرحموننا .

وأقمت نحو نصف ساعة أراقبه وهو لا يراني ، ثم رأيته خرج من الأدغال وسار مسرعاً لا يلوي على شيء .

فرأيت عند ذلك انه كان يحمل في وشاحه طفلا ، ولم يخطر لي في بال ان هذا الطفل بنت سيدتي حنة .

ولما عدت في المساء إلى المنزل ، علمت انك عدت من السفر وان سيدتي قد سافرت .

هذا كل ما رأيته يا سيدي رويته لك والله شاهدي على صدق ما أقول ..

ثم تنحى فدنت إمرأته من فرنسوا وقالت له : إني لم أعلم ، يا سيدي ، ما حدث بينكم وبين أخيكم هنري ، في تلك الساعة التي التقيتما فيها في منزلي ، ولكني علمت بعضه ، مما كنت أسمعه متقطعاً من فم تلك الأم القانطة .

وبعد حين أقبل رجل ورد الطفلة إلى أمها وكادت تجن من فرحها .

ثم حملت طفلها وركضت بها بغية لقائك وإخبارك بالحقيقة بعد أن أمنت

على طفلتها وقد منعتنا عن مرافقتها فلم نعلم شيئاً مما جرى لها .

هذا ما أعلمه يا سيدي ، ولكني علمت يقيناً شقاء هذه المرأة المنكودة التي أتهمها زوجها بالخيانة وهي أعف النساء وأشرف الزوجات .

وقد كنت ، يا سيدي ، منذ سنوات مضت ، أي حين كان لي قوة على السير ، أذهب مرة في مثل يوم سفرها ، من كل عام ، إلى باريس وأطوف في تلك العاصمة المتسعة باحثة عنها ، فلا أجدها ، وأعود قانطة من لقائها .

أما الآن ، فلم أعد أستطيع البكاء ، لقد نضب الدمع من عيني ، ولكني أبارك قبل موتي ، من يقول لي أنها في قيد الحياة وأنها سعيدة ، وان آية العدالة قد محت آية الظلم ، الملك يا سيدي قادم كي تقول هذا القول لمرضعة حنة .

فركع فرنسوا أمام هذه العجوز وقال لها بصوت مختنق : باركيني إذاً لأن حنة في قيد الحياة وستكون أسعد إمرأة في الوجود .

فباركته العجوز وعاد الثلاثة صامتين إلى المنزل .

وعند ذلك دخل فرنسوا إلى الغرفة التي ولدت فيها حنة ابنتها ، فاختلى فيها وأقام ساعة دون نور ، وكانت العجوز وزوجها ، يسمعان من الخارج صوت بكائه ، وكان يكلم نفسه بنبرات تختلف بين الوعيد والحنو .

وبعد ذلك ، خرج من المنزل وسار إلى الحصن ، ولما رآه الحراس دهشوا لقدومه الفجائي ، وحاولوا أن يقرعوا الأجراس إشارة إلى قدومه ، فمنعهم عن ذلك وأمرهم أن يأتوه بورقة من تلك الأوراق التي تكتب عليها الأوامر الرسمية ، فكتب عليها أمراً يقضي بأن يكون المنزل الذي تقيم فيه المرضعة العجوز وكل ما يحيط به من الحقول ملكاً لها ولورثائها من بعدها ، وأضاف إلى ذلك ٣٠ الف فرنك نقداً ، فأرسلت تلك الهبة في الصباح إلى العجوز .

ثم نادى وكيل الحصن وأمره أن يصلح القصر ويجعله صالحاً للسكنى فإنه سيقيم قريباً فيه مع أميرتين .

وفي الليلة نفسها سافر عائداً إلى باريس وهو مضطرب لهذه الحوادث التي قلبت نظام حياته .

وكان عندما يخطر له ان إمرأته بريئة وانه متزوج بسواها يطرد هذا الفكر بعنف ويقول : إنها الآن في خطر ويجب إنقاذها منه ، بل يجب أن تلقى من السعادة أضعاف من لقيت من الشقاء .

وكان حائراً في أمره ، لا يعلم كيف ينيلها هذه السعادة ، وكيف يستطيع الافتراق عن ديانا دي فرانس ، وكانت إذا ازدحمت في مخيلته هذه الأفكار ، بذل جهداً عنيفاً لتشتيتها وهو يقول : يجب في البدء أن أجدها ثم نرى ما يكون .

وما زالت هذه الأفكار تتنازعه حتى وصل إلى قصره في باريس حيث كان ينتظره باردليان .

* * *

أما باردليان فقد قضى تلك الليلة وهو في أشد حالات الاضطراب ، وكان أخص ما يشغله افتكاره بأبيه وما عسى أن يكون حكم المارشال عليه .

وكان عزاؤه في ذلك ان أباه هو الذي رد الطفلة إلى أمها وهو الذي أعطاها تلك الماسة التي أخذها جزاء الخيانة فردها التماساً للغفران .

على أن كل ذلك يعد عذراً بسيطاً بالنظر إلى الجريمة الهائلة ، فان أباه لو لم يختطف الطفلة لما حدث شيء من تلك النكبات على الاطلاق .

وأي نكبة أعظم من هذه النكبة فان المارشال طلق إمرأته التي قضت إمرأته ستة عشر عاماً تعاني أعظم الشقاء وكل ذلك بذنب أبيه .

ولبث باردليان على هذه الحالة إلى أن بزغ الفجر ، ثم أشرقت الشمس

فأقبل فرنسوا ، وكان أول ما بدأ به الاعتذار إلى باردليان ، وقال له : أسألك عفواً يا شفالييه لمغادرتي إياك هذا الزمن الطويل ، ولكني كنت على أشد حالات الاضطراب بحيث لم أكن أعي وأعلم ماذا أصنع .

أما الان وقد عادت إلي السكينة يمكننا أن نتحدث .

وقال له بتلك البساطة التي امتاز بها على أقرانه في معرض التعبير : اني طالما سمعت الناس يتحدثون عن نبل طباعك ، كما اني سمعتهم يضربون الأمثال بكبرياء أسرة مونمورانسي وفخامة هذا البيت ، ولكن هذه الفخامة والنبل والكبرياء لم تظهر أمامي بمظهرها الحقيقي ، إلا حين رأيتك تبكي أمام هذه الصورة .

فأجابه المارشال : صدقت أيها الشفالييه ، اني بكيت وشعرت أن البكاء في مثل موقفي عذب أمام الأصدقاء .. دعني القبك بلقب صديق ، لأنك أنت السبب في عودة النعيم إلى قلبي

— العلك نسيت يا سيدي المارشال اني ابن باردليان .

— كلا ، لم أنس ، واني لا أقتصر فقط على صداقتك وحبك ، بل اني معجب بك لما ضحيته ، لأنك دون شك تحب أباك .

— نعم أحب أبي حباً ليس بعده حب فاني ما عرفت غير أبي ، وهو الذي رباني منذ دببت ، إلى أن شببت ، ثم هو الذي دربني على هذا القتال وهو الذي كان يحميني بحسامه معرضاً نفسه للأخطار ، بل انه كان يؤذي نفسه كي يزود عني الأذى ، فقد طالما رأيته يغطيني بوشاحه في الليالي الباردة وينام دون غطاء .

وعلى الجملة ، فقد كان أبي وأمي وصديقي ، ولم أعرف سواه ، فمن أحب غيره .

فتأثر المارشال من كلامه وقال له :

— لم يبق شك لدي بأن قلبك من أطهر القلوب ، لأنك على عرفانك ما

في هذا الكتاب من تهمة أبيك ، وعلى فرط حبك له لم تتأخر عن تسليمي هذا الكتاب .

– إني لم أقل لك كل شيء بعد يا سيدي المارشال ، فاني إذا كنت أحضرت لك كتاب زوجتك المظلومة بغية كشف ظلامتها على عرفاني ان أبي متهم فيه ، ذلك لأني مستعد للدفاع عن أبي دفاعاً شديداً ، لا يخطر في بال ، أي اني أكون عدواً لدوداً لكل من يجسر أن يقول ان أبي ارتكب جريمة .

وقد قال هذا القول بلهجة خطيرة فاحمرت عيناه ، ورقص شارباه وظهر اضطرابه ، فانه سيعلم بلحظة ما يكون من جواب المارشال والد حبيبته لويزا ، فاما أن يكون من أعدائه أو من أصدقائه .

وبعد أن سكت لحظة عاد إلى حديثه فقال :

– التمس من سيدي المارشال أن يعاملني هنيهة معاملة الأكفاء للأكفاء ، ولذلك أقول قبل الأخذ في الحديث ، ورجائي أن تجيبني بمثل ما اتكلم به من الحرية والجلاء ، إنك إذا اعتبرت ابي عدواً لك كنت أنا من اعدائك ، واذا حاولت الانتقام منه عما اساء به اليك دافعت عنه والسيف متصلت بيدي دفاع المستميت .

وقد كان فرنسوا مصغياً اليه يتمعن بما يبدو على وجهه من مخائل النبل والبسالة ويعجب به منتهى الاعجاب .

ولما أتم حديثه مد المارشال اليه يده وقال دون تردد .

– اني لا اعرف غير بارداليان واحد ، وهو ذلك الذي أنقذني من وهدة اليأس بعد ان تخبطت اعواماً في ظلماتها واذا اتيح لي ان ارى يوماً اباك ، فأول ما اقول له اني اهنئه بأن يكون له ولد مثلك .

فشد بارداليان على يد فرنسوا وقال له وعلائم الامتنان بادية بين عينيه :

اشكرك يا سيدي فاني استطيع ان اقول لك الآن ان ابي حاول اصلاح ما بدر منه من الخطأ .

– كيف كان ذلك ؟

– لقد اخبرني بما اتفق له في زمن لم يكن يخطر له فيه اني سأتشرف بمقابلة المارشال دي مونمورانسي .

فما علمته منه يا سيدي ان أبي قد اختطف الطفلة ، ولكنه هو الذي أرجعها إلى أمها خلافاً للأوامر التي صدرت اليه .

– نعم ، نعم لقد عرفت كيف حدثت هذه الفاجعة فليس فيها غير مجرم واحد يسمى باسم عائلتي وآسفاه .

ثم شد على يد بارداليان وقال له : من يجسر أن يظن أن مثل هذه النكبة الهائلة ، يصيب الأخ فيها أخاه ، وكيف يخطر في بالي أن يختلق أخي هذه النمائم عن إمرأتي بعد أن أوصيته بها قبل سفري ، وأقسم لي ثلاثاً على الوفاء .

ولكن لندع الآن هذه الأبحاث ولنبحث في وسيلة لانقاذ إمرأتي . فهل لك أن تخبرني بتفصيل ما علمته عنها ؟

فحكى له بارداليان كيف إنهم قبضوا عليه ، وكيف انه بعد خروجه من الباستيل وجد كتاب إمرأته مفتوحاً ، إلى آخر ما يعرفه القراء .

وقد بقي أمر غامض في حكايته ، وهو كيف ان حنة قد اختارته دون سواه لإيصال الرسالة إلى زوجها ، فلم يفه بشيء عن ذلك .

وأما عن اختطافها ومكان وجودهما ، فلم يقل شيئاً لأنه لم يكن عالماً بشيء .

ولما أتم حكايته قال له : ليس لدي غير اثنين اتهمهما بهذا الاختطاف ، لقد قلت لك اني رأيت الدوق دانجو يرود حول المنزل مع أعوانه فقد يكون هو المختطف

فهز المارشال رأسه وقال : إني أعرف الدوق دانجو فهو يكره الاغتصاب حذر الفضيحة .

– إذاً ليأذن لي سيدي ، أن أذكر اسم الرجـــل الاخر الذي اتهمه وهو أخوك

وعندي انه قد يكون رآها اتفاقاً فأقدم على هذه الجريمة ، وانه يجب علينا أن نبدأ البحث في نواحي قصره .

وهذا الذي كنت أقوله ليلة أمس لصديقي الكونت دي مـاريلياك ، وقد زرته مستنجداً لمساعدتي في هذا البحث .

– أظن انك مصيب في ما تقول وسأذهب بنفسي إلى أخي ، ولكنك لو لم تجدني في باريس ، أكنت تتولى أنت إنقاذهما ، ومـاذا يـدفعك إلى هذه المروءة ؟

– يدفعني اليها الواجب يا سيدي وإصلاح شيء مما أفسده أبي .

– إنك في الحقيقة نبيل النفس فلا تؤاخذني لهذه الأسئلة .

– أشكرك يا سيدي لهذا الثناء والتمس منك العفو لاعتراضي على مـــا ارتأيته من زيارة أخيك فإنها زيارة مخطرة فيما أراه .

فظهر كل حقد فرنسوا على أخيه بين عينيه وقال له . دعني اجتمع بـه وسوف ترى في أي جانب يكون الخطر .

– اني لا أخاف عليك يا سيدي من هذه الزيارة بل عليهما .

فارتعش فرنسوا وقال : ماذا . عليهما ؟

– إنها إذا كانتا حقيقة عنده كما نتوهم ، ثم رآك قادماً اليه لخصامه فقد يدفعه حب الانتقام إلى ما تحمد عقباه ، وقد يصدر أمراً تجهله بشأنهما فلا يكون منه غير الشر .

– لقد أصبت يا بني فاني كلما سمعت قولاً من أقوالك زدت إعجاباً بك ولا أرى اجتماعي بك الا من دلائل حسن التوفيق

– أشكرك ، يا مولاي ، وأرجوك أن تصبر يوماً وليلة ، على أن أتولى أمر البحث عنهما بنفسي وابدأ منذ الآن بالبحث في قصر أخيك ، فـاذا كانتا فيه ، عملنا على إخراجهما بالحيلة ، فاذا أردت الانتقـــام بعد ذلك فاستعمل القوة .

– بورك فيك يا بني فان هذا الرأي رأي العاقلين .

– إذاً تأذن لي بالبحث بنفسي .

– إلى غد فقط .

– بل إلى أن يتيسر لي الدخول إلى قصر أخيك حيث أعرف حقيقة الأمر ومع ذلك فاني أرجو أن أفوز في هذه الليلة .

– أصنع ما أنت صانع فاذا نجحت أكون مديناً لك بالحياة

فنهض عند ذلك بارداليان مستأذناً بالانصراف فشيعه المارشال إلى الباب الخارجي .

وهناك عانقه شاكراً وقد مال اليه كل الميل ، وسار بارداليان إلى الفندق المقيم فيه ، فغير ملابسه وهو يقول : لقد مهدت السبيل للسعادة فلنقرع بابها في قصر هنري .

وحده فاضيه
منتدى
ليلاس

- ٣٢ -

بارداليان الاكبر

قبل شهرين من هذه الحوادث التي رويناها للقراء ، كان رجلان يسيران في ليلة باردة وقد وقفا عند فندق بونديكيه قرب أنجر .

وكان أحد هذين الرجلين بملابس الضباط والآخر بملابس الأتباع .

أما هذا الضابط فقد كان الدوق دامفيل ، أي هنري دي مونمورانسي وكان عائداً من بوردو إلى باريس ، فعرج في طريقه على هذا الفندق .

ولم يكن يصحب معه حراسه كما كان يفعل الأسياد في ذلك العهد، ولعله كان يريد بذلك أن لا ينبه اليه الأنظار .

ثم انه لم يعرج على هذا الفندق لجمال موقعه وطيب طعامه ، بل لأنه كان قد ضرب موعداً فيه للقاء .

وقد كان تابعه ، يخرج من حين إلى حين ، ويراقب الطريق من جهة انجر .

ولما كانت الساعة الثامنة أراد صاحب الفندق إقفال باب الفندق فقال له هنري لا تفعل فاني انتظر زيارة زائر .

ودام انتظاره إلى الساعة التاسعة ، واقبل فارس من جهة انجر وترجل عند باب الفندق .

وكان تابع هنري واقفاً في انتظاره عند الباب فأدخله إلى مولاه وتبودلت

بينهما إشارتان سريتان .

ثم بدأ هنري الحديث فقال له : أأنت قادم من قصر أنجر ؟

– نعم يا مولاي .

– أجئت لتحادثني من قبل الدوق ؟

– أي دوق يعنيه سيدي .

– ولكنه ... الدوق الذي ، اضطر في هذه الأيام .. إلى زيارة القصر .

– تفضل يا مولاي بالايضاح .

وقال له هنري بصوت منخفض : الدوق دي كيز .

– هو ذاك يا سيدي ، وأرجو معذرتي فيما قلته ، لأن الرقباء علينا كثيرون .

– حسناً فقل الآن أين هو الدوق ، الا يزال في أنجر ؟

– كلا ، لقد برحها منذ ثلاثة أيام وسافر إلى باريس ، واما الدوق دي انجر فقد سافر أمس .

– هل علمت إذا كانا قد اجتمعا أو حدث بينهما اتفاق ؟

– لا أظن ، يا سيدي ، فان الدوق دي أنجر كثير الاهتمام بأعوانه وحظاياه .

– إذاً ، لا بد ان تكون قادماً إلي بأمر من الدوق دي كيز .

– هو ذاك يا سيدي فاسمع ..

ثم دنا الرجل من هنري وقال بصوت منخفض ما يأتي :

في ٣٠ مارس القادم .. الساعة التاسعة ونصف مساء ... في فندق دفنيير . شارع سانت دنييس في باريس .. أتتذكر ذلك ، يا سيدي المارشال .

– نعم سأتذكر .

– وستسأل هناك عن المسيو رنسار الشاعر ، وتضع برقعاً على وجهك ، وريشة حمراء على قبعتك .

– في ٣٠ مارس مساء في شارع سانت دينيس .. في فندق دفينير أهذا كل ما أتيت لأجله .

– نعم يا سيدي فأذن لي بالانصراف كي لا ينتبه أحد لغيابي .

– إذهب ايها الصديق بأمن الله .

– ارجوك يا مولاي قبل ان اذهب ان تذكرني بالخير لدى مولاي الدوق دي كيز ، واني اتممت المهمة التي عهدت إلي .

– سيكون ذلك ، فماذا تدعى ؟

– مورفرن .

ثم انحنى أمامه وانصرف ، وبعد هنيهة سمع هنري وقع حوافر جواده ، فقال في نفسه : اني اعجب لهنري دي كيز كيف يستخدم مثل هؤلاء الناس فان هذا الرسول الذي ارسله الي في خدمة الدوق انجر وهو قد خانه اليوم فلا بد ان يخون دي كيز غداً .

أما الاجتماع في الفندق فسأذهب اليه في الموعد المعين ولكني سأتخذ كل ما ينبغي اتخاذه من الاحتياط .

وقد عرف القراء في بدء هذه الرواية كيف ان هنري وفى بوعده في حضور تلك الحفلة التي خطب فيها الشعراء وذبحوا فيها تيساً ، وعرف باردليان كل ما جرى من تلك المؤامرة .

ولما سافر مورفر صعد خادم هنري اليه وقال له : أتريد يا سيدي ان نواصل السفر ؟

– كلا ، فاني أحب المبيت الليلة في هذا الفندق فاحضر لي عشائي .

وذهب الخادم مسرعاً لتلبية الأوامر ، وبقي هنري وحده في الغرفة فسمع حديث مشاجرة تحت نوافذ غرفته بين صاحب الفندق وأحد المسافرين وسمع

صوت صاحب الفندق يقول للمسافر : لقد قلت لك اني لا أريد ان تربطه هنا الست أنا صاحب الفندق .

واجابه المسافر قائلاً : وانا اقسم ببيلاطس انه لن يكون إلا في هذا المكان .

وارتعش هنري لسماع الصوت .

وعاد صاحب الفندق إلى الاعتراض فقال : ان هذا الاصطبل خاص بجياد الأسياد .

– وانا اقول لك إن جوادي شريف الأصل فلا أضعه بين البقر .

– يظهر يا حضرة المتشرد انك تريد ان اطردك .

– وانت يا حضرة صاحب الفندق يظهر انك تحب ان تجلد بالسياط .

ولم يعد يسمع هنري بعد ذلك غير صوت الاستغاثة والتوجع ، فان المسافر كان يضرب صاحب الفندق ضرباً موجعاً دعا صاحب الفندق إلى الاستغاثة .

فأسرع هنري إلى مكان الحادثة فوجد المسافر يضرب صاحب الفندق دون إشفاق ، وصاحب الفندق يصيح ويستغيث ، وقد ارتفع صوته حين رأى رجلاً قادماً اليه .

اما المسافر فانه حين رأى هنري ، ورأى انه بملابس الضباط قال له: اني ارى على جنبك حساماً يدل على انك من الأشراف يا سيدي وانا منهم، فاذا احببت ان تكون الحكم بيني وبين هذا الرجل اخبرتك بأسباب الخلاف .

فهز هنري رأسه إشارة إلى الموافقة .

وحاول المسافر ان يتبين وجه هنري فلم يستطع لشدة الظلام فقال له : إن الخلاف بسيط يا سيدي ، وهو ان هذا الرجل يريد إكراهي على ان اخرج جوادي من الاصطبل واضعه في زريبة البقر .

فقال صاحب الفندق : إن الاصطبل يا سيدي لا يتسع إلا لثلاثة جياد

وهي موجودة فيه فأين اضع جواده الرابع .

وقال المسافر لا تصدقه يا سيدي ، لأن الاصطبل يتسع لأكثر من ثلاثة جياد ، وان جوادي من خيرها ، اتريد ان تراه ؟. إنك ستراه يا سيدي ، وترى إذا كان يليق به ان يبيت مع البقر .

فأمر هنري صاحب الفندق ان يأتي بمصباح .

ولما جاء به نظر هنري نظرة احتقار إلى ذلك الجواد الذي اثنى عليه صاحبه هذا الثناء ، ثم نظر نظرة سريعة الى صاحبه وقال : هو . هو بعينه وقد عرفته من صوته .

اما المسافر فانه دنا من جواده الهزيل وجعل يصف محاسنه ويقول : ارأيت يا سيدي اكرم منه فرساً ... امثل هذا الجواد الكريم يبيت في الزرائب .

وقال له هنري : لقد اصبت يا مسيو بارداليان فان جوادك خير الجياد.

وذهل بارداليان حين سمع هنري يناديه باسمه وعرفه للفور وكاد يلفظ اسمه غير ان هنري اوقفه بنظرة وقال له :

– ان صاحب الفندق مخطىء ولكنه سيصلح خطأه ويضع لجوادك خير العلف ، وأما انت يا سيدي فهل لك ان تتعشى معي ، فأغدو لك من الشاكرين .

وذهل صاحب الفندق مما رآه ولم يسعه إلا الامتثال ، لقد عرف ان هنري من كبار الأغنياء ، وللغنى حرمة كيفما كان .

واما هنري فانه تأبط ذراع بارداليان الأكبر دون كلفة وصعد به الى غرفته ، وجعل بارداليان يفكر في نفسه ، وقد وضع يده على قبضة حسامه من قبيل الحذر .

ولما دخلا إلى الغرفة اقفل هنري بابها فقال له بارداليان : يسرني يا سيدي ان اراك بعد هذ الفراق الطويل ، ولكن يسوؤني ان اراك تكاد تبلغ

مبلغ الكهول وانت لا تزال في عنفوان الشباب .

انني فارقتك ، يا سيدي ، منذ ستة عشر عاماً ، وكنت في ذاك العهد زين الشباب ، فمن اين جاءك هذا الشيب وانت لم تبلغ الحلقة الرابعة من العمر .

اليس عجيباً ان يكون عمري ضعف عمرك ، ويبقى شعر رأسي كحافية الغراب .

انني فارقتك يا سيدي وانا في الأربعين من عمري ، فمضى هذا العهد الطويل وانا باق على ما تعهدني ، اليس كذلك .. نعم انني اتجاسر وارجو ان اعيش مائة عام ، ويقيني انني اذا بلغتها بقيت كما انا . ماذا تقول يا سيدي انك لا تقول شيئاً ... اسمح لي ان اطعم جوادي وانصرف ، لأنني مضطر الى الرحيل في هذه الليلة .

فأجابه هنري مبتسماً : كلا فانك تتعشى معي .

– اسألك المعذرة ، يا سيدي ، فانهم ينتظرونني ، ولا بد لي من الذهاب .

– كيف تقول انهم ينتظرونك ، وانت كنت تخاصم صاحب الفندق بشأن ايواء جوادك الليلة في الاصطبل ، فابق معي للعشاء او احسب انك خفت .

فضحك بارداليان وقال : امثلي يخاف الناس ، يا سيدي الدوق وانا تخافني الأبالسة .

وكأنما كبرت عليه تهمة الخوف ، فوقف وخلع ردائه وقبعته ومنطقته فألقاها فوق السرير وجلس على المائدة بازاء هنري وهو لا يزال متقلداً حسامه .

وكان هنري يراقبه ، فلما رآه خلع ملابسه ، نزع سيفه والقاه على السرير فلم يجد بارداليان بدأ من الاقتداء به وفعل فعله .

وجلس الاثنان حول المائدة يأكلان وهنري ساكت مفكر وباردليان يفكر في سبب تفكيره .

الى ان فرغا من العشاء فبدأ هنري الحديث فقال :

– وانه يسرني ايضاً ان اراك يا باردليان وان تكون قوي العضل خفيف الحركات لم يقدم منك غير ثيابك فانها هي نفس التي كنت تلبسها منذ ستة عشر عاماً كما ارى وما اشبه هذا الطيلسان الذي تلبسه بطيلسان ابن حرب والفرق بينهما ان ذلك كان مرقعاً مرفوءاً وطيلسانك لا تزال الثقوب فيه كالنوافذ في البيوت ، لا جرم فهي ثقوب السيوف والحراب ولعلك استبقيت هذا الطيلسان لتفتخر بثقوبه ، وفي كل حال فقد سرني ان اراك .

فأجابه باردليان قائلاً بلهجة المتهكم : لقد خلقت يا سيدي ميالاً الى الفقر وهي لذة لا اجد الحياة هنيئة الا بها على انني لو أردت ان البس كل يوم ثوباً جديداً لما عدمت سيداً مثلك يهبني ما اريد .

-- بل تنال ما تريد بحد حسامك واقدامك وصبرك على الخطوب ، فاني لا انسى بسالتك لطول عهد اتصالك بي ، ولكنني لم اعلم شيئاً مما حدث لك بعد ذلك الفراق ، فماذا حدث لك بعده ؟

– عدت الى ما نشأت عليه قبل ان يعينني ابوك الشهير في خدمتك .

– وماذا كنت تصنع بعدما بارحت القصر .

– كنت اعيش ..

– واين كنت تقيم .

– حيث تطيب لي الاقامة فأفترش الأرض ، والتحف السماء ، على اني اقمت نحو عامين في باريس .

– ولماذا برحتها ؟

فظهرت علائم الخبث في عيني باردليان واجابه : اني اذكر اقامتي فيها بالخير ، فقد كنت في تلك العاصمة من اسعد الناس .

ولكني كنت أطوف في الشوارع في ليلة من ليالي أكتوبر ، فلقيت رجلاً كنت أعرفه منذ عهد بعيد وأحب اجتنابه لأنه إذا رآني كره ان يبقيني معدماً فقيراً وأنا أحب عيشة الفقر كما ذكرت لك فاضطررت ان أبرح تلك العاصمة مكرهاً إذ كنت مقيماً فيها مع ولدي .

فقال له هنري إني كنت في ذلك العهد في باريس ، وأذكر انه حدث لي حادثة فيها ، وهي ان اللصوص باغتوني ليلة وكادوا يتغلبون علي لكثرة عددهم ، فأنقذني منهم رجلا لا أعرفه ، فأهديته جواداً كريماً يدعى كالور .

والآن ، ألم تلاحظ يا باردليان ، إني لم أرك منذ ستة عشر عاماً ، وإني مقيم معك منذ ساعتين في غرفة واحدة ، ولم أسألك بعد عن خيانتك .

فقال باردليان في نفسه : لنتأهب لقد دنت ساعة الحساب .

ثم قال لهنري : أية خيانة تعني يا مولاي ، العلك تريد بها خيانتي باطلاق سراح ذلك الرجل الذي اصطاد ايلاً في أراضيك فأذقته العذاب ألواناً وقيدته بالأصفاد .

نعم لقد ذكرت يا سيدي وأنا أعترف بهذه الخيانة فما دفعني اليها غير إشفاقي على هذا الرجل المنكود .

– ليس هذا الذي أعنيه لأني أجهل هذه الحوادث .

– إذا كان مولاي يجهل مثل هذه الحوادث ، فلا أعد إنقاذي ذلك المنكود خيانة . . ولكن أية خيانة يعنيها مولاي ... لقد ذكرت ... نعم ، فان مولاي كان قد اتفق ليلة مع أحد البارونات على اختطاف امرأة حسناء ، كانت قد تزوجت في اليوم نفسه ، واتفقوا على ان يقترعوا عليها بعد اختطافها ، فمن أصابته القرعة كانت تلك المنكودة حصته .

فلما ذهب مولاي مع البارونات في تلك الليلة ، وجدوا الطير قد فر من القفص .

نعم يا مولاي، إني أعترف بجريمتي فأنا الذي أنذرت الزوج في النهار فهرب بزوجته لأني لم أطق احتمال هذا الظلم .

فأجابه هنري دون ان يخجل لهذا التقريع : إني نسيت الطير ، ونسيت القفص .

– إذاً .. أية خيانة تعنيها ، يا سيدي ، لأني قد أفرطت في الطعام ، فأضعفت التخمة ذاكرتي ، وما تعودت ان أذكر منسياً إلا إذا كان سيفي بجانبي .

ثم أسرع إلى السرير فأخذ سيفه وعاد به إلى مجلسه ، وهو يتنهد تنهد الارتياح .

فابتسم هنري ابتسام المتهكم ، وقال له : لقد نعم بالك الآن ، ولا بد أن تذكر .

فأجابه بارداليان ببرود : وهو ذاك ، فقد ذكرت خيانة تشبه الخيانات التي ذكرتها .

مثال ذلك حادثة مرجنسي التي فارقت مولاي بعد حدوثها ، ألعلها الحادثة التي يعنيها ؟

– نعم ، فأنت ما تركتني إلا لخوفك من ان تعاقب بالشنق .

– إنما الشنق والقتل والموت واحد ، ففي كافتها فراق الروح والخلاص من أدناس الناس .

أما هذه الحادثة فإني أعترف وأقر بأني خنت فيها مولاي ، لأني في ذاك اليوم نفسه أرجعت الطفلة إلى أمها ، وذلك لأني سمعت الأم المنكودة تبكي بكاء أليماً يقطع القلوب ، ولم يتمثل لي الشقاء الانساني إلا بما كنت أسمعه منها .

وقد قلت يومئذ في نفسي انك لو رأيت ما رأيته من يأس تلك الأم لصدر لي أمرك ، دون ريب ، بإرجاع طفلتها اليها ، فتوليت صنع هذه المروءة عنك .

ثم قلت في نفسي إني أخطأت إلى هذه الأم باختطاف طفلتها فلأصلح بعض خطائي بردها .

وأما فراري فقد أحسنت به إلى نفسي لأني لو بقيت لسجنتني في أظلم السجون هذا اذا لم تشنقني كما قلت .

ودعني يا مولاي أتمم اعترافي ، فاني منذ ستة عشر عاماً إلى اليوم لم تمر بي ساعة ، دون أن يقرعني فيها ضميري لتلك الجريمة التي ارتكبتها بأمرك .

وليست الخيانة بردي الطفلة الى أمها بل بارتكابي الجريمة التي خنت فيها كل شعور إنساني .

وأنت يا سيدي ، ألم تكن بعد تلك الفعلة من النادمين ؟

فوجم هنري هنيهة ثم قال له بعد سكوت قصير : أرى يا بارداليان انك حسن الذاكرة ، ولكني أعود الى ما قلته لك ، وهو انك خنتني ، ولا أبالي بمعرفة الأسباب التي دعتك الى الخيانة ، بل أكتفي بأن الخيانة قد حصلت ، فاعلم الآن إني لا أؤنبك عليها ، لأني أحب أن أنساها .

ثم وقف وقال : نعم إني أحب ان أنسى ، كما إني أحب أن أنسى ما فعلته الآن ، حين أخذت سيفك كأنك تحسب إني أبارزك بالسيف .

فوقف بارداليان ايضاً وقد كبر عليه هذا القول فقال لا يجب لمثلك ياسيدي ان يأنف من قتال مثلي .

ونعم لست من أولئك البارونات الذين يختطفون النساء .

ولست من اولئك الدوقات الذين يستعينون برجالهم على قتل الضعيف وسفك دماء الأبرياء .

وليس لي قصور أظهر فيها كبريائي ، ولا سجون أحبس فيها من قضى عليهم نكد الطالع أن يكونوا من أتباعي . .

نعم لست يا سيدي من اولئك الذين يدعونهم بالأسياد ، ولكن يخلق بعض الأحيان بكبار الأسياد امثالك ان يصغوا الكلام امثالي .

ولذا أكلمك دون غضب ودون خوف لعلمي ان لا فرق بيننا بالرجولية وان حسامي يعادل حسامك .

فهز هنري كتفيه وقال له : إجلس يا بارداليان كي نتحدث .

وقد سمع هنري كل مغامز بارداليان ، ولكنه ربما جل نفسه عن أن تمسه هذه المطاعن لصدورها من رجل كان من اتباعه او انه اعجب بشجاعة بارداليان ورآها موافقة لمشروعه الذي ينويه فقال له :

– ارى يا بارداليان انك لا تزال اشد من نصل حسامك ، فاذا اردت فابق حسامك في غمده فستجرده في غير هذا المقام ، اذ سيعرض لك كثير من الظروف .

على اني اعتبرك من الأشراف ، واحترم حسامك ، فاصغ الي الآن إذا شئت ، فإني مقترح عليك اقتراحاً لك ان ترضاه او تأباه ، فاذا ابيته افترق كلانا عن صاحبه ، واذا رضيته فلا يكون لك بعده غير الشرف والكسب .

فقال بارداليان في نفسه : لقد تغير الناس ، واستحالت الأخلاق .

فلو قلت قديماً بعض هذا القول لما اجابني إلا بالسيف ... ولكن لا بد ان يكون له بي مأرب بدليل ما يبديه من الملاينة ، فلنر ما يريد .

ثم قال له : لقد اعجبتني ، يا سيدي ، حرية مقالك . فتفضل واقترح ما تشاء

فقال له هنري : أتعلم يا بارداليان ، ان كثيرين من أهل الشباب والفتوة يحسدونك ويتمنون ان يكون لهم ما لك من الصفات ، فقد كنت حين عرفتك نحيفاً اما اليوم فقد اصبحت هائلاً كما ارى .

– اني افعل ما يمكن فعله يا مولاي .

– ولكن ألم يؤثر عليك العمر ؟

– لقد قلت انت يا سيدي اني لا ازال كما كنت في الشباب .

– وهذه القوة النادرة التي كنت اعجب بها إعجاب كل الناس .

– لا تزال بحمد الله ، بل زادت بعد ان برحت قصركم ، وهجرت عيش الرخاء

– إذاً ، إصغ إلي ولا تدع كلمة من كلماتي تفوتك ، فإني محدثك بأمر خطير .

وظهرت على هنري علائم التردد ثم زالت تلك العلائم فقال له ؟ ماذا تقول يا بارداليان بملك فرنسا ؟

– ملك فرنسا .. وماذا تريد ان يقول رجل معدم جوّاب أفاق مثلي عن ملك فرنسا سوى انه ملك فرنسا ، أي ذاك الملك الذي هو أضعف من الله وأعظم من الانسان .

ذلك الشمس المشرقة التي لا يجسر مثلي أن ينظر اليها فيذهب توقد شعاعها بنور عينيه .

– قل ما تفتكر به بجلاء ، يا بارداليان ، فلست من الذين يبهر عيونهم الشعاع .

– أؤثر يا مولاي ان تكون البادىء بالتصريح .

– ليكن ما تريد فاعلم اني لا أعد شارل التاسع ملكاً .

فارتعش بارداليان ورأى كأنما هوة قد فتحت أمامه فقال :

- إني لا أعرف جلالة الملك ، ولكني أسمع الناس يقولون عنه انه ضعيف الارادة ، شرير الطبع ، وانه مصاب بمرض يهيج أعصابه فيجرده من الرحمة ...

هذا ما أسمع الناس يقولونه عنه . . أما أنا فإني لا أعرف شيئاً من أمره ، إلا ان ملكاً تكون له هذه الصفات لا يزرع في قلوب رعيته عاطفة الاخلاص .

- إذا كانت هذه مبادئك .. فقد سهل اتفاقنا . لأنك حر باسل ذكي الفؤاد ، ويخلق بمن كانت له هذه الصفات أن يستخدمها في عمل عظيم .

ولا أنكر ان المشروع محفوف بالخطر ، ولكن من كان مثلك ، لا يعبأ بالمخاطر .

فماذا تقول ، إذا ارتقى العرش ، بدلاً من هذا الملك الخامل الضعيف ، ملك ملؤه الحزم والنشاط ، والمروءة والاقدام ... ملك يجعل هذه البلاد من أرقى الممالك ، ويجعل من يستحق من رجالها من أشهر الرجال .

- أرى مولاي يطلب إلي المؤامرة على الملك .

- هو ذاك يا بارداليان ، وأنت ترى مبلغ ثقتي بك ، وما كان ذاك إلا لأن أمثالك نادرون .

- لا أنكر ما تقول يا سيدي ، غير ان تشريفك إياي بهذه الثقة قد يؤدي بي إلى المشنقة .

- هل خفت ؟

- مما أخاف اذا كنت لا أخافك .

- إذاً ، ما يمنعك عن موافقتي ، وفوقها فأنت لا تلج هذه المؤامرة مباشرة .

- أرجو سيدي ان يكلمني بايضاح لأني لم أفهم كل ما يريد .

- إذاً فاسمع ، اني اندفعت في هذه المؤامرة ، بحيث بات يستحيل علي الرجوع .

وهي مؤامرة شديدة الخطر ، وقد يتفق لي ان أحتاج إلى بعض الرجال المخلصين

فإذا كان حظ هذه المؤامرة الفشل ، وكنت وحيداً ، كنت ضعيف الدفاع .

وأما ، اذا كان لدي من أعتمد عليه في المهمات ، ضاعف هذا الاعتماد بأسي .

ولذا كنت في أشد حاجة الى بطل مجرب مثلك ، شديد الذكاء ، كثير الحيلة طلق اللسان ، لأني قد أضطر ان أجعلك سفيري في بعض المهام فتنوب عني في قول ما أريد .

- لقد فهمت يا سيدي ، فأنت تريد ان تجعلني اليد العاملة ، وتكون انت الرأس المرشد .

- نعم هذا هو مرادي فهل توافق عليه ؟

- أرضاه بملء الارتياح بشرط ان تكون لي منه فائدة .

- ماذا تريد أن تكون فائدتك ؟... سل ما تشاء ، ولا تخف أن تسأل .

- اني لا أطلب شيئاً لنفسي ما خلا نفقاتي .

- إذاً سأجعل لك راتباً قدره خمسمائة ريال تقبضه في كل شهر الى انتهاء المهمة . أيكفي هذا الراتب ؟

- بل هو كثير ولكنه راتب لا مكافأة .

- اذا كنت لا تريد شيئاً لأجلك مما ترجوه من الفائدة ، فلمن تريد ان يكون ؟

– لولدي .

– هل لك ولد ؟

– ألم أقل لك يا سيدي .

– نعم لقد ذكرت .. فقل ماذا تريد لولدك ؟

– مائة الف فرنك اذا حبطت المؤامرة يعطاها بشكل هبة .

– واذا نجحت ؟

– أي اذا استوى على عرش فرنسا الملك الذي تختاره ؟

– نعم .

– اذا كان ذلك فلا اطلب لولدى مالاً ، بل اطلب له منصباً رفيعاً في الجيش يناسب بسالته وإقدامه .

– أما المائة الف فرنك فإني أتعهد بها منذ الآن ، واما المنصب فإني أتعهد ان أكتبه ضمن شروطي التي سأقترحها حين أرضى الرضى التام بخدمة الملك الجديد .

– وانا أكتفي بكلامك ، متى تبدأ هذه الحملة ، او بعبارة أخرى متى تريد ان اكون في باريس ؟

فتمعن هنرى هنيهة ثم قال : بعد شهرين ، إذ لا ينتظر حدوث أمور ذات شأن قبل هذا التاريخ ، ولذا يجب ان تكون في قصرى في أوائل شهر أفريل .

– سأوافيك وربما جئت قبل هذا الموعد .

– كلا لا يجب ان تحضر قبله إذ لا أحب ان يراك احد في باريس الا بعد هذا التاريخ . وعندما تصل الى باريس اذهب تواً الى القصر ولا تدع احداً يراك من الذين يعرفونك .

– سأحضر ليلاً في اليوم الثامن من افريل .

– وانا أنتظرك في ذاك اليوم ، فماذا عولت أن تفعل في خلال

هذه المدة ؟

– علي ان أسير الهوينــاء الى باريس ، وأرود ضواحيها ، الى أن يحين الميعاد

– هل انت محتاج الى النقود ؟

ولم ينتظر هنرى جواب بارداليان ، بـل نادى تابعه وكلمه همساً . وذهب الرجل وعاد بكيس صغير محشو بالدنانير ، ووضعه على المائدة وانصرف .

فقال بارداليان في نفسه : ما اطيب الفاكهة بعد الطعام لأنني لم اذق طعمها منذ عهد بعيد .

ثم تناول الكيس ووضعه في جيبه .

وبعد ساعة كان جميع من في الفندق نياماً ما خلا هنرى وبارداليان فكان هنرى ساهراً في سريره يناجي نفسه ويقول :

لقد ظفرت برجل يساوى ثقله ذهباً عند الدوق دى كيز .

وكان بارداليان يراقب النجوم باسماً وهو يقول :

اني مخاطر بحياتي ولكنني ضمنت مستقبل ولدى .

وحده فاضيه
منتدى ليلاس

- ٣٣ -

الاسيرتان

في اوائل شهر افريل ، اى في ذلك اليوم الذى ابدل فيه بارداليان الأكبر ملابسه القديمة البالية بملابس جديدة، ودنا من ابواب باريس ، وهو اليوم الذى كان بارداليان الأصغر يسعى فيه الى الاجتماع بفرنسوا مونمورانسي ، نذهب بأذهان القراء الى قصر مسيم اى قصر هنرى مونمورانسي الذى سجنت فيه حنة وابنتها لويزا منذ عشرة ايام .

وكان هنري في ذاك اليوم عابس الوجه مقطب الجبين يسير جيئة وذهاباً في غرفة متسعة ، وقد تاه في مهامه التفكير . فانه حين وجد حنة استحالت حياته وعادت اليه ايام صباه ، وهاجت في قلبه الشره براكين ذلك الغرام القديم .

وقد عرف القراء من الفصل السابق ان غرام هنرى كان قد تناقص وكاد يتلاشى بدليل انه لم يقل كلمة سخط لبارداليان الأكبر لانه كان قد نسي حنة لتقادم العهد بغرامه او حسب انه نسيها .

ولكنه حين وجدها واسرها شعر ان غرامه القديم قد تجدد .

وربما لم يكن هذا الحب يماثل الحب السابق ، فقد كان للكبرياء والعناد دخل فيه .

وقد كان ، فيما مضى ، يستسهل الجريمة إرضاء لعواطفه في هذا الحب ،

أما الآن فقد بات يستسهل الشدة والعنف ، وكل ضروب النـذالة في هذا السبيل .

وكان يفتكر وهو يمشي انه حين كان يراقبها ايام صباه من خلال الادغال التي كان يتوارى فيها يشعر ان قلبه يكاد يخرج من صدره ويرى انه لا يجسر على الدنو منها .

وكان يرضى ان لا تكون له على ان لا تكون لسواه .

وحين جرحه اخوه في الغابة وحمله الحطابون الى الحصن لم يكن يشغله ويخيفه غير إمكان اجتماع حنة بزوجها واتفاقها فيكون كل ما كاده قد ذهب ادراج الرياح .

ولكنه لم يحدث شيء مما خافه ، ولما علم ان اباه قضى بطلاقها من اخيه كان سروره لا يوصف وقنع بهذا الانتقام .

هذا ما كان يفتكر به وهو يسير في غرفته ذهاباً وإياباً بخطوات مضطربة ، ثم وقف فجأة وقال في نفسه : اني فرحت لطلاقها ، ورضيت ان لا تكون لي بعد افتراقها عنه ووجدت في ذلك سروراً وارتياحاً ، فمن اين جاء هذا الارتياح ...

انه نتج ، دون ريب ، من بغضي لأخي . فإني كنت اكرهه اكثر مما كنت احبها ...

ولذا لما تعاقبت الأيام محت ذلك الحب ، ولكنها لم تقو على محو ذلك الكره الدفين ..

نعم اني اكره اخي كرهاً عظيماً ، واني لم انتظم في سلك هذه المؤامرة التي قد لا اخرج منها حياً الا لأتغلب على اخي واسحقه سحق الزجاج لأن كرهي اياه لا يقف عند حد .

اذاً قد امحى ذلك الغرام ، وقد عرفت السبب في زواله وهو حلول بغض اخي محله .

ولكن ما بالي اضطربت حين رأيتها .. وكيف اتقدت جذوة ذاك الغرام وانا احسبها قد انطفأت ...

بل كيف أراني أحبها اليوم فوق ما كنت أحبها أمس ... وأخي أين هو الآن .. إنه بعيد عن باريس دون ريب ، فما يمنعني عن ان أبلغه انهما في قبضة يدي .

وفيما هو يناجي نفسه بهذا القول ، وقد بلغت نفسه أبعد غايات الانتقام طرق الباب .

فظهرت عليه علائم الجزع وفتحه ، فدخل منه ذلك الرجل الذي كان مع هنري في الفندق الذي اجتمع فيه بباردليان الأكبر فقال : لدي خبر هام يا مولاي .

– ما هو ؟

– هو ان أخاكم في باريس ، وقد رأيته وقفوت أثره حتى دخل إلى قصره .

فاصفر وجه هنري وقال :

– أواثق مما تقول ؟

– لقد رأيته يا سيدي كما أراك .

– حسناً دعني وحدي .

فانصرف الرجل وجلس هنري على كرسي يضطرب ، وهو منذ هنيهة كان يحدث نفسه بابلاغ أخيه ان امرأته وابنته في أسره .

ثم جعل الآن يفكر في طريقة اجتنابه والفرار منه ، ويقول في نفسه : فرنسوا في باريس ... إذاً لا بد لنا من أن نلتقي ... واني أشعر بيد خفية تدفع كلا منا إلى الآخر ..

وعبثاً كنت أحاول اجتنابه ، وأذهب إلى الشرق ، حين يكون في الغرب ...

نعم ، قد كان ما خفت ان يكون وسنلتقي بعد أسبوع بل ربما التقينا اليوم ، فماذا يقول لي وماذا أقول له ؟

ثم قام يمشي في أرض تلك الغرفة وهو يحاول ان يسكن الخوف الذي استولى عليه لما علمه من قدوم أخيه .

وقد مر وهو يمشي بمائدة فضرب عليها بيده وهو يقول : إني لو كنت وحدي لما خشيت لقاءه .

بل كنت أذهب اليه فأقول له : أنت أتيت لتبحث عني وقد أتيت اليك فقل ما تريد .

ولكني لست وحدي ... وهي معي واني أحبها ... ولا أحب أن يجدها ، وان يلتقيا ، لأنها قد تكون لا تزال تحبه ، فماذا أصنع .. وأين أخبئها ؟

وبقي على هذه الحالة ساعة ، إلى ان ظهرت عليه علائم السكينة ، فابتسم وقال :

– نعم إنها ستكون هناك بأمن ، فإني أعرف طريقة تضمن لي وفاء تلك المرأة التي سأقيمها عندها ..

وعند ذلك ذهب الى تلك الغرفة ، التي كانت مسجونة فيها حنة وابنتها .

فلما وصل إلى بابها وقف هنيهة يصغي ، فلم يسمع حساً ففتح الباب بمفتاح كان معه .

ثم دخل ووقف وقد ظهر عليه الاصفرار .

وكانت حنة وابنتها جالستين . فلما سمعتا صرير المفتاح في القفل ، تعانقتا كأنهما تحميان نفسيهما بهذا العناق ، وجعلتا تنظران إلى هنري نظرات الرعب .

أما هنري فانه أقفل الباب وتقدم منهما فقال لحنة :

— أعرفتني يا سيدتي .

فاحمر وجه حنة وقالت له : كيف تجسر ان تظهر لي أمام هذه الفتاة ، بل كيف تجسر ان تكلمني أمامها .

— أرى الآن انك قد عرفتني ، فأهنىء نفسي لوثوقي من اني لم تظهر علي علائم الكبر ، كما قال لي أخيراً رجل لا بد ان تذكريه ، فانه يدعى باردليان .

فغطت لويزا وجهها بيديها حين سمعت اسم باردليان .

وقالت له حنة : إنك جردتنا من آخر نعيم بقي لنا ، وليس ذلك يذكر في جانب آثامك ... نعم إننا أسيرتاك ولكنني عازمة عزماً أكيداً على ان لا أدعك تتمادى في هذه الجرائم

فانتفض هنري وضم يديه وحاول ان يقدم على عمل وحشي غير انه ملك نفسه ، وكظم غيظه فقال :

— أنت لا تزالين على ما كنت أعهده بك ، لأني ما قابلتك مرة إلا قرأت سور الكره والحقد بين عينيك .ثم رأيتك اليوم بعد كرور الأعوام ، فرأيت هـذا الحقد وهذا الرعب لا يزالان فيك على سابق العهد بهما .

فاعلمي يا سيدتي إني أحب محادثتك الآن في بعض الشؤون ، وأود ان أكون معك في خلوة ورجائي ان تدعنا ابنتك وحدنا .

فطوقت لويزا عنق أمها بيديها وقالت لها :

— أماه اني لا أبتعد عنك .

فقالت لها حنة : إطمئني يا ابنتي فلا نفترق ، ولا تخشي هذا الرجل لأن أمك تحميك .

فاضطرب هنري اضطراباً شديداً ، وخطر له في البدء ، أن يجنح إلى العنف . ولكنه رأى ، من عيني حنة ، انها واقفة مع ابنتها وقوف اللبوة مع أشبالها فخاف ومع ذلك فإنه كان يريد ان يكلمها .

وقد هاجت عواطف غرامه السابق ، حتى لم يعد يعلم في أي موقف يقف بازائها .

وسكتت هنيهة ، ثم قال لها ، بلهجة جمعت بين الالتماس والوعيد معاً :

مما تخافين يا سيدتي ، فاني لو شئت التفريق بينك وبين ابنتك لفعلت ، ولكني لم يخطر لي هذا التفريق في بال .

قولي عني ما تريدين ، وظني بي ما تشائين ، فإن ذلك لا يمنعني عن ان اكلمك بملء الحرية والجلاء .

نعم اني نهجت معك مناهج العنف الشديد ، وربما عدت ايضاً إلى هـذا العنف إذا احتجت اليه .

اني وفي لنفسي ولست من اولئك الذين يخدعون النساء ، فيتزوجون بهن خدعة ونفاقاً ، ثم يطلقونهن طلاقاً غير مشروع .

إني أرى من عينيك احتجاجاً عنيفاً ، ولكن هذا الاحتجاج لا يمنع كون ما قد كان . إن فرنسوا قد هجرك هجر الزعانف الأسافل ، وأما أنا فقد بقيت على الوفاء .

فصاحت حنة صيحة كره وأنفة ، فـان هنري عرف كيف يكرهها على أن تجيبه . ونسيت ابنتها وتمثل لها زوجها فرنسوا فقالت لهنري :

— أيها الشقي ، أنت السافل وأنت الذي فرقت بيننا بآثامك ، وأمـا فرنسوا فانه لا يزال يبكيني كما أبكيه .

ثم شهقت بالبكاء فعانقتها لويزا وقالت لها :

— أماه إني لا أزال لك

فضمت حنة ابنتها إلى صدرها وقالت لها :

— نعم ، يا ابنتي .. فأنت كل ما بقي لي في هـذا الوجود ، وأنت كنزي الوحيد .

فجعل هنري ينظر إلى الأم والبنت نظرات ساهية ، وقد أدرك خطأه

بعدم التفريق بينهما ، وعلم ان الكلام معها لا يفيد ، وانه لم يبق له غير سياسة العنف ، فقال لها بلهجة الاعتدال :

- لا بأس ، فستعرفين في مستقبـــل الأيام أنك مخطئة بالحـكم علي ، بل ستعرفين اني أنقذتك مع ابنتك من أشد الأخطار ، فلا تنظرين إلي بهذا الرعب .

والآن يجب ان تعلمي انه لا يمكن ان تقيما في هـذا القصر ، لأن الخطر الذى كان ينذركما في شارع سانت دينيس ينذركما هنا أيضاً فاستعدا للذهاب بعد ساعة في مركبة تحملكما إلى محل امين .

ثم تركهما وانصرف وهو يقول : سأختار بعدها فرصة مناسبة

ولبثت الفتاة وأمها بعد ذهابه حائرتين واجمتين ، وقد رعبت حنة رعباً شديداً ، وقالت في نفسها : لم يبق لنا حيلة فقد وقعنا بين براثن هذا الوحش ، فان الرجل لا يزال كما عرفته منذ غرور الصبى .

ثم قالت لابنتها ، واليأس ظاهر بين عينيها : ما عساه يصنع بنـــا هذا الرجل ؟

فقالت لها لويزا : تشجعي يا أماه ، وليرسلنا إلى حيث يشاء بشرط ان لا نفترق .

وقد مضى ذلك النهار ، ومضى الليل دون ان يقدم اليهما أحد خلافاً لما قاله لهما هنري من انهما ستنتقلان بعد ساعة .

« تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني »

وحده
قاضيه